سلسلة
القصص القرآني

دكتور
حمزة النشرتي
عبد الحفيظ فرغلي د. عبد الحميد مصطفى د. محمد شعلان

المجلد الرابع عشر

سلسلة
القصص القرآنى

المجلد الرابع عشر

دكتور
حمزة النشرتى
عبد الحفيظ فرغلى   د. عبد الحميد مصطفى



الفتح الأكبر - فتح مكة

- الاعداد لذلك الفتح
- كتمان الأمر
- قصة حاطب بن أبي بلتعة
- لقاء العباس
- إسلام أبي سفيان بن الحارث
- إسلام أبي سفيان بن حرب
- دخول مكة
- خالد بن الوليد يقاتل فرسان مكة
- إهدار دم بعض المشركين ثم العفو عن بعضهم بعد اسلامه

الفتح الأكبر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣ ﴾ (١)

لقد آن للمسلمين أن يدخلوا مكة .. بعد أن طردوا منها ذات يوم منذ ثماني سنوات .

آن لهم أن يدخلوها فاتحين مهللين مكبرين ، يرفعون فى أيديهم ألوية الإسلام عالية خفاقة ، وقد كانوا منذ ثمانى سنوات قلة ضعيفة لايجرؤ واحد منهم أن يجهر بكلمة التوحيد خوفا من أولئك القوم الغلاظ الشداد الذين كانوا يسومونهم سوء العذاب ـ يجلدونهم بالسياط ، ويلقونهم على حر الرمضاء وقد جردوهم من ثيابهم وألقوا فوق ظهورهم وصدورهم الصخور الثقال ، وكانوا يكوونهم بالنار ويرجمونهم بالأحجار ويتركونهم فى أيدى السفهاء وقد ربطوهم بالحبال يجرونهم منها ويكيلون لهم ألفاظ السباب وقوارص الكلم ..

لقد تبدل الموقف الآن وحقت كلمة الله ، وجاء الحق وزهق الباطل ، وها هى ذى جحافل المسلمين تستعد بعد أن صدرت لها الأوامر من قائدها الأعلى بالاستعداد . . .

---

(١) سورة النصر

عودة أبي سفيان إلى مكة

ولكنا لانتعجل سير الأحداث ؟ لقد وقف بنا الحديث قبل ذلك عند خروج أبي سفيان من المدينة وقد فشل فى مهمته .. إنه ذهب إليها يطلب من النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يمد الأجل بينه وبينهم ، ولكنه لم ينجح فى مهمته ...... فهم الذين نقضوا عهدهم مع المسلمين .

وانصرف من المدينة بعد أن دخل المسجد وهو يهتف : أيها الناس إنى قد أجرت بين الناس ، ولا والله ما أظن أن يخفرنى أحد .

ورجع إلى مكة ، وأخذ يقص على زوجته هند بنت عتبة قصة سفارته ، وكانت غيبته قد طالت حتى ظنت به قريش الظنون ، وكثير منهم أشاع أنه قد صبأ ..

قالت له هند : لعلك بعد طول غيابك قد جئت قومك بطائل .. لئن كنت قد ظفرت لهم بعهد فأنت الرجل .

فلما قص عليها قصته ظهر الغضب فى وجهها ، وقالت : قبحت من رسول قوم ، فما جئت بخير .

وحين أشرقت الشمس توجه إلى الحرم ، فحلق رأسه عند أساف[٢] ونائلة ، وذبح لهما ، ومسح بالدم رأسيهما ، وقال : لا أفارق عبادتكما حتى أموت .

---

(٢) أساف ونائلة صنمان كان يعبدهما أهل مكة . وأصلهما رجل وامرأة تعاشقا وفجرا معا فى الحرم فمسخهما الله حجرين ، فاتخذهما الناس ـ بعد أن أغراهم الشيطان ـ إلهين .

لقد فعل أبو سفيان ذلك أمام قومه حتى يبرأ نفسه مما اتهمته به قريش من أنه قد صبأ وترك دينهم واتبع دين محمد ..

واجتمع حوله زعماء قريش يقولون له : ما وراءك يا أبا حنظلة ؟

فأنهى إليهم قصته من أولها إلى آخرها ، حتى قال : لم أجد أمامى إلا العمل بما أشار عليَّ به ابن أبي طالب . فدخلت المسجد

وقلت : أيها الناس إنى قد أجرت بين الناس .

فقالوا له : هل أجاز لك محمد هذا الجوار ؟

قال : لا .

قالوا : لقد رضيت بغير رضا ، وجئتنا بما لايغنى عنا ولاعنك شيئا . ولعمر الله ما جوارك بجائز ، وإن إخفارك عليهم لهين [٣] والله ما زاد ابن أبي طالب على أن لعب بك .

فقال أبو سفيان : والله ما وجدت أمامى غير ذلك ..

قالوا له : يا أبا سفيان ، ما جئتنا بصلح فنأمن ، ولا بحرب فنحذر .. وهكذا فشلت سفارة أبي سفيان .

الاستعداد للفتح

وأمر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ المسلمين بالتجهز دون أن يعلن عن وجهته .. لقد أراد أن يفاجىء قريشا قبل أن تأخذ الأهبة له ..

---

(٣) الإخفار : نقض العهد والذمة والجوار

وكان قد أخفى ذلك حتى عن أقرب المقربين إليه ، فقد دخل أبو بكر رضى الله عنه على ابنته أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ فوجدها تعد بعض حاجات السفر ، فقال لها : أى بنية ، أمركن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بتجهيزه ؟

قالت : نعم .

قال : فأين ترينه يريد ؟

قالت : لا والله ما أدرى . .

كان ذلك قبل أن يستشير النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أصحابه فى ذلك . .

ثم إن أبا بكر ـ رضى الله عنه ـ دخل على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : يا رسول الله ، أردت سفرا ؟

قال : نعم .

قال : أفأتجهز ؟ قال له : نعم

قال : أين تريد يا رسول الله ؟

قال : قريشا ، واكتم ذلك يا أبابكر . .

قال أبو بكر : أوليس بيننا وبينهم مدة ؟

قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنهم قد غدروا ونقضوا العهد .

وأوصى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أبا بكر أن يطوى الخبر ، ولا يذكره لأحد .

ويذكر الرواة أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم دعا أبا بكر ، فاستشاره فى

أمر المسير إلى قريش ، فذكر له أنهم قومه وعشيرته ، وفهم من قوله ما يشير إلى ميله إلى عدم السير إليهم .

ثم دعا عمر ـ رضى الله عنه ـ فاستشاره فى ذلك ، فوافق على الفور ، وذكر له أنهم رأس الكفر والشقاق ، وذكّر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما افتروه فى حقه ، حيث قالوا عنه إنه ساحر وإنه كاذب وإنه مجنون إلى غير ذلك مما كانوا يقولون ، ثم قال له : وأيم الله إنهم أشد الناس عداوة للدين .

فعند ذلك أعاد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما كان قد ذكره قبل ذلك ـ حين شبه أبابكر بإبراهيم ، وشبه عمر بنوح ، وقال : إن الله ليلين قلوب قوم فى الله حتى تصبح ألين من اللبن ، وانه ليشدد قلوب قوم فى الله حتى تصبح أشد من الحجارة .

ووافق النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على رأى عمر . .

وقد سبق أن ذكرنا أن هذا التصوير وهذا القول كان فى شأن الاستشارة فى أمر أسرى بدر ، ولكن لامانع من أن يكون قد تكرر فى هذا الموقف أيضا . . . .

وصدر الأمر للمسلمين بالتجهز للمسير دون الإفصاح عن الجهة التى عزم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على التوجه إليها .

وقدمت المدينة قبائل من العرب الذين أسلموا : قدموا من غفار وأسلم ومزينة وأشجع وجهينه للمشاركة فى الجهاد .

وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : اللهم خذ العيون والأخبار

عن قريش حتى نبغتها فى بلادها . .

وضمانا لعدم سريان الخبر إلى مكة ، وضع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الطرق المؤدية إلى مكة حراسا يحولون بين من ينكرونهم والتوجه إلى مكة حتى لايخبروا أهلها بتجهز النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمسلمين للخروج إليهم .

سرية بطن إضم

وإمعانا فى التمويه بعث النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أبا قتادة الحارث بن رِبْعى الأنصارى على رأس سرية إلى بطن إضَم ، وهو واد بين « ذى خُشُب » و« ذى المروة » على مسافة ثلاثة بُرُد ـ جمع بريد ـ من المدينة ـ كان ذلك فى أول رمضان من العام الثامن .

كان الهدف من هذه السريَّة إسدال الستار أمام قريش على تحركات المسلمين ، فلايدخل فى حسبانها أنهم يقصدونها بالغزو ، لأنه من غير المعقول أن يكون التجهز لمكة ثم هم يرسلون سرايا إلى غيرها .

وكانت هذه خطة بارعة ، أدت إلى اطمئنان القرشيين بأنهم فى مأمن من جهة هذا الإعداد الذى سرت بعض أخباره إليهم . . .

ولم تكن سرية أبى قتادة خالية من أهداف أخرى حققتها . . . . . وهى تأمين الطريق وإرهاب العدو واستطلاع الأخبار .

إلا أن هناك حدثاً هاماً صاحب هذه السرية نزل فى شأنه قرآن يتلى ـ نقصه فيما يأتى :

روى الطبرانى وابن إسحاق وأحمد وغيرهم عن عبد الله بن أبى حدْرَد

قال : بَعَثَنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى *إضم* فى نفر من المسلمين فيهم أبو قتادة ومحلِّم بن جَثَّامة بن قيس ، فخرجنا حتى إذا كنا ببطن إضم مر بنا عامر بن الأضبط الأشجعى على قعود له ، ومعه متاع له ، فسلم علينا بتحية الإسلام ، فأمسكنا عنه ولكن محلم حمل عليه فقتله لشىء كان بينهما ، وقد ظن أنه نطق بكلمة الإسلام مخادعة لهم - وأخذ بعيره ومتاعه .

فلما قدمنا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأخبرناه الخبر ، نزل فينا قوله - تعالى -

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾ ﴾ (٤)

فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - لمحلم : أقتلته بعد ما قال آمنت بالله ؟

قال محلِّم : إنما قالها متعوذا من القتل .

---

(٤) النساء ٩٤

قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أفلا شققت عن قلبه لتعلم أصادق هو أم كاذب ؟

قال : وهل قلبه إلامضغة من لحم ؟

قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إنما كان ينبىء عنه لسانه . . لاماق قلبه تعلم ، ولا لسانه صدَّقت .

قال : استغفر لى يا رسول الله .

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لاأستغفر لك .

قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك زجرا وتخويفا له ولغيره من الاعتداء على الآخرين وقتلهم بناء على الظن . أو قتلهم لأمور شخصية باسم الإسلام .

وقام محلم ودموعه تبتدر ، يتلقاها ببرديه . فما مضى عليه سبع ليال حتى مات .

ودفنه أصحابه فلفظته الأرض ، فعادوا لدفنه مرة أخرى فلفظته الأرض ، ثم دفنوه مرة ثالثة فاستقر حتى أصبح فوجدوه خارج القبر .

فلما رأوا أن الأرض لاتقبله ألقوه فى بعض الشعاب ووضعُوا فوقه الحجارة حتى وارته .

وقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إن الأرض لتقبل من هو شر منه ، ولكن الله يريد أن يعظكم . . (٥)

---

(٥) أسد الغابة حـ ٣ صـ ١١٧ ـ تفسير القرطبى حـ ٥ صـ ٣٣٦

رسالة حاطب إلى قريش

جد المسلمون فى التجهز للحرب ، ولكن الوجهة التى سيوجهون لها لم يكن يتبينها السواد الأعظم من المسلمين ، وان كان كثير منهم قد توقع أن يكون التوجه إلى مكة ، وقد قال حسان بن ثابت أبياتا من الشعر يحرض فيها المسلمين على القتال ، ويذكر بما أصاب الخزاعيين على أيدى بنى بكر بمعاونة قريش لهم .. ومن هذه الأبيات

عنانى ولم أشهد ببطحاء مكة رجال بنى كعب تُحزُّ رقابها
بأيدى رجال لم يسلوا سيوفهم وقتلى كثير لم تُجنَّ ثيابها
ألا ليت شعرى هل تنالن نصرتى سهيل بن عمرو وحرها وعقابها
فلا تأمننا يابن أم مجالد إذا احتلبت صرفا وأعصل نابها
فلا تجزعوا منها فإن سيوفنا لها وقعة بالموت يفتح بابها [٦]

وتأكد حاطب بن أبى بلتعة ، وهو من المهاجرين الأولين السابقين إلى الإسلام من وجهة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكتب رسالة إلى ثلاثة من كبراء قريش هم : سهيل بن عمرو ، وصفوان بن أمية ، وعكرمة بن أبى جهل يقول لهم :

إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد توجه إليكم بجيش كالليل ، يسير كالسيل ، وأُقسِمُ بالله لو سار إليكم وحده لينصرنه الله عليكم ، فانه منجز له ما وعده فيكم ، وإن الله ـ تعالى ـ ناصره ووليه »

---

(٦) المواهب اللدنية حـ ٢ صـ ٢٩٤ ، وبنى كعب هم الخزاعيون ، وأيدى رجال : هم قريش ، وابن أم مجالد : هو عكرمة بن ابى جهل . وتجن ثيابها : لم تستر ، اى قُتِلوا ولم يدفعوا . وأعصل نابها : اعوج نابها

وأعطى هذه الرسالة لامرأة كانت فى المدينة ،ومتوجهه إلى مكة ، وكان اسم هذه المرأة سارة ، وكانت مولاة لأبى عمرو بن صيفى بن هاشم ، قدمت المدينة قبل الفتح تطلب الصلة وتشكو الحاجة . وكانت مغنية فقال لها ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أما كان فى غنائك ما يغنيك ؟

فقالت : إن قريشا منذ قتل من قتل ببدر تركوا الغناء .

فأعطاها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حمل بعير من الطعام .

أعطى حاطب رسالته لتلك المرأة وأوصاها بالحفاظ عليها وإخفائها حتى تصل إلى مكة فتسلمها إلى من هى مرسلة إليهم . وأعطاها فى نظير ذلك عشرة دنانير وكساها .

ونزل الوحى على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يخبره بذلك ، فاستدعى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ علىَّ بن أبى طالب والزبير بن العوام والمقداد بن الأسود ـ وقال لهم : انطلقوا الى « روضة خاخ » فإن بها ظعينة معها كتاب ، فخذوه منها . .

وخرج الركب فى أثر هذه المرأة حتى بلغوا المكان الذى سماه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإذا هى فيه .

قالوا لها : أخرجى الكتاب الذى معك

قالت : ما معى كتاب

فقالوا : والله ما كذب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخرجى الكتاب وإلا نلت العقاب

فلما رأت أن الأمر جد لاهزل فيه أخرجت الكتاب من عقاص شعرها ،

وكانت قد وضعته فى رأسها ثم فتلت عليه قرونها .

وعاد الأصحاب بالكتاب إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعرفوا ما فيه . . فاستدعى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حاطبا

وقال له : ما حملك على ما فعلت ؟

قال حاطب : والله يا رسول الله إنى لمؤمن بالله ورسوله ، ما غيرت ولا بدلت ، ولا كفرت منذ أسلمت ، ولا غششت منذ نصحت ، ولا أحببتهم منذ فارقتهم ولكنى امرؤ ملصق فيهم ، ليس لى فى القوم أهل ولا عشيرة ، ولى بين أظهرهم ولد وأهل فصانعتهم خوفا عليهم ، وقد علمت أن الله ـ تعالى ـ منزل بهم بأسه ، ولا يغنى كتابى عنهم شيئا .

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إنه قد صدقكم .

فقال عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ يا رسول الله دعنى أضرب عنق هذا المنافق . . ثم التفت الى حاطب يقول له : قاتلك الله ، ترى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يمعن فى السرية وتكتب إلى قريش تحذرهم ؟

ولكن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لعمر : مايدريك يا عمر لعل الله اطلع على أهل بدر فقال لهم : اعملوا ما شئتم فإنى قد غفرت لكم

ونزل فى ذلك قوله ـ تعالى ـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ

إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾ ﴾ (٧)

وكانت هذه المرأة إحدى النساء اللاتى أهدر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ دمهن فى الفتح ، ولكنها أسلمت ، فعصمت بذلك نفسها من القتل .

تأملات فى تصرف حاطب وموقف النبى منه :

ولنا أن نستخلص من موقف حاطب وتصرف النبى ـ صلى الله عليه

---

(٧) الممتحنة ١ : ٤

وسلم ـ إزاء هذا الموقف بعض العظات والعبر . . وبعض الأحكام التى تفيدنا فى مجريات حياتنا .

ونستعين فى بيان ذلك بما ذكره الدكتور البوطى فى كتابه فقه السيرة حيث قال :

١ ـ إننا نجد أنفسنا أمام مظهر جديد آخر لنبوته ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما كان يؤيد به من الوحى من قبل ربه جل جلاله . لقد قال لبعض أصحابه : اذهبوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها ، فمن الذى أخبره بأمر هذا الكتاب وأطلعه على ما دار بين الظعينة وحاطب بن أبى بلتعة فى شأنه ؟ إنه الوحى والتأييد من الله تعالى لنبيه حتى تتم الإرادة الإلهية للفتح العظيم الذى أكرم الله به نبيه والمسلمين .

٢ ـ هل يجوز تعذيب المتهم بمختلف الوسائل ، حملا له على الاعتراف ؟ لقد استدل بعضهم على جواز ذلك بما قاله على رضى الله عنه لتلك المرأة : لتخرجن الكتاب أو لتلقين العقاب .

استدلوا بذلك على أنه يجوز للامام أو نائبه أن يسلك من الوسائل ما يراه كفيلا بكشف الجريمة وإظهارها . كما استدلوا على ذلك بما روى من أن اليهود غيبوا أموالا فى غزوة خيبر لحيى بن أخطب فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعم حيى : مافعل مسك حيى الذى جاء به من بنى النضير ؟ ـ المسك وعاء من جلد ـ فقال : أذهبته النفقات والحروب .
فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ العهد قريب والمال أكثر من ذلك . . .

ثم دفعه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى الزبير فهدده بالعقاب فقال لهم : قد رأيت حيى يطوف بخربة هنا ، فذهبوا فطافوا فوجدوا المسك فى الخربة .

والحق الذى عليه كل الأئمة الأربعة وجمهور الباحثين والعلماء ، أنه لايجوز تعذيب المتهم الذى لم تثبت عليه الجريمة ببينة شرعية كافية ، حملا له على الاعتراف ، فالمتهم برىء مالم تثبت جريمته .

وخبر الظعينة التى أرسلها حاطب إلى مكة ، وتهديد على رضى الله عنه لها ، ليس من هذا فى شىء وذلك لسببين .

أولهما ـ ليست تلك المرأة مجرد متهمة بما ووجهت به ، بل هى حقيقة ثابتة ، دل عليها خبر أصدق الناس محمد عليه الصلاة والسلام ، وخبره عليه الصلاة والسلام أقوى فى دلالته من بينة الاعتراف والإقرار ، فكيف يقاس عليها من حامت حوله التهم لمجرد ظنون وشكوك من أناس غير معصومين ؟ وما يقال عن هذه المرأة يقال ، أيضا عن عم حيى بن أخطب .

ثانيا ـ ليس التهديد بالعقاب ، كأمر التعذيب أو الحبس ، فالفرق بينهما كبير واضح . . . . . وإذا ثبت أن الكتاب معها لامحالة ، ولم يكن من سبيل إلى الوصول إليه الا بالتهديد والتفتيش ، فذلك أمر مشروع ولا ريب ، بل هو واجب استلزمه أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأما ما يقال عن ضرب الزبير لعم حيى بن أحطب ليقر بالمال ـ فهو أولا : قائم كما قلنا على الحقيقة لا التهمة ، ثم هو ثانيا متعلقٌ بأمر الجهاد والحرابة بين المسلمين وغيرهم ، فكيف يقاس عليه تعامل المسلمين بعضهم مع بعضهم ؟

وأما من زعم أن هذا مذهب ذهب إليه مالك رضى الله عنه فى فقهه ، فهو زعم باطل مخالف لما هو معروف واضح من مذهبه . فقد ورد عنه رضى الله عنه قوله :

(قلت أرأيت إذا أقر بشيء من الحدود بعد التهديد أو القيد أو الوعيد أو الضرب أو السجن . . أيقام عليه الحد أم لا ؟ قال : قال مالك : من أقر بعد التهديد أقيل ، فالوعيد والقيد والتهديد والسجن والضرب تهديد عندى كله وأرى أن يقال ـ أى لايقام عليه الحد ـ ثم قال (قلت فإن ضرب وهدد فأقر فأخرج القتيل أو أخرج المتاع الذى سرق أيقام عليه الحد فيها أقر به أم لا وقد أخرج ذلك ؟ قال ؛ لا أقيم عليه الحد إلا أن يقر بذلك آمنا لايخاف شيئا)

٣ ـ دلنا حديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لحاطب وجوابه له ، ثم القرآن الذى نزل بسببه على أنه لايجوز للمسلمين ـ فى أى الظروف كانوا ـ أن يتخذوا من أعداء الله تعالى أولياء لهم يلقون إليهم بالمودة أو أن يمدوا نحوهم يد الإخاء والتعاون ، وذلك رغم ما كان قد اعتذر به حاطب من أنه لصيق بقريش ليس له فيها شيعة تدافع عنه أو يحتمى بها ، فهو يريد أن يتخذ عندهم يدا يحتمى بها ، عندما يحتمى غيره بما له بينهم من قرابة وأهل .

إن الآيات القرآنية نزلت صريحة تأمر المسلمين أن يجعلوا ولاءهم لله وحده ، وأن يقيموا علاقاتهم مع الناس ، أيا كانوا ، على أساس ما يقتضيه ولاؤهم لهذا الدين الحنيف والإخلاص له ، وإلا كيف يتصور أن يضحى

المسلمون بأموالهم وأنفسهم وشهواتهم وأهوائهم فى سبيل الله تعالى ؟

وتلك هى مشكلة كثير ممن يعدون أنفسهم مسلمين فى هذا العصر .

يقبلون إلى المساجد للصلاة ، ويتمتمون بالكثير من الأذكار والأوراد ، وتظل مسابحهم فى أيديهم ولكنهم يقيمون علاقتهم مع الناس على أساس الولاء للأهل والعشيرة ، أو مصلحة المال والدنيا أو وحى الشهوات والأغراض لا يهمهم فى سبيل مصلحتهم أن يجعلوا من دين الله غلافا للأمانى والأغراض الدنيوية الحقيرة . . أولئك هم المنافقون الذين بسببهم يعانى المسلمون من صنوف التأخر والتفرق والضعف (٨)

الخروج إلى مكة

واستخلف النبى - ﷺ - على المدينة أبارُهم كلثوم بن الحصين الغفارى ، وقيل استخلف عبد الله بن أم مكتوم .

وخرج فى عشرة آلاف مقاتل ، وقيل : فى اثنى عشر ألفا من المهاجرين والأنصار وأسلم وغفار ومُزَينة وجُهَينة وسُلَيم .

وكان ذلك فى أوائل رمضان .

روى أحمد فى مسنده عن أبى سعيدٍ الخُدرى - رضى الله عنه - قال : خرجنا مع رسول الله - ﷺ - عام الفتح لليلتين خلتا من شهر رمضان . .

وصام النبى - ﷺ - والمسلمون ، حتى إذا كانوا بين قُدَيد بالقرب من مكة رأى النبى - ﷺ - الجهد من الصيام قد ظهر أثره على المسلمين فأفطر وأمر المسلمين أن يستعملوا رخصة الإفطار . .

---

(٨) فقة السيرة د . محمد سعيد رمضان البوطى صـ٢٨٢

وكان هو قدوة لهم ، فقد دعا بماء وهو فوق راحلته بعد العصر وشرب منه ليراه المسلمون جميعا . ثم ناوله رجلا إلى جنبه فشرب منه كذلك .[9]

والافطار فى السفر رخصة لمن أراد ، وقد صام النبى - ﷺ - فى سفره على ماكان يكابد من مشقة . . . . وقد روى مالك وغيره عن رجل من الصحابة قال : لما دخل النبى - ﷺ - منطقة العرج وهو صائم صب الماء على رأسه ووجهه من العطش[10] .

وظل النبى - ﷺ - مفطرا بقية الشهر فقد كان على أهبة القتال ولم ينو الإقامة .

وقد صام بعض المسلمين ، وأخبر النبى - ﷺ - بذلك ، فحثهم على الإفطار إشفاقا عليهم ورحمة بهم وتقوية لهم على ماهم فيه ، وحين رأى قوما حول رجل صائم يظللونه مماهو فيه من جهد قال : ليس من البر الصيام فى السفر .

التقاؤه بالعباس

وكان العباس بن عبد المطلب - رضى الله عنه - قد أسلم هو وأهله ، وبقى فى مكة بإذن من النبى - ﷺ - فقد قال له : ياعم أقم مكانك الذى أنت فيه فإن الله يختم بك الهجرة كما ختم بى النبوة .[11]

---

(٩) روى ذلك مسلم والترمذى عن جابر ، وفى الصحيحين من طريق طاووس عن ابن عباس وللبخارى وحده من طريق عكرمة عن ابن عباس وفيه دعا باناء من لبن أو ماء

(١٠) المواهب اللدنية حـ٢ صـ٣٠٠

(١١) أسد الغابة حـ٣ صـ١٦٥

وكانت إقامته فى مكة ذات فوائد فهو صاحب السقاية ، ولقب بعد ذلك بساقى الحرمين ، أما سقاية مكة فمعروفة لأنه ورث ذلك عن عبد المطلب بعد أبي طالب .

وأما سقايته فى المدينة فقد استسقى به عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ عام الرمادة لما اشتد القحط فسقاهم الله ـ تعالى ـ به وأخصبت الأرض .

وقال حسان بن ثابت فى ذلك :

سأل الامام وقد تتابع جدبنا فسقى الغمام بغرة العباس

عم النبى وصنو والده الذى ورث النبى بذاك دون الناس

أحيا الإله به البلاد فأصبحت مخضرة الأجناب بعد الياس[12] .

وكان العباس الى جانب ذلك يكتب للنبى ـ ﷺ بأخبار المشركين فى مكة ، وكان ينفع المستضعفين الذين يجدون فى ظله الأمان . فوجوده فى مكة مأذون له فيه لما يتضمنه من أهداف متعددة .

ثم عزم العباس على الهجرة ، وسار بأهله فى طريق المدينة ، فالتقى بالنبى ـ ﷺ ـ بالجحفة .

فعاد العباس مع النبى ـ إلى مكة ، وبعث بمتاعه وعياله إلى المدينة .

التقاؤه بأبى سفيان بن الحارث .

وكان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم ، وهو ابن عم

---

(١٢) أسد الغابة حـ٣ صـ١٦٦

النبى - ﷺ - وأخوه من الرضاعة - أرضعتهما حليمة السعدية - كان فى طريقه إلى المدينة أيضاً ليعلن إسلامه ، والتقى بالنبى - ﷺ - بنيق العقاب[13] وقيل : بالأبواء .

وكان أبو سفيان قبل البعثة يألف النبى - ﷺ - ويحبه ولا يكاد يفارقه ، فلما بعث النبى - ﷺ - هجره وعاداه وهجاه ، ولذلك كان حسان بن ثابت يهجوه فيمن يهجو من المشركين ، ومن قوله فيه :

ألا أبلـغ أبـا ســـفيان عنـى مُغَلْغَـلَةً فقـد بـرح الخفـاءُ
هجـوت محمـدا فأجـبت عنه وعنـد اللـه فى ذاك الجـزاءُ

وكان مع أبى سفيان فى طريقه إلى المدينة عبد الله بن أبى أمية بن المغيرة وهو أخو أم سلمة أم المؤمنين - رضى الله عنها - وكان راغبا أيضا فى الاسلام .

لقد هداهما الله بعد طول شقاق وعناد ، وخرجا معا تائبين إلى الله :

فلما التقيا بالنبى - ﷺ - التمسا الدخول إليه ، فرفض لقاءهما . فكلمته أم سلمة - رضى الله عنها - وكانت مصاحبة له فى سفره :

قالت له : يارسول الله ، ابن عمك ، وابن عمتك وصهرك[14] .

فقال لها : أما ابن عمى - يعنى أبا سفيان بن الحارث - فهجانى بما كان يقوله من شعر يهجو به النبى والمسلمين .

---

(١٣) نيق العقاب : موضع بين مكة والمدينة قرب الجحفة

(١٤) كان عبد الله بن ابى أمية ابن عمة رسول الله - ﷺ - : عاتكة بنت عبد المطلب

وأما ابن عمتي وصهري - يعني عبد الله بن أبي أمية - فهو الذي قال بمكة ماقال .

وكان عبد الله قد قال : والله لا آمنت بك يامحمد حتى تتخذ سلما إلى السماء فتعرج فيه وأنا أنظر ، ثم تأتي بصك وأربعة من الملائكة يشهدون أن الله أرسلك .

وقيل : بل هو الذي قال ماحكاه القرآن الكريم :

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ ﴾ (١٥)

فقالت أم سلمة - رضي الله عنها - : لا يكن ابن عمك وابن عمتك أشقى الناس بك يارسول الله .

وهذا نهي يحمل معنى الرجاء والاستعطاف .

وكان أبو سفيان حين بلغه أن النبي - ﷺ - لا يأذن بلقائه قال : والله ليأذنن لنا رسول الله - ﷺ - أو لآخذنَّ بيد ابني هذا - وكان معه ابنه - ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشا وجوعا ، فلما بلغ ذلك رسول الله - ﷺ - مع ماسمعه من ترجي أم سلمة واستعطافها رقَّ لهما ، ورضي بلقائهما . فدخلا عليه ، فأنشده أبو سفيان قوله في اسلامه واعتذاره مما كان قد مضى منه - قال :

---

(١٥) الاسراء ٩٠ ، ٩١

لعمرك إنى يوم أحمل راية … لتغلب خيل اللات خيل محمد
لكالمظلم الحيران أظلم ليله … فهذا أوانى حين أهدى فأهتدى
هدانى هاد غير نفسى ونالنى … مع الله من طردته كل مطرد
أصد وأنأى جانبا عن محمد … وأدعى وإن لم أنتسب من محمد
هم ماهم من لم يقل بهواهم … وإن كان ذا رأى يلام ويفند
أريد لأرضيهم ولست بلائط … مع القوم مالم أهد فى كل مقعد

ويذكر الرواة أن أبا سفيان حين قال : ونالنى مع الله من طردته كل مطرد .. ضرب النبى - ﷺ - فى صدره وقال له : أنت طردتنى كل مطرد ؟ ..

ويروى البيت هكذا :

وردنى إلى الحق من طردته كل مطرد ..

وكان على بن أبى طالب - رضى الله عنه - قد قال لأبى سفيان مرشدا له ومعلما : إذا دخلت على رسول الله - ﷺ - فقل له ماقال إخوة يوسف ليوسف : « تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين » فإنه - ﷺ - لا يرضى أن يكون أحد أحسن قولا منه ..

ففعل أبو سفيان ذلك ، فقال له النبى - ﷺ - « لاتثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » .

ولزم أبو سفيان بعد إسلامه النبى - ﷺ - وكان من الصامدين يوم حنين ، وكان لا يرفع رأسه إلى رسول الله - ﷺ - حياء منه ، وكان النبى

- ﷺ - يحبه ويقربه ، ويشهد له بالجنة[١٦] .

عقد الألوية

وفى قديد عقد النبى - ﷺ - الألوية والرايات لأمراء الجيش ، وكان أبو بكر - رضى الله عنه - قد رأى رؤيا قصها على النبى - ﷺ - قال : يارسول الله ، أرانى فى المنام وأراك دنونا من مكة فخرجت إلينا كلبة تهر ، فلما دنونا منها استلقت على ظهرها فاذا هى تشخب لبنا .

فقال - ﷺ - : ذهب كَلَبُهم وأقبل دَرُّهم ، وهم سيأوون بأرحامهم ، وإنكم لاقون بعضهم ، فان لقيتم أبا سفيان فلا تقتلوه .

ومضى الجيش فى طريقه حتى وصل إلى مر الظهران - وكان على أساس وهذا الموضع على مسافة أربعة فراسخ من مكة .. وفى هذا الموضع عسكر النبى - ﷺ - بمن معه ..

وأمر النبى - ﷺ - كل مسلم أن يوقد نارا ، حتى ترى قريش ضخامة الجيش الزاحف اليها فيفت ذلك فى عضدها ، دون أن تعرف هوية هذا الجيش .

كان النبى - ﷺ - يأمل أن يدخل المسلمون مكة دون قتال ، وأن تستسلم له قريش دون مقاومة . وبذلك يجنب مكة إراقة الدماء ....

وارتفعت فى الأفق أضواء النيران ، فخطفت أبصار القرشيين وأثارت فزعهم وانتباههم ، فأسرع أبوسفيان بن حرب وبديل بن ورقاء الخزاعي

---

(١٦) أسد الغابة حـ ٦ صـ ١٤٤

وحكيم بن حزام بالخروج ناحية هذه النار يستطلعون خبرها . وحدث حوار بين هؤلاء الرفاق حول مصدر هذه النيران .

قال أبو سفيان : مارأيت كالليلة نيرانا قط ولا عسكرا . لكأنها نيران عرفة .

فرد عليه بديل بن ورقاء : هذه والله خزاعة قد حمشتها الحرب .

فقال أبو سفيان وهو غير مقتنع بما قال بديل : خزاعة أقل من ذلك .

القبض على أبى سفيان

وبينما هم يتبادلون الحديث فيما بينهم إذ رآهم ناس من حرس رسول الله - ﷺ - فأدركوهم فأخذوهم .

وقيل إن العباس بن عبد المطلب كان قد استأذن النبى - ﷺ - فى أن يذهب إلى مكة فيستقدم من أهلها من يطلبون الأمان حتى لا يدخلها المسلمون عليهم عنوة فأذن له .....

وذلك لا ينافى المباغتة التى أرادها النبى - ﷺ - لأهل مكة . لأنه الآن على أبوابها فعلا ، وهم الآن لا يستطيعون الاستعداد له فقد فات وقت الاستعداد ، وهو قد أعلنهم عن نفسه وقوته عن طريق هذه النيران الكثيفة التى أمر بإشعالها . .

فبينما العباس فى طريقه وقد ركب بغلة رسول الله - ﷺ - إذا سمع كلام أبى سفيان وبديل وهما يتراجعان .

قال العباس : فعرفت صوت أبى سفيان . وكان صديقا له - فقلت : ياأبا حنظلة .

فعرف أبو سفيان صوت العباس ، فالتفت اليه وقال : أبو الفضل ؟
قال العباس : نعم .
قال أبو سفيان : مالك فداك أبى وأمى ؟
قال العباس : هذا والله رسول الله - ﷺ - فى الناس قد جاءكم بمالا قبل لكم به ، قد جاءكم بعشرة آلاف .

قال أبو سفيان : فما الحيلة فى ذلك ياأبا الفضل ؟
قال العباس : اركب فى عجز هذه البغلة حتى أستأمن لك رسول الله - ﷺ -

فركب أبو سفيان خلفه . ورجع صاحباه ليخبرا القرشيين .
قال العباس : فجئت به ، كلما مررت بنار من نيران المسلمين قالوا : من هذا ؟ فاذا رأوا بغلة رسول الله - وأنا عليها قالوا : عم رسول الله - ﷺ - على بغلته . حتى مررت بنار عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فقال : من هذا ؟ وقام إلىَّ . فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال : الحمد لله الذى قد أمكن منك من غير عقد ولا عهد ، ثم خرج يشتد نحو رسول الله - ﷺ - فركضت البغلة فسبقته ، فدخلت على رسول الله - ﷺ - ودخل عليه عمر فى أثرى ، فقال : يارسول الله هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه من غير عقد ولا عهد فدعنى لأضرب عنقه .

قال العباس : فقلت : يارسول الله ، إنى قد أجرته . .
وكان عمر مصراً على قتل أبى سفيان ، فقال له العباس : مهلا ياعمر ،

فوالله لو كان من رجال بنى عدى بن كعب ماقلت مثل هذا ، ولكنك قد عرفت أنه من رجال عبد مناف .

فقال عمر : مهلا ياعباس ، فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلىّ من إسلام الخطاب لو أسلم ، وماذلك إلا لأنى قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله - ﷺ - من إسلام الخطاب لو أسلم .

وأنهى النبى - ﷺ - هذا النقاش بقوله : اذهب به ياعباس إلى رحلك ، فاذا أصبحت فأتنى به .

ويقال : إن رفيقى أبى سفيان كانا معه ولم يرجعا .

فلما أصبحوا وأذن مؤذن الفجر ، هب المسلمون سراعا الى الصلاة . . وأصاب أبا سفيان الفزع ، فقال : ياعباس ، ماللناس ؟ أأمروا فىٓ بشيء ؟ . . لقد حسب أبو سفيان أن الناس فى اهتمامهم الذى رآه قد وجهت إليهم الأوامر بقتال - ولم يدر أن اهتمامهم كان لما هو أعظم من ذلك . . إنه اللقاء مع الله . إن أبا سفيان لا يعرف ذلك ولا يدرك أن أهم مايحرص عليه المسلم فى حياته هو الصلاة ، لأنها هى أول مايسأل عنه يوم القيامة .

وطمأن العباس أبا سفيان من فزعه ، فقال له : إن الناس قد قاموا إلى الصلاة .

وذهل أبو سفيان حين رأى المسلمين يبتدرون إلى الوضوء والصلاة ويسرعون إلى رسول الله - ﷺ -

ثم رآهم يصطفون خلفه فى خشوع ، يركعون بركوعه ويسجدون بسجوده ويقومون بقيامه .

فقال للعباس : ياعباس مايأمرهم بشيء إلا فعلوه .

فقال له العباس : لونهاهم عن الطعام والشراب لأطاعوه .

فقال أبو سفيان : مارأيت مُلْكاً مثل هذا ، لا ملك كسرى ، ولا ملك قيصر ، ولا ملك بنى الأصفر . ثم قال للعباس : كلمه فى قومك ، هل عنده من عفو عنهم ؟ . . فوعده العباس بذلك .

إسلام أبى سفيان

وانطلق العباس بأبى سفيان حتى دخل على رسول الله - ﷺ - فقال له النبى - ﷺ - : ويحك ياأبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟

قال أبو سفيان : بأبى أنت وأمى ، ماأحلمك وأكرمك وأوصلك ، لقد علمت أنه لو كان مع الله إله غيره لما أغنى عنى شيئاً بعد .

قال النبى - ﷺ - : ويحك ياأبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله ؟

قال : بأبى أنت وأمى ، أما هذه فإن فى النفس حتى الآن منها شيئاً .

وكان بديل بن ورقاء وحكيم بن حزام قد سبقا أبا سفيان بالاسلام ، فلما رأى العباس أن أبا سفيان قد نكص عن الاعتراف برسالة النبى - ﷺ - قال له : ويحك أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله قبل فوات الأوان .

فقال أبو سفيان : وكيف أصنع بالعزى ؟

فقال له عمر بن الخطاب وكان يسمع الحوار : حطمها وألق عليها القاذورات .

فقال له أبو سفيان : ويحك ياعمر ، إنك رجل فاحش ، دعنى مع ابن عمى فاياه أكلم . .

وبعد حوار طويل أعلن أبو سفيان إسلامه ، ونطق بالشهادتين وطاف فى رأسه حوار كان قد دار بينه وبين أمية بن أبى الصلت الثقفى منذ سنين .

ذلك أن أمية بن أبى الصلت كان يقول : كنت أرى فى كتبى أن نبياً يبعث فى حرتنا ، فكنت أظن بل كنت لا أشك أنى هو ، فلما دارست أهل العلم علمت أنه فى بنى عبد مناف ، فنظرت فى بنى عبد مناف فلم أجد أحداً يصلح لهذا الأمر إلا عتبة بن ربيعة ، فلما تخطى الأربعين ولم يوح إليه علمت أنه غيره .

قال أبو سفيان : فخرجت فى ركب أريد اليمن فى تجارة فمررت بأمية بن أبى الصلت فقلت له كالمستهزىء به : ياأمية قد خرج النبى الذى كنت تتحدث عنه .

قال : إنه حق فاتبعه .

قلت : فمايمنعك من اتباعه ؟

قال : مايمنعنى من اتباعه إلا الاستحياء من بُنَيَّات ثقيف ، أنى كنت أحدثهن أنى هو ، فإذا بى أصبح تابعا لرجل من بنى عبد مناف .

ثم قال أمية : ياأبا سفيان ، كأنى بك إن خالفته قد ربطت كما يربط الجدى حتى يؤتى بك إليه فيحكم فيك بمايريد[١٧]

دار هذا الحوار فى خاطر أبى سفيان الآن ، وتمثله جيدا ، وأدرك أنه كان فى ضلالة وقد آن له أن يخرج نفسه منها . .

وهذه فرصة له قد لاحت ، أن يؤمن وهو عزيز قبل أن يؤمن وهو ذليل . فشهد شهادة الحق ، وأعلن إسلامه .

وأراد العباس أن يجعل لأبى سفيان فضلا فى قومه ، فقال للنبى - ﷺ - : يارسول الله . إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئا .

فقال النبى - ﷺ - : نعم ، من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن ألقى سلاحه فهو آمن ، ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن . . وفرح أبو سفيان فرحاً شديداً بذلك ، لقد أصبحت له منة على قريش إذن ، أليست داره مأمنا لمن يلجأ إليها ؟

ولم يخل هذا المجلس الذى اجتمع فيه أولئك النفر من زعماء قريش أمام النبى - ﷺ - من حجاج .

فقد حدث الرواة أن حكيم بن حزام قال : يارسول الله ، أجئت بالناس من يعرف ومن لا يعرف لتقاتل أهلك وعشيرتك ؟

فقال رسول الله - ﷺ - : قد غدرتم بعقد الحديبية ، وتجاهرتم على بنى كعب بالإثم والعدوان فى حرم الله وأمنه . فقال بديل بن ورقاء الخزاعى :

---

(١٧) رواه الطبرانى فى معجمه

صدقت والله يارسول الله ، فقد غدروا بنا . والله لو أن قريشاً خلوا بيننا وبين عدونا مانالوا منا الذى نالوا .

قال حكيم : قد كنت يارسول الله حقيقا أن تجعل عدتك وكيدك لهوازن ، فإنهم أبعد رحما وأشد عداوة .

فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : إنى لأرجو الله أن يجمع لى فتح مكة وإعزاز الاسلام بها وهزيمة هوازن .

وصدر الأمر بالتحرك نحو مكة ، وقال النبى ـ ﷺ ـ للعباس : قف مع أبي سفيان بمضيق الوادى حتى تمر به جنود الله فيراها .

لقد خشى النبى ـ ﷺ ـ أن ينطلق أبو سفيان إلى مكة فيرجع عن إسلامه ويقاوم ، ويؤدى ذلك إلى إراقة الدماء ، والنبى ـ ﷺ ـ يريد أن يجنب مكة ذلك .

وأراد النبى ـ ﷺ ـ أن يُرِىَ أبا سفيان وصاحبيه عزة الإسلام وقوة جند الله ، فيمكن ذلك للاسلام فى نفوسهم . .

وأوقف العباس أبا سفيان بجانبه ، وجنود الله تمر عليه فى طريقها إلى مكة . .

فكانت أول راية تمر يحملها خالد بن الوليد وخلفه بنو سُلَيْم . .

فقال أبو سفيان : ياعباس ، من هؤلاء ؟

قال العباس : هذا خالد بن الوليد ؟

قال : ومن معه ؟

قال : بنو سُلَيْم .

قال أبو سفيان : مالى ولسليم ؟

ثم جاء بعد ذلك الزبير بن العوام فى خمسمائة من المهاجرين وفتيان العرب . فقال أبو سفيان : من هؤلاء ؟

قال العباس : هذا الزبير بن العوام .

قال : ابن أختك ؟

قال العباس : نعم .

ثم مرت بعد ذلك قبائل غفار ، وأسلم ، وبنى كعب ، ومزينة ، وجهينة ، وكنانة . كل قبيلة لها قائدها وعَلَمها .

ثم جاءت قبيلة أشجع ، فسأل عنهم أبو سفيان فقال له العباس : هؤلاء أشجع .

فقال أبوسفيان : هؤلاء كانوا أشد العرب على ابن أخيك

فقال العباس : لقد أدخل الله الإسلام فى قلوبهم ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

وكانوا ثلثمائة مقاتل معهم لواءان يحمل أحدهما معقل بن سنان ، ويحمل الآخر نعيم بن مسعود .

وكان كل فوج يمر يرتفع صوته بالتكبير ، فتتجاوب الآفاق معه بالتكبير ، حتى يخيل لأبى سفيان أن جبال مكة ووديانها تكبر معهم . .

وأبو سفيان يسأل العباس بين آونة وأخرى : أين محمد ؟ ألم يمر بعد ؟ . .

فيقول له العباس : لم يأت بعد وعندما تأتى الكتيبة التى هو فيها سوف

ترى الخيل والحديد والرجال وما ليس لأحد به طاقة .

قال أبوسفيان : ومن له طاقة بهؤلاء الذين مروا ؟

لقد فعل هذا العمل فعله فى نفس أبى سفيان ، وأدرك أن الدنيا كلها قد أسلمت ، فهذه أفواج لا يكاد يحصرها العد ، وهى تمثل أقوامها الذين لم يحضروا كلهم ، بل حضر منهم من هو قادر على القتال وتجشم مشقة السفر ـ فما بالك بمن لم يحضروا ؟

وأخيرا جاءت كتيبة لم ير أبوسفيان مثلها من قبل ، إنها الكتيبة الخضراء ، فى كل بطن منها لواء وراية ، وكلهم فى الحديد لا يرى منهم إلا الحدق . . فقال أبوسفيان : ويحك يا عباس ، من هؤلاء ؟

قال العباس : هؤلاء الأنصار يقدمهم سعد بن عبادة يحمل الراية ـ راية الأنصار ـ

وقال سعد حين لمح أمامه أبا سفيان : اليوم يوم الملحمة . . اليوم يقتل من أهدر النبى ـ ﷺ ـ دمه . . .

وكان أبو سفيان قد ذهل من القوة التى رآها تمر أمامه ، فأدرك أنها شىء لا يمكن أن يقوم ضده أحد . . وأدرك أن النبى ـ ﷺ ـ محاط بجنود لا قبل لأحد بهم . . وإلى هذا الوقت لم يكن فى حسبان أبى سفيان شىء إلا القوة المادية التى يحسب بها البشر حساباتهم ، فهو لا يعرف شيئا عن القوة المعنوية التى ينصر الله بها أولياءه ويمد بها أحباءه .

فقال للعباس : لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما .

فقال له العباس : إنها النبوة يا أبا سفيان ، أجل إنها النبوة ، وماذا يغنى

الملك بجانب النبوة ؟ إن النبوة أمر عظيم ، ولقد خير النبى - ﷺ - بين أن يكون نبيا ملكا أو نبيا عبدا ، فاختار النبوة فحسب . . . .

اليوم يوم المرحمة

وحين مر النبى - ﷺ - بين هؤلاء الأنصار قال أبوسفيان له : أو ما سمعت ياابن أخى ما يقوله سعد بن عبادة ؟ لقد قال : اليوم يوم الملحمة . فهل أمرت سعدا بقتل قومك ؟

فقال النبى - ﷺ - : لا ، اليوم يوم المرحمة . . وأرسل النبى - ﷺ - لسعد بن عبادة ، فأخذ منه الراية ودفعها لابنه قيس بن سعد .

لقد أفهمه النبى - ﷺ - أن هذا اليوم ليس فيه استباحة للكعبة ولا لمن حولها ، ولكنه يوم تعظيم للكعبة واحترام لها ، إنه اليوم الذى تكسى فى الكعبة ، وتطهر مما حولها ومما فيها من الرجس والأوثان . . . . وكان إعطاء الراية لقيس بن سعد إرضاء لوالده - رضى الله عنهما - وفى رواية أن الذى شكا إلى النبى - ﷺ - مما قاله سعد بن عبادة امرأة لقنها بعض شعراء قريش أبياتا من الشعر ضمنها الاستغاثة برسول الله - ﷺ - مما يهم به سعد . . . . وقيل إن هذا الشاعر هو ضرار بن الخطاب . فاستقبلت هذه المرأة النبى - ﷺ - وقالت له : -

يانبى الهدى إليك لجاء قريش ولات حـــين لجـــاء
حين ضاقت عليهم سعة الأرض وعــاداهم إلـه الســماء
والتقت حلقتا البطان على القوم ونـودوا بالصـيلم الصـلعاء[١٨]

---

(١٨) البطان : حزام البعير ، والتقاء حلقتيه كناية عن الشدة والضيق ، والصيلم : الداهية ، والصلعاء . مثلها

إن سعدا يريد قاصمة الظهر بأهـل الحجـون والبطحـاء
خزرجى لو يستطيع من الغيظ رمانا بالنسر والعـواء[19]
وغر الصدر لا يهم بشىء غير سفك الدما وسبى النساء
قد تلظى على البطاح وجاءت عنه هند بالسوأة السـواء
إذ ينادى بذل حى قريش وابن حرب بذا من الشهداء
فلئن أقحم اللواء ونادى ياحماة الأدبار أهـل اللـواء
ثم ثابت إليه من بهم الخزرج والأوس أنجم الهيجـاء
لتكون بالبطاح قريش فقعة القاع فى أكف الإماء[20]
فانهينه فانه أسد الأسد لـدى الغاب والغ فى الدماء
إنه مطرق يريد لنا الأمـر سكوتاً كالحية الصماء

فلما أنشدت المرأة هذه الأبيات ، وسمعها النبى - ﷺ - رق رقة شديدة ، ودخلته الرحمة التى هو أهلها وبعث من أجلها ،

فأرسل إلى سعد أن يسلم الراية لابنه .

فقال سعد : لا أسلمها إلا بأمارة .

فأرسل النبى - ﷺ - بعمامته .. فسلم سعد الراية لابنه ..

وبعض الرواة يقول : إنه أمرها أن يسلمها لعلى بن أبى طالب ..

أبو سفيان ينذر قومه

وأسرع أبوسفيان إلى قومه ينذرهم ، وينادى بأعلى صوته :

يامعشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به ، أسلموا

---

(١٩) النَّسْر والعَوَّاء : نجوم فى السماء

(٢٠) الفقعة : نوع من الكمأة الرخوة كناية عن الذل

تسلموا ، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، فقالوا له : وما تغني عنا دارك ؟

فقال : ومن دخل المسجد فهو آمن .

فقامت إليه زوجه هند بنت عتبة وهي تقول :

اقتلوا الدسم الأحمس[٢١] ، قبح من طليعة قوم .

فقال أبوسفيان : ويلكم لا تغرنكم هذه عن أنفسكم فقد جاءكم محمد بما لا قبل لكم به ، فانصرفوا إلى منازلكم وإلى المسجد .

دخول مكة

وقسم النبي - ﷺ - جنوده أربعة أقسام على كل قسم قائد يقودهم . .

● فالميسرة يقودها الزبير بن العوام ، وعليها أن تدخل مكة من جهة الشمال . من جهة كداء .

● والميمنة يقودها خالد بن الوليد وعليها أن تدخل مكة من جهة الجنوب . من جهة الخندمة

● وقوات الأنصار بقيادة سعد بن عبادة أولاً . ثم بقيادة ابنه قيس بعد ذلك ، وعليها أن تدخل مكة من جهة الغرب .

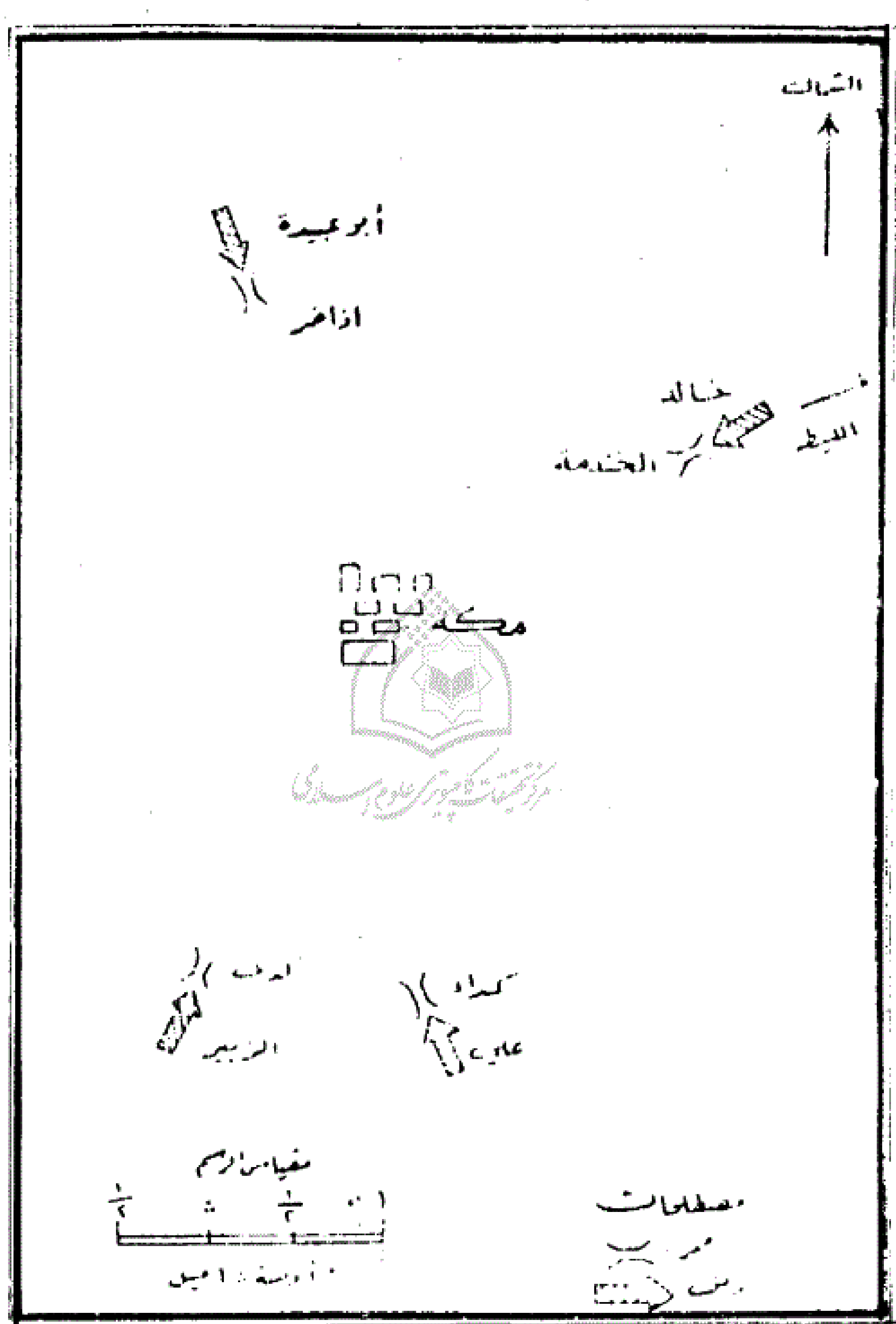
● وقوات المهاجرين بقيادة أبي عبيدة بن الجراح ومهمتها أن تدخل مكة من الشمال الغربي من اتجاه جبل هند .

(انظر الخريطة)

---

(٢١) الأحمس : الذى لاخير فيه

الخريطة رقم ٥ - فتح مكة - ٢



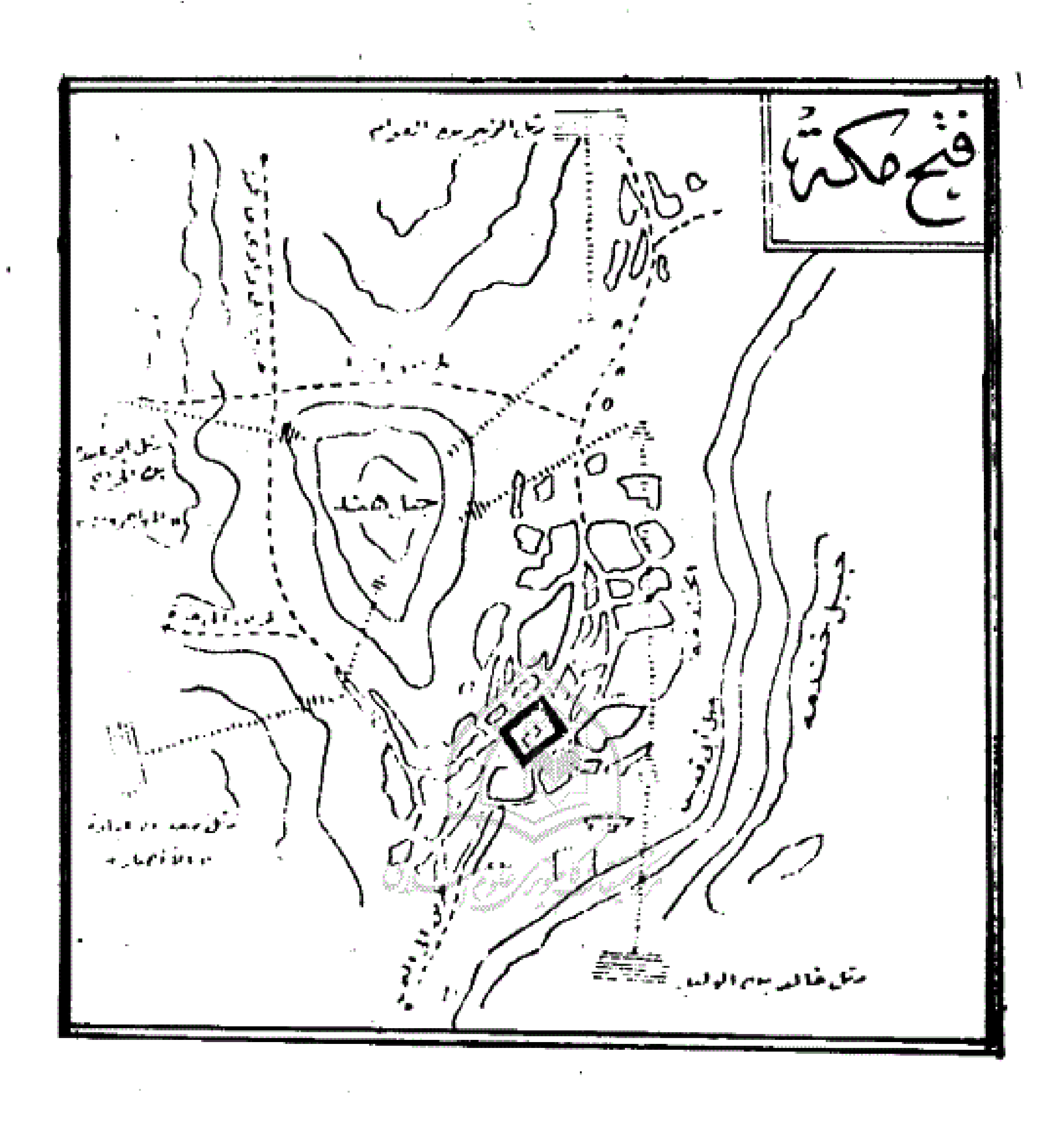
● وكانت منطقة اجتماع القوات بعد الفتح منطقة جبل هند . . وصدرت الأوامر صريحة للقواد والجنود بعدم القتال إلا فى حالة الاضطرار .

لقد كان الهدف دخول مكة بدون إراقة دماء . . ولذلك أمر النبى - ﷺ - مناديه أن ينادى فى الناس بأن يلزموا دورهم أو يلوذوا بالمسجد ، قائلا : من دخل داره فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن

وصف مكة

لقد كانت خطة توزيع القواد بهذه الصورة بارعة أيما براعة - لأنها راعت ظروف مكة وطبيعتها . فهى تقع فى وادى إبراهيم ، تحيط بها تلال سوداء وترتفع هذه التلال إلى ما يزيد على ألف قدم فوق مستوى الأرض المحيطة بها ، ويتم الاقتراب إلى مكة بواسطة أربعة محاور تمر عبر هذه التلال ، وهذه المحاور تأتى من جهة الشمال الغربى ، وغالبا من الشمال ، ومن الجنوب الغربى ، ومن الجنوب ، ومن الشمال الشرقى ، من أجل ذلك قسم النبى - ﷺ - جيشه إلى أربعة أرتال ، يتقدم كل رتل على أحد المحاور الأربعة بقيادة قائدة

(انظر الخريطة رقم ٥)


فتح مكة
منزل الزبير بن العوام
جبل الخندمة
منزل خالد بن الوليد

وكان الهدف من تقدم المسلمين بهذه الصورة القيام بهجمات متقاربة على هدف مركزى واحد ، يجبر العدو على توزيع قواته وعدم تمكينه من تركيزها على محور واحد من محاور التقدم ، علاوة على ذلك فإن العدو لو نجح فى إيقاف الهجوم على بعض المحاور ، فهنالك محاور أخرى يمكن للمهاجمين أن يستخدموها لمتابعة الهجوم ، وبذلك تتاح الفرصة لنجاح الهدف المطلوب .(٢٢)

الرسول فى ذى طوى

وانتهى الرسول - ﷺ - إلى ذى طوى ، وهو فوق راحلته ، ومن هذا الموقع أصدر أمره إلى قادة الجيوش ليأخذ كل طريقه إلى غايته ،

واستوى الرسول - ﷺ - على راحلته يرقب الموقف ، وقد اعتجر - تعمم - بشقة برد حبرة - من ثياب اليمن -

ثم أخذ - ﷺ - يدعو تواضعا وخشوعا لله . . . إنها الأخلاق العالية والشمائل المحمدية التى تأبى عليه إلا أن يكون متواضعا فى هذا الموقف المهيب . .

ولو أن رجلا غيره ، طرد ذات يوم من هذا البلد ، وعامله أهله أسوأ معاملة - وهو يدعوهم إلى الله - وجمعوا له الجموع وحزبوا له الأحزاب ، وقالوا فيه كل قول . ثم إذا به تجتمع له هذه الجموع الفقيرة ، تأتمر بأمره وتلبى إشارته ، وتنطلق أمامه فاتحة هذا البلد الذى طرد منه ذات يوم . . نقول لو أن أحدا غير رسول الله فى هذا الموقف لفعل الكثير انتقاما لنفسه . .

---

(٢٢) خالد ابن الوليد جنرال أكرم صـ ١١٤

ولكن الأدب الربانى الذى تحلى به النبى - ﷺ - يفرض عليه أن يكون صورة مثالية تقتدى بها الأمم ، ويتعلم منها القادة والرؤساء والساسة كيف يكون علو الروح وبعد الهمة وجلال التواضع وسموا الخشوع لله الذى يقهر الظلم بمشيئته مهما امتدت صولته وشمخت دولته وارتفعت كلمته حينا من الزمن . .

ما تذكر النبى - ﷺ - شيئا مما صنعه القرشيون معه فى ذلك الوقت وأمامه هذه الآلاف التى تنطلق إلى أبواب مكة وهى تهتف بكلمة - الله أكبر - وهى تأتمر بأمر ذلك الرجل الذى كانوا يقولون عنه ذات يوم يتيم أبى طالب ، وكأنهم يكنون بذلك عن ضعفه وقلته .

لم يتذكر النبى - ﷺ - فى موقفه هذا إلا جلال الله الذى تهتف باسمه هذه الحناجر التى هداها الله إلى نور الاسلام . هذه الرسالة التى اختاره الله لها ووفقه للقيام بها ، ومكنه من النجاح فى أدائها حتى عادت إلى هذا المكان الذى انطلقت منه أول مرة منذ عشرين عاما أو تزيد قليلا . . وهاهو ذا شعار هذه الدعوة يدوى فى الآفاق دون خوف أو استخفاء بعد أن كان أصحابه يعذبون ويطاردون . .

أفلا يحق لهذا النبى الكريم الذى أتم الله على يديه هذه النعمة أن يتواضع لله شكرا واعترافا بالفضل ؟ . .

ومن أحق من النبى - ﷺ - بذلك الأدب العالى ، وهو الذى يقول فى معرض الحمد-والثناء على الله : أدبنى ربى فأحسن تاديبى . . ؟

أبو قحافة يقدم على الرسول

وكان أبو قحافة والد أبي بكر - واسمه عثمان بن عامر بن كعب من قبيلة تيم بن مرة القرشي - لم يسلم بعد .

وكان قد كف بصره . وحين وقف النبى - ﷺ - بذى طوى قال أبو قحافة لابنة له من أصغر ولده : أى بنية : اصعدى على أبي قبيس - جبل بمكة - فانظرى ماذا ترين ؟

فنظرت فقالت : أرى سواداً مجتمعا .

قال لها : تلك الخيل .

ثم قالت : وأرى رجلا يسعى بين يدى ذلك السواد مقبلا ومدبرا - قال أبو قحافة : أى بنية ، ذلك الوازع[٢٣] ، يعنى الذى يأمر الخيل وينظمها .

ثم قالت : قد والله انتشر السواد .

فقال أبوقحافة : إذن فقد اندفعت الخيل فأسرعى بى إلى بيتى . . فنزلت به وتلقته الخيل قبل أن يصل إلى بيته . وكان فى عنق ابنته عقد من فضة فقطعه رجل من عنقها وأخذه ، وذلك وسط الزحام والاضطراب الذى حدث .

فلما دخل النبى - ﷺ - مكة ودخل المسجد أقبل أبوبكر بأبيه يقوده إلى رسول الله - ﷺ - فلما رآه النبى - ﷺ - قال لأبى بكر : « هلا تركت الشيخ فى بيته حتى أكون أنا الذى آتيه فيه » ؟

---

(٢٣) الوازع الذى يكف الجيش أى يقدم بعضه على بعض

ولكن أبابكر ـ رضى الله عنه ـ قال : يارسول الله هو أحق أن يمشى إليك من أن تمشى إليه أنت .

إن أبابكر ـ رضى الله عنه ـ يعرف للنبوة حقها وللرسالة قدرها . . ولكن النبى ـ ﷺ ـ أراد أن يكرم الصديق فى إكرامه لأبيه . .

وأجلس أبوبكر أباه بين يدى النبى ـ ﷺ ـ فمسح النبى ـ ﷺ ـ على صدره ، ثم قال له : أسلم . فأسلم الشيخ . وأكرمه الله بالإسلام وقرت عين أبى بكر بإسلام أبيه كما قرت بإسلام أبنائه ، وهنأ النبى ـ ﷺ ـ أبا بكر بإسلام والده .

وقال العلماء : إنه فى شأن أبى بكر نزل قول ـ تعالى

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ (٢٤)

وقالوا : لا يعرف فى الصحابة أربعة أسلموا وصحبوا النبى ـ ﷺ ـ ، وكل واحد أبو الذى بعده إلا فى بيت أبى بكر ـ رضى الله تعالى عنه ـ أبو

(٢٤) الأحقاف ١٥ ، ١٦

قحافة ، وابنه أبو بكر ، وابن أبي بكر عبدالرحمن ، وابن عبدالرحمن محمد ويكنى بأبي عتيق .(٢٥) وأخذ أبو بكر ينشد الناس عقد أخته الذى اختطف من عنقها فقال : أنشد الله والإسلام طوق أختى ، فلم يجبه أحد .

فقال لأخته : يا أخيه ، احتسبى طوقك عند الله(٢٦)

ولا تعليل لما حدث إلا أن يكون بعض أخلاط الناس أو بعض اللصوص قد اندسوا بين صفوف المسلمين فأساءوا إلى الإسلام بذلك التصرف غير المسئول . وكان النفاق ما يزال موجودا فى بعض النفوس . وسيبقى دائما لأنه داء يصعب اقتلاعه .. وقد صاحب المنافقون ـ وهم يظهرون غير ما يبطنون ـ النبى ـ ﷺ ـ فى غزواته ، ومنهم لقى المسلمون المصاعب ـ وسيأتى فى غزوة تبوك ـ إن شاء الله ـ كيف تصرفوا وكيف فضحهم القرآن الكريم فى سورة التوبة ..

وخروجهم مصاحبين للمسلمين ليس إلا طمعا فى المغانم والكسب المادى ، فلا يبعد أن يكون أحد هؤلاء المنافقين أو الأعراب الجاهلين هو الذى امتدت يده إلى عنق هذه الصبية فاختطف منها العقد ، وهو لا يدرى أنه بذلك قد أساء إلى نفسه قبل أن يسىء إلى غيره .

قتال خالد

ومضى كل قائد إلى وجهته ، ودخلوا مكة بدون قتال ، فيما عدا الجهة التى دخل منها خالد ، فقد تجمع بعض المشركين من أمثال صفوان بن

---

(٢٥) السيرة الحلبية جـ٣ صـ ٣٥

(٢٦) سيرة ابن هشام جـ٣ صـ ٢٠

أمية ، وعكرمة بن أبي جهل ، وسهيل بن عمرو وغيرهم بالخندمة ، وأجمعوا على قتال المسلمين وبخاصة حين علموا أن خالدا هو قائدهم فى تلك الجهة .

« لقد وقف هؤلاء أمام الجهة التى وجه إليها خالد وجمعوا له جمعهم فمنعوه ورموه بالنبل وشهروا عليه السلاح ، فبطش بهم وقتل منهم قرابة ثلاثين رجلا أكثرهم من قريش وقلة من هذيل ، وولى السادة والأتباع بعد ذلك فى هزيمة نكراء

« أهو تدبير أم مصادفة أحكم من التدبير ؟

لقد كان خالد دون غيره من القواد هو الذى تصدى له القرشيون ، فقاتل فرسانا كانوا رفقاءه بالأمس فى جيش المشركين ، وقد كانوا مما يرمون المسلمين عن قوس واحدة .

لقد حارب خالد فى صفوف المشركين قبل أن يسلم ، فلماذا لا يحارب الجاهلية القرشية وينصر الإسلام عليها ؟ ثم إنه حارب فى صفوف الإسلام عرب الجزيرة وعرب العراق والشام ، وحارب فى صفوف الإسلام بعد ذلك جيوش الفرس والروم ، وحارب فى صفوف الاسلام كل من برز لتلك الصفوف ، فكان كما سماه الرسول - ﷺ - سيف الله المسلول .

لقد التقى خالد بفرسان قريش الذين تصدوا له أثناء دخوله مكة لأن إرادة الله شاءت أن يقتل بعض صناديد الكفر على يده

« وقال النبى - ﷺ - حين سمع بضربته : أَلَمْ أنه عن القتال ؟ قالوا : إنه خالد ، قوتل فقاتل .

فقال النبى - ﷺ - : قضاء الله خير . ثم قال : لا تغزى قريش بعد هذا اليوم إلى يوم القيامة »(٢٧)

لقد كانت الصداقة الوطيدة تربط بين خالد وأولئك النفر من قريش ولكن الإسلام محا تلك العلاقة وأبدل خالداً خيرا منها . وطبعه بطابع جديد هو الولاء لله ولرسوله .. بدلا من الأهل والعشيرة .

ومن العجيب أن صفوان بن أمية كان زوجا لأخت خالد ، ولكن ما قيمة ذلك بالنسبة لهذا الدين الذى يخاطب المسلمين قائلا : « لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء » ؟

ويحكى ابن هشام فى سيرته أن رجلا اسمه حماس بن قيس بن خالد - من بنى بكر - كان يعد سـلاحاً قبل دخول رسول الله - ﷺ - مكة فقالت له امرأته : لماذا تعد ماأرى ؟

قال : لمحمد وأصحابه .

ويبدو أن زوجته كانت تسر الإسلام ، فقالت له : والله ما أرى أنه يقوم لمحمد وأصحابه شيء .

قال : والله أنى لأرجو أن أجعل بعضهم خدما لك .. ثم قال :

إن يقبلوا اليوم فمالى علة هذا سلاح كامل وألة(٢٨)

وذو غرارين سريع السلة(٢٩)

---

(٢٧) عبقرية خالد للعقاد صـ ٦٨

(٢٨) الألة : الحربة ذات السنان الطويل

(٢٩) ذو غرارين السيف مثنى غرار وهو الحد

وشهد حماس هذا ـ الخندمة مع صفوان وسهيل وعكرمة ، فلما لقيهم المسلمون من أصحاب خالد بن الوليد ناوشوهم شيئا من قتال ، فقتل كرز بن جابر وخنيس بن خالد بن ربيعة وكانا فى جيش خالد فشذا عنه وسلكا طريقا غير طريقه فقتلا ـ ولكن بعد أن أبليا بلاء حسنا

أصيب خنيس أولا ، فجعله كرز بين رجليه ، ثم قاتل عنه حتى قتل وهو يرتجز قائلا :

قد علمت صفواء من بنى فهر نقية الوجه نقية الصدر

لأضربن اليوم عن أبى صخر

وأبو صخر كنية خنيس بن خالد .

ولما هجم جيش المسلمين أصيب من المشركين ناس كثيرون ، ثم انكشفوا وفروا متفرقين ، وهرب حماس منهزما حتى دخل بيته ، وهو يقول لامرأته : أغلقى على الباب .

قالت له : فأين ما كنت تقول من أنك تخدّ منى بعض أصحاب محمد ؟

فقال لها :

إنك لو شهدت يوم الخندمة إذ فر صفوان وفر عكرمة
وأبو زيد قائم كالمؤتمة واستقبلتهم بالسيوف المسلمة(٣٠)
يقطعن كل ساعد وجمجمة ضربا فلا يسمع الا غمغمة
لهم نهيت خلفنا وهمهمة لم تنطقى فى اللوم أدنى كلمة(٣١)

(٣٠) المؤتمة : الأيم التى قتل زوجها وترك لها أيتاما

(٣١) النهيت : نوع من صياح الأسد ، والهمهمة صوت فى الصدر ـ سيرة ابن هشام جـ ٣ صـ ٢١

ويبدو أن بعض فرسان قريش قد كبر عليهم أن تستسلم قريش بهذه الصورة ، وأن تقبل دعوة الإسلام بهذه السهولة . فقرر بعضهم أن يقاوموا حتى النهاية وربما قال لأنفسهم أو قال لهم شيطانهم .

لماذا كان هذا النصب والتعب طوال السنوات الماضية إذن ؟

ولماذا لا يموتون على مامات عليه أشياخهم الذين ورثوهم الكفر والضلال ؟

أيذهب دم أبي جهل وأمية وعقبة وغيرهم عبثا دون طائل ؟

وربما تمثل بعضهم بقول امرىء القيس :

والله لا يذهب شيخى باطلا حتى أبير مالكا وكاهلا

لقد زين لهم الشيطان طريق آبائهم فهم يقتدون به ، ولا يمكن أن يناموا على الضيم أو يقبلوا الذل . أو يعطوا بأيديهم ، فلتكن المقاومة إذا وليكن ما يكون .

وعلى ذلك فقد استعد عكرمة ورفاقه للقاء خالد من جهة ، وجمعوا جموعا من قبائل شتى من جهة أخرى .

ومن أجل ذلك قال النبي - ﷺ - لأبي هريرة : اهتف بالأنصار . فهتف أبو هريرة بهم ، فجاءوا سراعا قائلين : لبيك يارسول الله . فقال لهم : ترون إلى أوباش قريش وأتباعهم ؟

ثم قال لهم : قاتلوهم بقوة ، حتى توافونى بالصفا .

واستجاب الأنصار . ولم تثبت أوباش قريش أمام هذه الجموع الغفيرة المستعدة للفداء والاستشهاد ؟

قال أبو هريرة - ﷺ - فانطلقنا إليهم ففر القوم من أمامنا دون أن يفعلوا شيئا .

ويبدو أن ذلك كان فى بدء الأمر ، فإن أبا سفيان حين رأى تحفز الأنصار لإبادة هذه الجموع التى تريد التصدى للفاتحين ، أقبل على النبى - ﷺ - يقول : يارسول الله أبيحت خضراء قريش ، لاقريش بعد اليوم .

فقال النبى - صلى الله عليه وسلم : من أغلق عليه بابه فهو آمن . . فهرع الناس إلى بيوتهم يدخلونها ويغلقون أبوابها . .

وقول أبى هريرة - رضى الله عنه - يفهم منه أن هؤلاء المتجمعين لو تصدوا للأنصار لكان فى إمكان الأنصار أن يصيبوا منهم من يصيبون ويأسروا من يأسرون ، ولكنهم آثروا العافية على المقاومة .

إن النبى - ﷺ - لم يقل ما قال إلا بعد أن رأى فى نفوس نفر من قريش رغبة فى القتال ، ولكنه حمد الله أن رأى منهم الرغبة بعد ذلك فى السلام ومن أجل ذلك ثار هذا السؤال :

هل فتحت مكة صلحا أو حربا ؟

لم يحدث قتال فى فتح مكة إلا من الجهة التى دخل منها خالد بن الوليد ، وكان للضرورة ، فقد كان خالد حريصا على تنفيذ أمر رسول الله - ﷺ - بعدم القتال .

ولكنه اضطر إلى ذلك عندما تصدى له فرسان قريش ، فاندفع يقاتلهم حتى قتل منهم سبعون

فجاء إلى النبى - ﷺ - رجل من قريش يقول : يارسول الله هلكت قريش ، لا قريش بعد اليوم .

قال : ولم ؟

قال : هذا خالد بن الوليد لا يلقى أحدا من الناس إلا قتله .

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قضى الله أمرا ، ثم قال : كفوا السلاح . . . . والذى يطمئن إليه القلب فى ذلك أن الأمر لخالد بعدم القتال كان ضمن الأمر الذى وجه لغيره من القواد . ولم يلجأ خالد للقتال إلا حين وجد المقاومة الشرسة أمامه من هؤلاء الخصوم الألداء . الذين تصدوا له وقتلوا اثنين من أصحابه فاضطر بذلك للقتال . وعلى ذلك فان القتال لم يكن الا فى جهة واحدة من جهات أربع وجه اليها القادة والجيوش .

فأغلب مكة بناء على ذلك فتح صلحا . .

ولكن بعض العلماء يرى أنها فتحت حربا ويستندون فى ذلك الى ماحدث من قتال خالد ، وإلى ماأمر به النبى - صلى الله عليه وسلم - حين رأى تجمع أوباش مكة فقال للأنصار : قاتلوهم .

قال ابن حجر فى فتح البارى : تمسك بهذه القصة من قال : إن مكة فتحت عنوة بالقهر والغلبة ، وهو قول بعض العلماء ،

ولكن الشافعى - رضى الله عنه - يؤكد أن مكة فتحت صلحا ، ويؤيده الامام أحمد فى رواية . وسند ذلك أن النبى - صلى الله عليه وسلم - أمَّن قريشا وقال لهم : من دخل المسجد فهو آمن ، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن .

وربما أجاب بعضهم عن ذلك بأن التأمين يكون سندا للصلح إذا كفت قريش عن الحرب ، ولكنها حاربت وقتلت رجلين من المسلمين ، وتصدى خالد لهم وقتل منهم عددا . .

إلا أن حجة الذين قالوا إنها فتحت صلحا مازالت مع ذلك قوية لأسباب أخرى منها . . . .

أن الدور والأموال فى مكة بقيت لأهلها ، وأنها لم تقسم ولو فتحت عنوة لقسمت بين الفاتحين .

ومع ذلك فقد أجاب الذين قالوا إنها فتحت عنوة عن ذلك أيضا ، فقالوا : إن ترك القسمة بين الفاتحين لاتستلزم عدم العنوة ، فقد تفتح البلد عنوة ، ويمن على أهلها بتركها لهم ، وعدم إخراجهم من دورهم ، وقد فتحت بلاد كثيرة عنوة بعد ذلك فلم تقسم وذلك فى زمن عمر وعثمان - رضى الله عنهما - مع وجود أكثر الصحابة .

هذا مع أن مكة تزيد على غيرها من البلاد شرفا لأن الله أكرمها بأن جعلها حرما لبيته ودار نسك وعبادة للناس أجمعين .

وأيا ماكان الأمر فقد فتحت مكة ، واستسلم أهلها أخيرا وعزوا بالاسلام . وبادت منها كلمة الكفر وعبادة الأصنام . .

النبى يبيح دم نفر من قريش :

وكان النبى - صلى الله عليه وسلم - قد أباح دم نفر من قريش ، لأسباب تتعلق بالأمن وصالح الدعوة . من هؤلاء النفر : عبد الله بن سعد بن أبى سرح . . وسبب إهدار دمه أنه كان قد أسلم قبل الفتح وهاجر ، وكان

كاتبا ، فاستعمله النبى - صلى الله عليه وسلم - فى كتابة الوحى . .

ولكنه غلبت عليه شقاوته فارتد مشركا ، وقال : إنى كنت أُصرِّف محمدا حيث أريد . . ولعل الذى أدخل الغرور على قلبه أنه حين نزلت آيات سورة المؤمنين وفيها . . . . ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم انشأناه خلقا آخر . .

وأخذ النبى - صلى الله عليه وسلم - يقرأ عليه ذلك فتعجب عبد الله من تفصيل خلق الانسان فقال بعد قراءة النبى - صلى الله عليه وسلم - ثم أنشأناه خلقا آخر . . فتبارك الله أحسن الخالقين . . قيل إنه نطق بذلك قبل أن يكمل النبى - صلى الله عليه وسلم - قراءة الآية - فقال له الرسول - صلى الله عليه وسلم - اكتب ذلك هكذا أنزلت .

عند ذلك قال عبد الله : إن كان محمد نبيا يوحى اليه فأنا نبى يوحى الىّ وارتد ولحق بمكة مشركا . . وأخذ يقول لقريش . . إنى كنت أصرف محمدا كيف شئت . .

لم يكفه الارتداد بل زاد عليه الافتراء والكذب ، ولكن ليس بعد الكفر ذنب . .

ولقد قرئت هذه الآية أيضا على عمر بن الخطاب ولم يكن سمعها قبل ذلك فقال بعد أن سمع « ثم أنشأناه خلقا آخر » فتبارك الله أحسن الخالقين .

فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - : هكذا نزل ياعمر . ففرح عمر بذلك ، ولكنه لم يغتر ولم يدع النبوة كما ادعاها ابن أبى سرح . . لقد زاد

إيمان عمر وقوى يقينه ، وأدرك أن الله قد صفى مرآة قلبه ونقى سريرته فماينطبع فيها من خاطر يوافق الحق .

وذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده . وفى كثير من المواقف كان الوحى يوافق رأى عمر ، ونرجو أن نعرض لذلك فى حينه إن شاء الله تعالى .

ولجأ عبد الله بن أبى سرح بعد الفتح الى عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ وكان أخاه من الرضاعة ـ وقال له : ياأخى ، استأمن لى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

ـ فأخفاه عثمان ريثما هدأ الناس واطمأنوا ، فجاء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ به ليستأمنه له .

قال عثمان : يارسول الله . هذا عبد الله ـ وقد أمنته ـ بايعه على الإسلام فأعرض النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن عثمان ولم يجبه .

فألح عليه عثمان ـ رضى الله عنه ـ ثلاث مرات . كل ذلك وهو يعرض عنه فمازال عثمان ـ رضى الله عنه ـ يلح على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى بسط النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يده فبايعه . .

فلما خرج عثمان قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لمن حوله : لقد أعرضت عنه مرارا . . ولو أن أحدكم قام فضرب عنقه ما كان عليه شيء . .

وكان أحد الصحابة وهو عباد بن بشر قد نذر : إن رأى عبد الله بن أبى

السرح أن يقتله فقال له النبى - صلى الله عليه وسلم -انتظرتك أن تفى بنذرك . .

فقال : يارسول الله خفتك . أفلا أومأت إلىّ ؟

فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - : لاينبغى لنبى أن يكون له خائنه الأعين . . وقد أراد الله خيرا بعبد الله بن أبى سرح ، فقد حسن إسلامه بعد ذلك : وظل ذنبه أمامه بالمرصاد يذكره ولاينساه ، وأصبح يستحى من مقابلة النبى - صلى الله عليه وسلم - ويتوارى منه .

فكلم عثمان النبى - صلى الله عليه وسلم - فى ذلك .

فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - : أما بايعته وأمنته ؟

قال عثمان : بلى ، ولكن يذكر جرمه القديم فيستحى منك .

فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - : الإسلام يجُبُّ ماقبله .

أخبر عثمان عبد الله بذلك ، ولكنه مع ذلك كان لايذهب الى النبى - صلى الله عليه وسلم - منفردا ، بل كان يتحين ذهاب جماعة فيذهب معهم . وقد ولاه عثمان بعد ذلك إمارة مصر سنة خمس وعشرين . . ففتح الله على يديه أفريقية

وأقام آخر حياته فى عسقلان وكان يدعو قائلا : اللهم اجعل خاتمة عملى الصلاة . . فصلى الصبح فقرأ فى الركعة الأولى بأم الكتاب والعاديات وقرأ فى الثانية بأم الكتاب وسورة قصيرة وسلم عن يمينه ، ثم أخذ يسلم عن يساره فتوفى سنة ست وثلاثين[٣٢]

---

(٣٢) أسد الغابة جـ٣ صـ٢٥٩ ، البداية والنهاية جـ٤ صـ٢٩٧

ومن الذين أهدر النبى صلى الله عليه وسلم ـ دمهم أيضا عبد الله بن خطل ، وهو رجل من بنى تيم بن غالب .

وكان سبب الأمر بقتله ـ مايأتى :

كان اسمه فى الجاهلية عبد العزى ، فحين أسلم سماه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عبد الله . . .

وأرسله النبى ﷺ يجمع الصدقة من قوم وبعث معه رجلا من الأنصار ، وكان معه مولًى له يخدمه ، فنزل منزلا ، وأمر المولى أن يذبح له تيسا ويصنع له طعاما ، فنام واستيقظ فوجد المولى لم يصنع له شيئا .

فعدا عليه فقتله ، ثم ارتد مشركا .

وكانت له قينتان ـ جاريتان مغنيتان ـ يصنع لهما الشعر ويلقنهما إياه تتغنيان به ، فيه هجاء لرسول الله ﷺ .

فأهدر النبى ﷺ دمه فقتله بعض الصحابة ، واشترك فى قتله أبو برزة الأسلمى وسعيد بن حريث المخزومى(٣٣) .

وقال بعض الرواة : إن ابن خطل حين رأى المسلمين فى طريقهم إلى فتح مكة ، ركب فرسه ، ولبس الحديد ، وأخذ بيده قناة ، وصار يقسم : لا يدخلها محمد عنوة .

فلما رأى خيل الله دخله الرعب ، فنزل عن فرسه وألقى سلاحه ، فأخذ رجل سلاحه ، وركب فرسه ، ولحق برسول الله ﷺ بالحجون فأخبره خبره فأمر الرسول بقتله(٣٤) .

---

(٣٣) سيرة ابن هشام حـ ٤ صـ ٢٥ ـ البداية والنهاية حـ ٤ صـ ٢٩٨

(٣٤) انظر السيرة الحلبية حـ ٣ صـ ٣٨

● ومن هؤلاء أيضا : الحويرث بن نقيذ وقد أهدر دمه لأنه كان شديد الإيذاء للنبى ﷺ وهو فى مكة ، وكان يعظم القول فى أذِيَّته ، وينشد الشعر يهجوه فيه . وحين حمل العباس ابنتى الرسول ﷺ : فاطمة وأم كلثوم لتلحقا بأبيهما فى المدينة بعد هجرته . جاء الحويرث فنخس البعير الحامل لهما ، فرمى بهما على الأرض .

وقد قتله على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ وكان قد خرج يريد الهرب[٣٥] .

● ومن هؤلاء مقيس بن صبَّابة ، وسبب إهدار دمه ما يأتى :

كان أخوه هشام بن صبَّابَةَ بن حَزْن بن سيَّار الليثى قد أسلم وهاجر . وفى غزوة ذى قرد قتله رجل من الأنصار خطأ وهو يظنه من العدو .

وجاء أخوه مقيس بعد ذلك مهاجرا مظهرا الإسلام ومطالبا بدية أخيه ، فأرسل النبى ﷺ معه زهير بن فياض الفهرى الى بنى النجار فقال لهم : هذا أخو هشام بن صبابة فادفعوا إليه دية أخيه .

فجمعوا لمقيس دية أخيه ، فلما صارت الدية إليه وثب على زهير فقتله ، وارتد مشركا إلى مكة وقال فى ذلك أبياتا منها :

فأدركت ثأرى واضطجعت موسدا   وكنت الى الأوثان أول راجع

ويقال : إنه بعد أن أخذ الدية عدا على الأنصارى قاتل أخيه فقتله[٣٦] .

---

(٣٥) البداية والنهاية جـ ٤ صـ ٢٩٨

(٣٦) أسد الغابة جـ ٥ ص ٤٠٠

وقد ظفر به عمه نميلة بن عبد الله الليثى ، وجده فى رهط يشربون الخمر فقتله . فقالت أخت مقيس ترثيه .

لعمرى لقد أخزى نميلةُ رهطه وفجَّع أضياف الشياء بمقيس
فلله عينا من رأى مثل مقيس إذا النفساء أصبحت لم تُخَرَّس[٣٧]

ولكنا نقول لها : تعساً للنفساء التى تتغذى على نفقة مثل هذا العادى الآثم ، الذى يستحل المال الحرام ، ويقتل النفس بغير حق ، ويؤثر دين الباطل على دين الحق .

● ومن هؤلاء أيضا هبار بن الأسود

وهو هبار بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى بن قصى القرشى ، وكان قد تعرض لزينب بنت رسول الله ﷺ وحين أرسلها زوجها أبو العاص بن الربيع الى المدينة لتلحق بأبيها مهاجرة ، فروعها برمحه وضرب هودجها ونخس بعيرها فأسقطها من فوق رحلها ، وكانت حاملا فأجهضت ، ولازمها المرض بعد ذلك حتى توفيت ـ رضى الله عنها .

فقال النبى ﷺ ـ لأصحابه : ان لقيتم هبارا فاقتلوه فلم يلقه أحد من المسلمين يوم الفتح .

كان هبَّار قد توارى حتى عاد النبى ـ ﷺ ـ الى المدينة ، فجاء هبار رافعا صوته يقول : يا محمد أنا جئت مقرا بالاسلام وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، ولقد هربت منك يا رسول الله فى البلاد فأردت

---

(٣٧) سيرة ابن هشام حـ ٤ صـ ٢٤ وتخرس : يصنع لها طعام عند ولادتها . وطعام النفاس اسمه : الخرس

اللحوق بالأعاجم ، ثم ذكرت فضلك فى صفحك عمن جهل عليك ، وكنا يا نبى الله أهل شرك فهدانا الله بك ، وأنقذنا بك من الهلاك ، فاصفح عن جهلى وعما كان منى فإنى مقر بسوء فعلى ، معترف بذنبى .

فقال النبى ﷺ : يا هبار عفوت عنك وقد أحسن الله إليك حيث هداك إلى الاسلام ، والاسلام يجب ما قبله .

قال بعضهم : إن هبارا حين جاء المدينة كان بعضهم يسبه ، فذكر ذلك لرسول الله - ﷺ - فنهى عن ذلك فانتهوا عنه(٣٨) .

وقيل : إنه أقبل على النبى - ﷺ - وهو منصرف من الجعرانة بعد حصار الطائف وقبل عودته إلى المدينة .

وقد رآه بعض الصحابة قبل أن يكلم رسول - ﷺ - فأراد أن يقوم إليه ويقتله ، فأشار النبى - ﷺ - إليه أن يجلس فجلس الرجل ، وجاء هبَّار فسلم على النبى - ﷺ - وأسلم(٣٩) .

بعد أن اعتذر بالاعتذار السابق .

● ومنهم عكرمة بن أبى جهل بن هشام ، وقد أهدر النبى دمه لعداوته الشديدة للإسلام ، فقد تولى زمام الكفر بعد أبيه ، واشتد إيذاؤه للنبى - صلى الله عليه وصحبه .

وقد حاول عكرمة الوقوف ضد الفتح الاسلامى ولكنه لم يفلح ، وفر هاربا مع من فر بعد أن قُتِل منهم من قُتل .

---

(٣٨) أسد الغابة حـ ٥ صـ ٣٨٤

(٣٩) المرجع السابق

وحين بلغه أن النبى ـ ﷺ ـ أهدر دمه فر الى اليمن وقيل : ركب البحر فأصابتهم ريح عاصف ، فقال أصحاب السفينة لمن فى السفينة من الركاب : أخلصوا فإن آلهتكم لا تغنى عنكم شيئاً هنا .

فقال عكرمة : إن لم ينجنى فى البحر إلا الاخلاص فلن ينجينى فى البرّ غيره ، اللهم لك علىَّ عهد إن أنت عافيتنى مما أنا فيه أن آتِىَ محمدا حتى أضع يدى فى يده ، فلأجدنه عفوا كريما .

فنجاه الله فجاء وأسلم .

أما من حكى أنه ذهب الى اليمن فهو يقول : إن زوجته أم حكيم بنت عمه الحارث بن هشام ، سارت إليه وهو باليمن بأمان من رسول الله ـ ﷺ ـ أخذته له منه ، وكانت قد أسلمت قبله يوم الفتح ، فعاد معها الى رسول الله ـ ﷺ ـ .

وأسلم عكرمة وحسن إسلامه ، وأبلى فى الاسلام بلاء حسنا بعد ذلك .

ولما أسلم كان بعض المسلمين يقولون : عكرمة ابن عدو الله أبى جهل . فشكا ذلك الى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال النبى لأصحابه : لا تسبوا الميت فإن سب الميت يؤذى الحى .

قال بعض العلماء ، وفى هذه القصة نزل قوله وتعالى

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَـٰبِ

﴿بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾[٤٠]

قالوا : نزلت فى عكرمة بن أبى جهل حين قدم المدينة مسلما ، وكان المسلمون إذا رأوه قالوا : ابن فرعون هذه الأمة ، فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ . فنزلت وقيل غير ذلك[٤١] .

وقال رسول الله ـ ﷺ ـ لأصحابه ـ قولوا : عكرمة بن عمرو . . ولا تقولوا عكرمة بن أبى جهل لأن أبا جهل اسمه عمرو ، وكنيته جاءته من جهله على النبى ـ ﷺ ـ وعداوته له وللاسلام .

وحين رجع عكرمة من اليمن مقبلا على النبى ـ ﷺ ـ رحب به وقال له : مرحبا بالراكب المهاجر .

وقال عكرمة بعد أن أسلم : يا رسول الله ، لا أَدَعُ ما لا أنفقت عليك ـ يعنى فى حربك . إلا أنفقت فى سبيل الله مثله .

وقال له ـ ﷺ ـ : يا عكرمة ما تسألنى شيئاً أقدر عليه إلا أعطيتكه .

قال : استغفر لى كل عدواة عاديتك إياها .

فقال ـ ﷺ ـ : اللهم اغفر لعكرمة كل عداوة وكل منطق تكلم به .

● ومن هؤلاء الذين أهدر دمهم أيضا . وحشى بن حرب الحبشى الذى يكنى : أبا دسمة ـ وكان من سودان مكة ، وهو مولى لطعيمة بن عدى ،

---

(٤٠) الحجرات ١١

(٤١) التفسير الوسيط ـ المجلد الثالث ـ الحزب الثامن والخمسون صـ ١٠٤٢ مجمع البحوث الاسلامية

وقيل : لجبير بن مطعم بن عدى . أما سبب إهدار دمه فلقتله أسد الله حمزة بن عبد المطلب فى أحد .

قال وحشى : أقمت بمكة حتى افتتحها رسول الله ـ ﷺ ـ فهربت الى الطائف ، فكنت بها ، فلما خرج وفد أهل الطائف الى رسول الله ـ ﷺ ـ ليسلموا ضاقت علىّ الأرض ، وقلت : الحق بالشام أو باليمن او ببعض البلاد .

فإنى لفى ذلك إذ قال لى رجل : ويحك إنه ـ أى رسول الله ـ ما يقتل أحدا من الناس دخل دينه .

فلما قال لى ذلك خرجت حتى قدمت على رسول الله ـ ﷺ ـ المدينة ، فلم يرنى إلا وأنا قائم على رأسه أشهد شهادة الحق . فلما رآنى قال : وحشى ؟

قلت : نعم

قال : اقعد ، فحدثنى كيف قتلت حمزة . فحدثته .

فلما فرغت من حديثى قال : ويحك غيب عنى وجهك فلا أراك .

قال : فكنت أتنكب ـ أعدل عن طريق رسول الله ـ ﷺ ـ حيث كان حتى لا يرانى .

وكأنما أراد وحشى أن يكفر عن هذه الجريمة التى ارتكبها فى حق سيد الشهداء فألقى بنفسه فى صفوف المجاهدين ، فكان فى جيش خالد الذى بعثه أبو بكر إلى اليمامة ، وقد شارك فى قتل مسيلمة الكذاب . ولذلك كان يقول : قتلت رجلا من خير الناس ورجلا من شر الناس ، يعنى حمزة ومسيلمة .

ولئن كان النبى - ﷺ - عفا عن وحشى لأنه أسلم إلا أن إعراضه عن رؤيته كان له أثره السيء فى حياة وحشى . حتى كانت نهايته كما يقول بعض الرواة فى إفراطه فى شرب الخمر(٤٢) .

أم هانىء تجير بعض الناس .

وأقبلت أم هانىء ابنة عم النبى - ﷺ - وهى أخت على ابن أبى طالب كرم الله وجهه - ولم تكن قد أسلمت بعد ، وكانت تحت هبيرة بن أبى وهب - أقبلت الى النبى - ﷺ - وكان نازلا بأعلى مكة .

فسلمت عليه ، فقال : من هذه ؟

فقالت : أم هانىء بنت أبى طالب .

فقال - ﷺ - مرحبا بأم هانىء .

ثم قال لها : ما جاء بك ؟

قالت : جاء إلىَّ رجلان من أقارب زوجى يستجيران بى فأجرتهما فأراد أخى على أن يقتلهما .

فقال النبى - ﷺ - قد أجرنا من أجرت ، وأمنا من أمنت .

كان هذان الرجلان هما : الحارث بن هشام بن المغيرة وزهير بن أبى أمية بن المغيرة .

وقد أسلم الرجلان وحسن إسلامهما .

أما الحارث بن هشام فهو ابن عم خالد بن الوليد - رضى الله عنه .

وقد أعطاه النبى - ﷺ - من غنائم حنين مائة من الابل ، وكان يعتبر من المؤلفة قلوبهم .

---

(٤٢) أسد الغابة حـ ٥ صـ ٤٤٠

واستشهد الحارث بن هشام فى اليرموك ، وفى قصة استشهاده مثل يذكره الرواة يوحى بالإيثار والمروءة والوفاء .

قالوا : روى حبيب بن أبي ثابت أن الحارث بن هشام ، وعكرمة بن أبي جهل ، وعياش بن أبي ربيعة خرجوا يوم اليرموك وأثناء القتال جُرحوا جراحة عميقة قاتلة ـ فدعا الحارث بن هشام بماء ليشربه فقال لمن أتى بالماء : ادفعه إلى عكرمة . . فلما ذهب به إلى عكرمة . قال عكرمة . ادفعه إلى عياش ، فلما جاء به عياش قال : اذهب به إلى الحارث . فذهب به إلى الحارث فاذا به قد مات ، ثم ذهب به الى عكرمة فوجده قد مات ، فذهب به الى عياش فاذا به قد مات . ماتوا جميعا قبل أن يشربوا ، وكل منهم كان حريصا على أن يؤثر صاحبه على نفسه .

وكان الحارث مشهورا بالنجدة والكرم ، وكان مقيما فى مكة فلما أراد أن

أن يخرج من مكة مجاهداً جزع أهل مكة جزعاً شديداً ، ولم يبق أحد إلا خرج يشيعه . فلما كان بأعلى البطحاء وقف ووقف الناس حوله يبكون .

فلما رأى جزعهم رقَّ فبكى وقال : يأيها الناس ، إنى والله ما خرجت رغبة بنفسى عن أنفسكم ، ولا اختيار بلد عن بلدكم ، ولكن كان هذا الأمر ـ الاسلام ـ فَخَرَجَت رجال ، والله ما كانوا من ذوى أسنانها ولا فى بيوتاتها ـ فأصبحنا ، والله ولو أن جبال مكة ذهباً فأنفقناها فى سبيل الله ما أدركنا يوماً من أيامهم ، والله لئن فاتونا به فى الدنيالنلتمسن أن نشاركهم به فى الآخرة . ولكنها النقلة إلى الله ـ تعالى[٤٣] .

---

(٤٣) أسد الغابة جـ١ ص ٤٢٠

وزهير بن أبي أمية بن المغيرة وهو ابن عم خالد بن الوليد أيضاً . وقد أسلم أيضاً ، واعتبره الرواة من المؤلفة قلوبهم ، وكانت له يد فى نقض الصحيفة الظالمة قبل الهجرة[٤٤] .

وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد أهدر دم بعض النساء اللاتى كانت لهن آثار سيئة على الدعوة الاسلامية ـ فمنهن المرأة التى حملت رسالة حاطب ـ ولكنها أسلمت فعصمت نفسها من القتل .

ومنهن مغنيتان لابن خطل ، وقد استؤمن لإحداهما وأسلمت وأما الأخرى فقد قتلت .

ومنهن هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان ، وكانت زعيمة من زعماء الكفر ، وهى التى حرضت وحشياً على قتل حمزة ـ رضى الله عنه ـ وأعطته فى نظير ذلك حليها ، واستبدلت بها ما قطعته من أحشاء حمزة وأعضائه فتزينت بها ، ونقبت عن كبده فأخرجته ولاكته فلم تستطع أن تسيغه فلفظته . .

وكانت تحرض المشركين بشعرها على القتال يوم أحد .

وأسلم أبو سفيان قبلها . فقالت له بعد ان أستقر الأمر للإسلام فى مكة إنى أريد أن أبايع محمداً .

فقال لها : قد رأيتك تكذبين هذا الحديث أمس .

قالت : والله ما رأيت الله عُبِد حق عبادته فى هذا المسجد قبل الليلة ، والله إنْ باتوا إلا مصلين .

قال لها : فإنك قد فعلت ما فعلت ، فاذهبى برجل من قومك معك .

---

(٤٤) المرجع السابق جـ ٢ ص ٢٦١

فذهبت إلى عثمان بن عفان ، وقيل : إلى أخيها أبى حذيفة بن عتبة ، فذهب معها إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاستأذن لها فدخلت وهى منتقبة .

فقال لها : تبايعين على ألا تشركى بالله شيئاً ، ولا تسرقى ولا تزنى .

فقالت : وهل تزنى الحرة ؟

فلما قال : ولا تقتلى أولادك . قالت : ربيناهم صغاراً وقتلتهم كباراً .

فعرف الرسول أنها هند . . فقالت له : اعف عما سلف يا نبى الله .

فعفا عنها وشاركت فى الجهاد مع زوجها أبى سفيان وشهدت معه اليرموك(٤٥) .

ويروى أنها حين جاءت وهى منتقبة بالأبطح وقالت : إنى امرأة مؤمنة أشهد ألا إله إلا الله وأنك عبده ورسوله ، ثم كشفت عن نقابها فقالت : أنا هند بنت عتبة ـ اعف عنى يا رسول الله .

فقال لها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عفوت عنك .

ويقال : إنها أرسلت إليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بهدية وهى جديان مشويان مع مولاة لها ، فاستأذنت ، فأذن لها ، فدخلت والنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ جالس مع نسائه ـ أم سلمة وميمونة ونساء من بنى عبد المطلب ، وقالت : إن مولاتى تعتذر إليك وتقول : إن غنمها اليوم لقليل الوالدة .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ اللهم بارك لكم فى غنمكم وأكثر والدتها .

---

(٤٥) أسد الغابة جـ ٧ ص ٢٩٢

فكثر الله ذلك .

تقول هذه المولاة : لقد رأينا من كثرة غنمنا ووالدتها ما لم نكن نرى من قبل .

وجاءت هند للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقالت له : يا رسول الله إن أبا سفيان رجل مسيك ، فهل على من حرج أن أطعم من الذى له عيالنا ؟

فقال لها : لا عليك أن تطعميهم بالمعروف .

وفى رواية : خذى ما يكفيك وولدك بالمعروف(٤٦) . .

يا لقدرة الله التى أذهبت كل ذلك العداء الذى كان كالبحر الهادر فى لحظة واحدة . وأحلت محله الرضا والإقبال على الله ورسوله .

وجل الذى يقول :

﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾(٤٧)

وقال سبحانه :

﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾(٤٨)

---

(٤٦) السيرة الحلبية جـ٣ ص ٤٦

(٤٧) الأنفال ٦٣

(٤٨) الأنعام ١٢٥

اذهبوا فأنتم الطلقاء :

ودخل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مكة ، حتى نزل بأعلاها وضربت له هنالك قبته التى أقام بها . .

كان ذلك فى صبيحة العشرين من رمضان المعظم من العام الثامن الهجرى . وهو يوافق بالتاريخ الميلادى اليوم الحادى عشر من كانون الثانى (يناير) من عام ٦٢٠ .

وحين تم فتح مكة خرج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى جاء البيت الحرام فطاف به سبعاً .

ووقف عند باب الكعبة قائلاً : لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثره أوْدَمٍ أومال يُدْعى فهو تحت قدمى هاتين ، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج . ألا وقتيل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا ففيه الدية مغلظة : مائة من الإبل أربعون منها فى بطونها أولادها . يا معشر قريش . إن الله قد أذهب عنكم عصبية الجاهلية وتعظمها بالآباء ـ الناس من آدم وآدم من تراب . ثم تلا قوله ـ تعالى ـ

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ (٤٩)

---

(٤٩) الحجرات ١٣

لقد اجتمع الجم الغفير من قريش يستمعون إليه ، وما منهم إلا مصيخ لما يقول ، سترقب لما يفعل .

كل رجل منهم يشعر بالذنب ويتوجس مما قدمت يداه . لقد طالما أمعنوا فى الكفر ، وناصبوا ذلك الرجل الماثل أمامهم العداء ، وما منهم إلا وقد تقول عليه الأقاويل ، وعذب من آمن معه بالعذاب الشديد . وها هم أولاء الآن بين يديه يقفون صاغرين لا يدرون ما مصيرهم الذى يئولون إليه . . إن ذلك المصير متعلق بكلمة تصدر من بين شفتيه .

لقد طافت بأذهانهم صور الفاتحين عبر التاريخ . وسمعوا عن هؤلاء الذين يملكون البلاد ثم يصدرون أوامرهم لجنودهم ، فتطيح الرءوس وتتناثر الأشلاء وتسيل الدماء أنهاراً . . وربما لا يكون هؤلاء المغلوبون قد أساءوا إلى ذلك الغالب أو حاربوه .

أما هم فلهم صفحات سوداء أمام ذلك الرجل الذى يقف الآن أمامهم يخاطبهم بهذا الهدوء القوى والمنطق الجلى والبيان الرائع . . فماذا سيكون أمره فيهم ؟

ولم يطل بهم الموقف كثيراً ، فقد سمعوا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يخاطبهم قائلاً ؛ يا معشر قريش ، ما ترون أنى فاعل فيكم ؟

وكانوا فى أشد الشوق لسماع هذا السؤال الذى التمسوا فيه السماحة والعفو والرحمة . . وأدركوا منه جلال البر وصدق الوفاء وجمال المروءة . . فأسرعوا قائلين ـ وكأنَّ ملقناً قد لقنهم ما يقولون : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم . .

ماذا تنتظر أن تكون إجابة الرحمة المهداة على هذا الاستعطاف الرائع ؟

لقد قال لهم : اذهبوا فأنتم الطلقاء . .

لقد عفا عنهم جميعاً فى كلمة واحدة . .

لقد نسى عداوتهم الجامحة ، وحروبهم وأحزابهم ومكائدهم وكل ما قدمت أيديهم فى كل هذه السنين الماضية . نسى ذلك كله فى لحظة . . ولم يذكر ساعتئذ إلا أنه رحمة الله المهداة ، ورسول الله لهذه الأمة ليأخذ بأيديها من الظلمات إلى النور . .

ولم لا وقد قال تعالى فى حقه :

« وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين[٥٠] »

وقال :

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾[٥١]

ثم جلس النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وطلب من عثمان بن طلحة أن يأتيه بمفتاح الكعبة .

وذهب عثمان إلى أمه سلافة بنت سعيد وأصلها من الأوس ليأخذ منها المفتاح وكان محفوظاً عندها فأبت عليه ذلك ـ وكانت لم تسلم بعد ـ

---

(٥٠) الأنبياء ١٠٧

(٥١) التوبة ١٢٨

فقال لها عثمان : والله لتعطينه أو ليخرجن هذا السيف من صلبى .

ويقال : إنها امتنعت وزادت فى الإباء ووضعت المفتاح فى حجزتها حتى لا يجرؤ رجل أن يأخذه منها . .

وأدى ذلك إلى إبطاء عثمان ، والرسول ينتظر حتى إن العرق ليتحدر منه مثل الجمان ، ويقول : ما يحبسه ؟

وكانت حجة سلافة فى امتناعها أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إن أخذ المفتاح لا يرده إلى أبناء طلحة مرة أخرى . . ولكنها كانت واهمة . . وما زال عثمان بها حتى أخذ المفتاح منها وذهب به إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ففتح الباب .

ودخل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الكعبة هو وأسامة وبلال وعثمان ـ وأجاف عثمان الباب .

ورأى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى داخل الكعبة صوراً وتماثيل ، فأقبل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على هذه الصور يمحوها ، وأرسل أسامة بن زيد ليأتى بماء يمحو به هذه الصور ، وكان الكفار قد وضعوا فى الكعبة صورة لإبراهيم عليه السلام وجعلوه فى هيئة مَن يستقسم بالأزلام . . فتعجب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من هؤلاء الذين يصورون إبراهيم ـ عليه السلام ـ مشركاً . . فمحا تلك الصور وتلا قوله ـ تعالى ـ ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (٥٢)

---

(٥٢) آل عمران ٦٧

وصلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما يحدث الرواة ـ ركعتين فى داخل الكعبة .

وخرج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الكعبة ، وقد تطلع على بن أبى طالب لمفتاح الكعبة ، وقال : يا رسول الله ، اجمع لنا الحجابة مع السقاية ـ صلى الله عليك ـ وقيل : إن الذي تطلع لذلك إنما هو العباس .

ولكن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : أين عثمان بن طلحة ؟

وجاء عثمان بن طلحة ، فأعطاه المفتاح وهو يتلو هذه الآية :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾ (٥٣)

قال القرطبى فى مناسبة نزول هذه الآية :ـ

ذلك خطاب للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى أمر مفتاح الكعبة حين أخذه من عثمان بن أبى طلحة العبدرى ـ من بنى عبد الدار ـ ومن ابن عمه شيبة بن عثمان بن أبى طلحة ـ فطلبه العباس بن عبد المطلب لتضاف له السدانة إلى السقاية ، فدخل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الكعبة فكسر ما كان فيها من الأوثان ، وأخرج مقام إبراهيم ونزل عليه جبريل بهذه الآية .

قال عمر بن الخطاب ـ خرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يقرأ هذه الآية . وما كنت سمعتها قبل منه ، فدعا عثمان وشيبة فقال :

---

(٥٣) النساء ٥٨

خذاها خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم[٥٤] .

وما تزال الحجابة فى يد خلفهم حتى الآن .

وذكّر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عثمان بحادثة قديمة حين قال له : ألم يكن الذى قلت لك ؟ . .

وتذكر عثمان هذه الحادثة . . وهى : أن الكعبة فتحت ذات يوم قبل أن يهاجر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى المدينة وأخذ الناس يدخلونها . وجاء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليدخلها ، فأبى عليه عثمان وأغلظ له القول ونال منه .

ولكن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حلم عليه ، وقال له : يا عثمان ، لعلك سترى هذا المفتاح يوماً بيدى أضعه حيث شئت .

فقال له عثمان يومذاك : قد هلكت قريش يومئذ وذلت .

فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ بل عمرت وعزت يومئذ .

تذكر عثمان هذه الحادثة حين ذكّره النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بها . . أجل هذا هو المفتاح بيد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعطيه من يشاء . . وهذه هى قريش قد عزت بالإسلام ، وعمرت قلوبها بالإيمان . . لقد كانت ذليلة بالكفر قبل ذلك . أما الآن فقد زادها الاسلام عزاً وفخراً ، وأصبحت جديرة بأن تكون لها حجابة هذا البيت وسقايته وسدانته ومجاورته .

لقد قال عثمان حين سمع كلمة المصطفى يومذاك : قد وقعت كلمته ـ

---

(٥٤) تفسير القرطبى جـ ٥ ص ٢٥٥

صلى الله عليه وسلم ـ منى موقعاً ، وظننت أن الأمر سيصير إلى ما قال .

فلما سمع كلمته يوم الفتح قال للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : بلى أشهد أنك رسول الله .

وصدق الله العظيم إذ يقول فى حقه

« ومابنطق عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى »(٥٥)

بلال يؤذن :

وحانت صلاة الظهر فأمر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بلالا أن يصعد فوق الكعبة ويؤذن .

فارتفع بلال ، ورفع صوته بالأذان فدوى فى أرجاء مكة لأول مرة بصورة رسمية منذ بدء الاسلام .

وفى فناء الكعبة كان يجلس القرشيون ومن بينهم عتاب بن أسيد وأبو سفيان بن حرب . وغيرهم

فقال عتاب بن أسيد : لقد أكرم الله أسيدا أن لايكون قد سمع هذا العبد فيسمع منه مايغيظه .

فقال آخر : أما والله لو أعلم أنه حق لاتبعته . وفى رواية أن عتاب قال : أما وجد محمد غير هذا الأسود مؤذنا ؟

فقال أبو سفيان : لاأقول شيئا ، لو تكلمت لأخبرت عنى هذه الحصباء .

فخرج عليهم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : لقد علمت الذى

---

(٥٥) النجم ٣ ، ٤

قلتم . ثم ذكر مقالة كل واحد منهم قائلا : أما أنت يافلان فقد قلت كذا ، وأما أنت يافلان فقد قلت كذا ، وأما أنت يافلان فقد قلت كذا .

فقال أبو سفيان : أما أنا يارسول الله فما قلت شيئا .

فضحك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ . وهنا قالوا جميعا : نشهد أنك رسول الله ، والله مااطلع على هذا أحد معنا فتقول إنه أخبرك .

إنها المعجزة النبوية التى كان يؤيد بها ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتقع موقعها فى نفوس أهل الشرك فيخرون لله ساجدين .

لقد خرج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أبى سفيان يوما وهو فى المسجد ، فلما نظر إليه أبو سفيان ، قال فى نفسه : ليت شعرى بأى شىء غلبنى هذا الرجل ؟

فأقبل عليه رسول الاه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وضرب بين كتفيه بيده وقال : بالله غلبتك ياأبا سفيان .

فقال أبو سفيان وهو يزداد خشوعا وخضوعا : أشهد أنك رسول الله .

حديث فضالة الليثى

ومثل آخر من أمثلة ماكان يحيك فى نفوس هؤلاء يرويه لنا ابن هشام فى سيرته . يقول :

كان فضالة بن عمير بن الملوح الليثى قد هم فى نفسه أن يقتل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يطوف بالبيت عام الفتح .

فلما اقترب منه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ناداه قائلا : أأنت فضالة ؟

قال : نعم أنا فضالة يارسول الله .

قال له : ماذا كنت تحدث به نفسك ؟

قال فضالة : لاشيء ، كنت أذكر الله - عز وجل -

على من تُموِّه يافضالة ؟ أتظن أن الله لايطلع رسوله على مافى ضميرك ويخبره عما يكنه فؤادك ؟

أتعتقد يافضالة أن الله تاركك تنفذ مافى زعمك دون أن يلقنك درسا بليغا يحول بينك وبين ماتريد ؟

أغاب عن ذهنك قول الله تعالى فى حق نبيه - ﷺ - « والله يعصمك من الناس » ؟

وكيف يكون ذكر الله يافضالة ؟ أيكون بالعدوان على رسوله . وحديث النفس بقتله ؟ .

وضحك النبى - صلى الله عليه وسلم - من إجابة فضالة . ثم قال له : « استغفر الله » ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه . أجل ، استغفر الله يافضالة ، من الكذب أولا .. ومن الخيانة ثانيا ، ومن الهم بالسوء ثالثا :

قال فضالة : فوالله مارفع النبى - صلى الله عليه وسلم - يده عن صدرى حتى كان أحب خلق الله إلىّ .. مامن خلق الله شيء أحب إلىّ منه ..

وغسل الله ماحاك فى صدر فضالة من سوء ، وتبدل باطنه تبدلا كاملا ، وظهر أثر اليد الشريفة التى مرت على صدره فتغيرت أحواله الدنيوية وأصبحت أحوالا سنية ، وكان امرءا داعرا فاجرا فأصبح صالحا طاهرا .

قال فضالة : فرجعت إلى أهلى فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها فقالت : هلم إلى الحديث .. فقلت لا ..

وأنشد فضالة يقول

قالت : هلم الى الحديث ، فقلت : لا بأبى عليك الله والاسلام
لو مارأيت محمدا وقبيله بالفتح يوم تكسر الأصنام
لرأيت دين الله أضحى بيِّناً والشرك يغشى وجهه الاظلام(٥٦)

وعلى الرغم من عفو النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصفحه عن هؤلاء المشركين ، فمازالت فى نفوس بعضهم بقية بل بقايا من كبر وشرك ، والكفر لايذهب بين عشية وضحاها من نفوس مثل هؤلاء . .

إن هؤلاء هم الذين نزل فيهم وفى أمثالهم قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ ﴾(٥٧)

ومن صور ذلك ماحدث من بعضهم حين سمعوا أذان بلال ـ فأخذوا يحاكونه غيظا أو استهزاء . .

ومن الذين حاكوا بلالا استهزاء ـ أبو محذورة ، وكان ذا صوت حسن ـ وسمعه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاستدعاه . فجاء وهو يعتقد أنه مقتول لامحالة . فلما مثل بين يدى الرسول ـ مسح النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على صدره فامتلأ إيمانا ويقينا .

---

(٥٦) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٣١

(٥٧) غافر ٥٦

ولقنه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عليه الأذان ـ فتعلمه وأتقنه وأمره أن يؤذن لأهل مكة . وورث الأذان فى الكعبة عقبه من بعده .

النبي يطهر البيت من الأوثان :

ذكر الرواة أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين دخل مكة جعل يقرأ سورة الفتح حتى جاء البيت وطاف به سبعا وهو على راحلته ، ومحمد بن مسلمة ـ رضي الله عنه ـ آخذ بزمامها ـ واستلم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ الركن . . . . ولم يكن للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ شاغل الا تطهير البيت مما فيه من الأوثان والأصنام

عن ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ دخل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مكة يوم الفتح وعلى فناء الكعبة ثلاثمائة وستون صنما لكل حى من أحياء العرب صنم قد شدت أقدامها بالرصاص فجاء ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعه قضيب فجعل يهوى به إلى كل صنم فيسقط الصنم

وفى رواية : فما أشار لصنم من ناحية وجهه الا وقع لقفاه . ولاأشار لصنم من ناحية قفاه إلا وقع على وجهه من غير أن يمسه بما فى يده وهو يقول « جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا » حتى مر عليها كلها »(٥٨)

وفى وقوع الأصنام منكسة بهذه الصورة المخزية قال شاعر خزاعة تميم بن أسد الخزاعى :

وفى الأصنام معتبر وعلم لمن يرجو الثواب أو العقابا(٥٩)

---

(٥٨) السيرة الحلبية جـ٣ ص ٢٨

(٥٩) سيرة ابن هشام جـ٤ ص ٣٠

وحين كسر هبل ـ وكان موضوعا ـ بجانب الكعبة ، وهو أكبر أصنام قريش وأعزها عندهم . أقبل الزبير على أبي سفيان يقول له : قد كسر هبل ، أما إنك قد كنت فى يوم أحد فى غرور حين تزعم أنه قد أنعم وعلا . .

والزبير يشير بذلك إلى مارده أبو سفيان يوم أحد بقوله : اعل هبل . فقال ابو سفيان : دع هذا عنك يابن العوام ، فقد أرى لو كان مع إله محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ غيره لكان غير ماكان . . .

وكان مقام إبراهيم يومئذ لاصقا بالبيت ، فنحاه

وكان فوق الكعبة صنم لخزاعة . فقال على ـ رضى الله عنه ـ انطلق بى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليلا ، حتى أتى الكعبة ، فقال : اجلس ، فجلست الى جنب الكعبة . فصعد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على منكبى ، ثم قال : انهض فنهضت ، فلما رأى ضعفى عن حمله قال : اجلس . فجلست .

فقال لى : اصعد على منكبى واهدم الصنم .

فقال على : يارسول الله ، بل اصعد أنت .

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إنك لاتستطيع حمل ثقل النبوة ، فاصعد أنت .

قال : فصعدت على منكبه ، فلما نهض بى صعدت فوق ظهر الكعبة ، وتنحى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وخُيِّل إلىّ حين نهض بى أنى لو شئت لنلت أفق السماء .

كان على ظهر الكعبة صنم من نحاس ـ لم يبق إلا هذا الصنم بعد أن تكسرت كل الأصنام حول الكعبة : وكان هذا الصنم لخزاعة وهو موتد بأوتاد من حديد . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : عالجه فعالجته ، وهو يقول : « جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا »

قال على : فلم أزل أعالجه حتى تمكنت منه فقذفته فتكسر . . . . . . لقد طهر البيت تماما من الأصنام حوله وفوقه ، ولم يعد يذكر غير الله تعالى فى بيته العتيق الذى هو أول بيت جعل للناس مثابة وأمنا . .

وهاهى ذى الآلاف المؤلفة من كل مكان ، يقصدون الى هذا البيت فى كل أوان ومن كل مكان حاجين ومعتمرين حتى لايخلو البيت من طائف فى أى لحظة من لحظات الزمن فى ليل أو نهار . وشعارهم : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لاشريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لاشريك لك لبيك .

ولم يعد يذكر مع الله ـ تعالى ـ أحد . . وعلت كلمة الله كما قضى ووعد وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وسقطت الأصنام الى الأبد . .

وأمر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كل من فى بيته صنم أن يكسره . . . . . وحين أسلمت هند بنت عتبة عمدت الى صنم كان فى بيتها وجعلت تضربه بالقدوم حتى كسرته وقالت : قد كنا منك فى غرور .

ويث النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ السرايا الى مختلف الجهات المحيطة بمكة لكسر مابها من أصنام

وستتحدث إن شاء الله عن هذه السرايا التى أرسلها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد قليل . .

النبى يحطم التقاليد البالية :

الاسلام عقيدة وتعاليم ومثل ، جاء ليقيم للناس العدل ويشيع الأمن ويقضى على الظلم ويذهب الخوف

وقد كان من العادات المنتشرة بين الناس ـ تلك الثارات الحمقاء التى أشعلت الحروب أزمانا وأحقابا . . وقد حدث فى أثناء الفتح حادثة أشار اليها الرواة مؤداها كما يلى :

حدث سعيد بن أبى سندر الأسلمى عن رجل من قومه قال :

كان معنا رجل يقال له : أَحْمَرَ بأْسا[٦٠] ، وكان رجلا شجاعا ، وإذا نام غط غطيطا منكرا[٦١] لايخفى مكانه ، وكان إذا بات فى حيِّه بات مُعْتَنزاً[٦٢] . فإذا بُيِّت[٦٣] الحى صرخوا قائلين : ياأحمر ، يا أحمر ، فيثور كما يثور الأسد لايقوم فى طريقه شىء .

فأقبل ذات ليلة غُزَاة من هُذَيْل يريدون أخذ مائهم ، حتى إذا دنوا من الماء قال ابن الأثوع الهذلى : لاتعجلوا حتى أنظر ، فإذا كان ـ أحمر ـ عند الماء فلا سبيل إليهم . .

---

(٦٠) أحمر بأساً ـ جملة مركبة كحضرموت

(٦١) الغطيط صوت النائم : الشخير

(٦٢) بات منفرداً بعيدا عن الحى

(٦٣) بُيِّت الحى : جاءهم الغزاة ليلاً

فاستمع ابن الأثوع إلى غطيط أحمر فمشى إليه حتى وضع السيف فى صدره . ثم تحامل عليه فقتله .

ثم أغار قوم ابن الأثوع على القوم . . فأخذ القوم يصرخون : ياأحمر ، ياأحمر ولايجيب لهم . فقد قتل أحمر .

فلما كان عام الفتح ، وكان الغد من يوم الفتح ـ جاء ابن الأثوع حتى دخل مكة ينظر ، ويسأل عن أمر الناس . وهو على شركه ـ

فرأته خزاعة ، فعرفوه ، فأحاطوا به وهو إلى جنب جدار من جدر مكة

فقالوا له : أأنت قاتل أحمر ؟

قال : نعم ، أنا قاتل أحمر . فَمَهْ[٦٤] ؟

فجاء خراش بن أمية مشتملا على السيف ، فقال : تنحوا عن الرجل . .[٦٥]

قال الراوى : مانظن إلا أنه يريد أن يفرج الناس عنه .

فلما انفرجنا عنه حمل عليه فطعنه بالسيف فى بطنه . فوالله لكأنى أنظر إليه وأحشاؤه تسيل من بطنه ، وإن عينيه لترنقان[٦٦] فى رأسه ، وهو يقول : أقد فعلتموها يامعشر خزاعة ؟ حتى سقط على الأرض .

عند ذلك خطب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : يامعشر خزاعة ، ارفعوا أيديكم عن القتل لئن قتلتم قتيلا لَأَدِيَنّه[٦٧] .

---

(٦٤) مه : ماذا تريدون ؟ كأنه يتحداهم

(٦٥) يريد : ابتعدوا عن الرجل

(٦٦) ترنقان : تكادان تنغلقان

(٦٧) لأدينه : أؤدى دينه

لقد عاب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ خراش بن أمية على فعلته ووصفه بأنه قتّال[٦٨] ، وهذا لايتفق مع تعاليم الإسلام .

وفى خطبته التى خطبها وأشرنا إليها آنفا دعا إلى نبذ مآثر الجاهلية وقبائحها فقال : كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمى هاتين . . وكذلك كل عادة من العادات التى لاتتناسب وقيم الإسلام ومبادئه .

ولم يترك النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حادثة القتل هذه تمر دون أن يرسى المبادىء التى يجب أن يسير عليها الناس منذ الآن . . فقد مضت نعرة الجاهلية إلى غير رجعة ، وذهبت حمية العصبية ، والنعرة الجاهلية . . والدعوة إلى الأخذ بالثأر وغيرها من العادات . . فقام النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ خطيبا فقال :

« ياأيها الناس ، إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض ، فهى حرام إلى يوم القيامة ، فلايحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماً ولايعضد فيها شجرا ، لم تحل لأحد كان قبلى ، ولاتحل لأحد يكون بعدى ، ولم تحل لى إلا هذه الساعة غضبا على أهلها ، ثم قد رجعت كحرمتها بالأمس ، فليبلغ الشاهد منكم الغائب ، فمن قال لكم إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قاتل فيها فقولوا : ان الله قد أحلها لرسوله ولم يحلها لكم ، يامعشر خزاعة ارفعوا أيديكم عن القتل ، فلقد كثر القتل

---

(٦٨) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٢٧

لئن قتلتم قتيلا لأدينه ، فمن قتلْ بعد مقامىْ هذا فأهله بخير النظرين : إن شاءوا فَدَمُ قاتله وإن شاءوا فديته »

ثم ودى رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ ذلك الرجل الذى قتلته خزاعة .

كما وَدَى قتيلا آخر قتله بنو كعب وهو جندب بن الأكوع(٦٩)

المبايعة

وأقبل الناس يبايعون النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الإسلام .

جلس على الصفا وتقاطر الناس صغارهم وكبارهم ، ورجالهم ونساؤهم ،

ودخل الناس أفواجا فى دين الله .. وتحقق بذلك مضمون هذه السورة الكريمة

« إذا جاء نصر الله والفتح . ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا . فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا » .

وكانت المبايعة للرجال على شهادة ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله .

وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يبايع الناس على ذلك وهو فى منتهى التواضع والخشوع لله عز وجل ، ولا يكف عن ترديد قول : الحمد لله الذى أعز الاسلام ورفع شأنه وأذل الشرك وقوض ركنه ..

وكان فى تواضعه الجم يزداد رفعة ومهابة فى عيون الناس .. جاءه رجل يبايعه فأخذته الرعدة ، فقال له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

---

(٦٩) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٢٩

هون عليك فإنى لست بملك ، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد بمكة .

مبايعة معاوية

وجاءه معاوية بن أبى سفيان يبايعه ، وكان معاوية قد وقع الاسلام فى قلبه قبل ذلك ، ولكنه أسره مجاملة لأبيه . .

يقول معاوية حاكيا قصة إسلامه :

لما كان عام الحديبية وقع الاسلام فى قلبى ، فذكرت ذلك لأمى ، فقالت : إياك أن تخالف أباك فيقطع عنك القوت ، فأسلمت وأخفيت إسلامى ، فقال لى يوما أبو سفيان وكأنه شعر بإسلامى ـ : أخوك خير منك ، هو على دينى .

فلما كان عام الفتح أظهرت إسلامى . ولقيت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فرحب بى وكتبت له .

هرب صفوان بن أمية

وبعض الزعماء الذين خشوا على أنفسهم هربوا فأمنهم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن هؤلاء صفوان بن أميه . . . . جاء عمير بن وهب إلى النبى ـ ﷺ ـ يقول له : يانبى الله إن صفوان سيد قومى قد هرب ليقذف نفسه فى البحر فأمّنه ، فإنك أمّنت الأحمر والأسود .

فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أدرك ابن عمك فهو آمن .

فقال عمير : أعطنى آية يعرف بها أمانك .

فأعطاه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عمامته التى دخل بها مكة . وقيل : أعطاه برده .

ولحقه عمير بن وهب وهو يريد أن يركب البحر ، وطلب منه الرجوع .

ولكن اليأس كان قد استولى على صفوان فقال له : ابتعد عنى لاتكلمنى .

فقال له عمير : أى صفوان ، فداك أبي وأمى ، جئتك من عند أفضل الناس ، وأبر الناس ، وأحلم الناس ، وخير الناس ، وابن عمك عزه عزك ، وشرفه شرفك ، وملكه ملكك .

فقال صفوان : إنى أخافه على نفسى .

فقال عمير : هو أحلم من ذلك وأكرم ، وقد أمنك ، وهذه أمارة على ذلك ، وأظهر له العلامة . .

فعاد صفوان معه ، وجاء حتى وقف على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : إن هذا يزعم أنك أمنتنى .

قال النبى ـ ﷺ ـ صدق .

قال صفوان : يارسول الله أمهلنى بالخيار شهرين .

فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أنت بالخيار أربعة أشهر . .

وخرج مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى حنين ، وحين فرّق النبى الغنائم رآه ينظر إلى شِعب يمتلىء بالنعم والشاء ، فأعطاه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ نصيبا كبيرا .

فقال صفوان : ما طابت نفسى أحد بمثل هذا الا نبى ، وأسلم .

وكما استأمن عمير بن وهب لصفوان ، استأمن عبد الله بن سهيل لأبيه سهيل بن عمرو .

فقد جاء عبد الله بن سهيل للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال له :

يارسول الله ، أبي تؤمنه ؟

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : هو آمن بأمان الله ، فليظهر ، ثم قال لمن حوله : من رأى سهيل بن عمرو فلايشد إليه النظر . فلعمرى إن سهيلا له عقل وشرف ، ومامثل سُهيل جهل الاسلام .

فمضى عبد الله إلى أبيه فأخبره بمقالة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال سهيل : كان والله برّاً كبيرا وصغيرا[٧٠]

فجاء سهيل ، ولكنه لم يبادر بإعلان إسلامه ، بل ظل يقبل ويدبر وخرج مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى حنين وهو على شركه ، وأسلم بالجعرانة[٧١]

ومن المعروف أن سهيل بن عمرو هو الذى فاوض عن قريش فى صلح الحديبية . وأسلم سهيل بعد ذلك وحسن إسلامه ومات شهيدا يوم اليرموك .

مبايعة النساء

ولما فرغ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من بيعة الرجال أخذ فى مبايعة النساء وكانت مبايعتهن على ما أنزل الله ـ تعالى ـ فى قوله :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ

---

(٧٠) أسد الغابة جـ٣ ص ٢٧١

(٧١) السيرة الحلبية جـ٣ ص ٥٦

اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ (٧٢)

قال القرطبى فى تفسيره : لما فتح رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مكة جاءته نساء مكة يبايعنه فأمر أن يأخذ العهد عليهن ألا يشركن ـ ولايسرقن ولايزنين ولايقتلن أولادهن . . .

والذى يفهم من ذلك أن هذه الآية نزلت فى الفتح .

ولكن عائشة ـ رضى الله عنها قالت : كان المؤمنات إذا هاجرن إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يُمْتَحَنَّ بقول الله ـ تعالى ـ

« يأيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئا ولايسرقن ولايزنين .. إلى آخر الآية .

فمن أقرت بهذا من المؤمنات فقد بايعت ، وكان رسول الله ـ ﷺ ـ إذا أقررن بذلك من قولهن قال لهن : انطلقن فقد بايعتكن . ولا والله ما مست يد رسول الله ـ ﷺ ـ يد امرأة قط . غير أنه بايعهن بالكلام .

وعلى ذلك فان هذه الاية متعلقة بما قبلها فى قوله تعالى

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ

---

(٧٢) الممتحنة ١٢

أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَسْئَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْئَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ (٧٣)

وقد هاجرت بعض النساء فعلا إلى المدينة قبل فتح مكة وخاصة بعد صلح الحديبية ، وأراد بعض المشركين استرجاعهن فابى النبى - ﷺ - استنادا إلى هذه الآية .

ولكن مبايعة هؤلاء المهاجرات فى المدينة لا تنفى اجتماع النساء فى مكة لمبايعة النبى - ﷺ - على الإسلام أسوة بمبايعة الرجال .

وقد عقد ابن سعد فى طبقاته فصلا خاصا أورد فيه أسماء النساء المسلمات المبايعات من قريش وحلفائهم ومواليهم وغرائب نساء العرب .

وذكر فى مقدمتهن : فاطمة بنت أسد - أم على بن أبى طالب - رضى الله عنه - ورقيقة بنت أبى صيفى بن هاشم بن عبدمناف ، وهند بنت عتبة .

وقد أشرنا سابقا إلى أن النبى - ﷺ - كان قد أهدر دمها يوم الفتح لما سبق من فعلها فى الكيد للاسلام ، ولكن الله بقدرته قذف فى قلبها الاسلام فأسلمت وحسن إسلامها . .

كما أشرنا سابقا إلى بعض حوارها مع النبى - ﷺ - عند إسلامها ونضيف إلى ذلك قولها حين أسلمت :

يا رسول الله ، والله ما كان على الأرض أهل خباء أحب إلىَّ من أن يذلوا

---

(٧٣) الممتحنة ١٠

من خبائك ، ولقد أصبحت وما على الأرض أهل خباء أحب إليَّ من أن يعزُّوا من خبائك .

فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : وزيادة ، وقرأ عليهن القرآن وبايعهن .

فقالت هند من بينهن : يا رسول الله نصافحك ؟

فقال : إنى لا أصافح النساء ، إن قولى لمائة امرأة مثل قولى لامرأة واحدة .

وبايعت مع هند أختاها أم كلثوم بنت عتبة ، وفاطمة بنت عتبة . وابنة عمها رملة بنت شيبة بن ربيعة .

كما بايعت بنات أبي سفيان بن حرب : أمنية وجويرية وأم الحكم وصخرة وميمونة . وغيرهن[٧٤] . .

وذكر بعض العلماء أن النبى ﷺ بايع النساء على ما فى الآية الكريمة السابقة وأضاف اليها : ألا تلحقن بأزواجكن غير أولادهم ولا تقعدن مع الرجال فى خلاء .

وذلك داخل ضمن قوله ـ تعالى ـ ولا يزنين . ولا يأتين ببهتان يفتريته بين أيديهن وأرجلهن .

وحين قال لهن : لا تعصين فى معروف سألت بعض النسوة : ما هذا المعروف الذى لا نعصى فيه ؟

فقال : لا تصحن أو لا تنحن ، ولا تخمشن وجها ، ولا تنشرن شعرا ولا تحلقن قرنا ، ولا تشققن جيبا ، ولا تدعين بالويل .

---

(٧٤) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٨ ص ١٣١ ومابعدها

لقد أخذ النبى ـ ﷺ ـ على النساء من العهد أكثر مما أخذ على الرجال .

ولقد لاحظت هذه الملاحظة هند بنت عتبة ـ فقالت : يا رسول الله ـ انك لتأخذ علينا ما لا تأخذه على الرجال .

لقد راعى القرآن الكريم حال ضعف العزيمة والانسياق مع العاطفة الذى طبعت عليه المرأة .

جاء فى صحيح مسلم عن أم عطية ـ رضى الله عنها ـ: لما نزلت هذه الآية :

« يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئا . . »

قالت : كان منه النياحة .

وعنها أنها قالت : أخذ علينا رسول الله ـ ﷺ ـ مع البيعة الا ننوح ، فما وفت منا امرأة الا خمس : هى ، وأم سليم ، وأم العلاء ، وابنة أبى سبرة وامرأة معاذ .

والملاحظ أن البيعة تناولت خصالا شتى ، إلا أن الآية صرحت بالمنهى عنه فى الدين ولم تذكر ما أمرت به النساء وهو ستة أشياء : الشهادة والصلاة والزكاة والصيام والحج والاغتسال من الجنابة .

وسر عدم الإشارة إلى المأمور به فى الآية والاقتصار على المنهى عنه ـ مع أن المبايعة من النبى ـ ﷺ ـ للنساء شملت الأوامر والنواهى ـ يشير اليه القرطبى فى تفسيره بقوله : ذلك النهى دائم فى كل الأزمان والاحوال ، فكان التنبيه على اشتراط الدائم آكد ، وقيل : إن هذه المناهى كان يرتكبها كثير من النساء ولا يحجزهن عنها شرف النسب ، فخصت بالذكر لهذا ،

ونحو منه قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ لوفد عبدالقيس : وأنهاكم عن الدباء والحنتم والنقير والمزفت[٧٥] ، فنبههم على ترك المعصية فى شرب الخمر دون سائر المعاصى لانها كانت شهوتهم وعادتهم ، وإذا ترك المرء شهوته من المعاصى هان عليه ترك سائرها مما لا شهوة له فيها[٧٦] .

وليس معنى اختصاص النساء بالبيعة على هذه الأمور أنه مرخص للرجال فيها . بل هى محظورة على الرجال كذلك . . وقد بايع النبى ـ ﷺ ـ الرجال على ذلك أيضاً . . . فعن عبادة بن الصامت ـ رضى الله عنه ـ قال : كنا عند النبى ـ ﷺ ـ فقال : أتبايعوننى على ألا تشركوا بالله شيئا ولا تزنوا ولا تسرقوا ـ ثم قرأ آية بيعة النساء ـ ثم قال : فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئا فستره الله فهو الى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له منها . .

وقد سبق أن أشرنا فى بيعة العقبة إلى أن النبى ـ ﷺ ـ بايع الانصار على ما جاء ذكره بعد فى بيعة النساء .

عن عبادة بن الصامت قال : كنت فيمن حضر بيعة العقبة الأولى وكنا اثنى عشر رجلا فبايعنا رسول الله ـ ﷺ ـ على ماجاء فى بيعة النساء وذلك قبل ان تفترض الحرب[٧٧] .

---

(٧٥) الدباء : القرع اليابس ـ الحنتم : الجرة ـ النقير : أصل النخلة ـ ينقر فيتخذ منه وعاء ـ المزفت : الإناء يطلى بالزفت . والنهى عن ذلك : أن أهل اليمامة كانوا ينقرون أصل النخلة ـ وينبذون فيها الرطب والبسر . والحنتم : جرار كانت تحمل فيها الخمر . .

(٧٦) تفسير القرطبى جـ ١٠ ـ سورةالممتحنة

(٧٧) سيرة ابن هشام جـ٢ ص ١٨٥

والبيعة التزام ، ولذلك كان النبى - ﷺ - يهتم بها مع من يجىء ليسلم ذكرا كان أو أنثى .

وقد أخذ الله العهد على بنى آدم عامة وعلى النبيين خاصة ..... أما أخذه على بنى آدم عامة فذلك قوله - تعالى

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ (٧٨)

وأما أخذه على النبيين للإيمان بمحمد والتبشير به فذلك قوله تعالى

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ (٧٩)

---

(٧٨) الاعراف ١٧٢

(٧٩) آل عمران ٨١

وأخذ على النبيين جميعا بتبليغ الدعوة والتبشير والانذار وعدم كتمان رسالتهم وذلك فى قوله ـ تعالى

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ ﴾ (٨٠)

وقد خص هؤلاء الخمسة بالذكر لأنهم أولو العزم من الرسل وأئمة الأمم ، فاذا كان الله قد أخذ الميثاق على النبيين فأخذه على الناس ألزم . .

وقد جرت عادة الناس على ألا يتوافوا إلا بميثاق ولا يلتزموا إلا بعهد ، وهو الحجة عليهم عند مناقشة الحساب .

وقد أمرنا الله بالمحافظة على العهد والوفاء به فقال تعالى

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ (٨١)

---

(٨٠) الأحزاب ٧

(٨١) النحل ٩١ ، ٩٢

خوف الانصار من بقاء النبى بمكة

لقد صدق الله وعده ، وحقق ما كان يقوله حسان بن ثابت يوما فى رده على مشركى قريش من الشعراء ـ يتوعدهم بفتح مكة :

عدمنا خيلنا إن لمْ تروها ... تثير النقع موعدها كداء
يسارعن الأعنة مصعدات ... تلطمهن بالخمر النساء
فإما تعرضوا عنا اعتمرنا ... وكان الفتح وانكشف الغطاء
وإلا فاصبروا لجلاد يوم ... يُعزُّ الله فيه من يشاء
وجبريل أمين الله فينا ... وروح القدس ليس له كفاء ..

لقد دخل المسلمون من كداء فعلا ، ولقيت نساء قريش خيل المسلمين فحاولن ان يلطمهن بخمرهن .. وتبسم رسول الله ـ ﷺ ـ إلى ابى بكر حين رأى ذلك[٨٢] وفى تلطيم النساء للخيول بالخمر دلالات .. منها صدق الحدس الشعرى لدى حسان ، فكأنه حين قال ذلك كان واقعا تحت سيطرة إلهام روحى صادق .. لم يلبث الواقع الحسى ان صدقه وهذه الحالة كثيرا ما تنتاب الشعراء الملهمين ، وتزداد هذه الحالة صفاء كلما كان صاحبها على درجة عالية من نقاء الدين وصفاء الروح .

ويكاد الشعراء يجمعون على أنهم لايكونون فى حالتهم الطبيعية حين يقولون شعرهم ، بل تتقمصهم أرواح غريبة عنهم، أما فى الجاهلية فكانوا يقولون : لكل شاعر شيطان ينفث شعره على لسانه . أما فى الاسلام فقد رجمت الشياطين وتغيرت المفاهيم واستيقظ

---

(٨٢) دلائل النبوة للبيهقى جـ ٥ ص ٤٩

الوعى الدينى الذى ملأ أفكار النفوس روعة وجلالا ، فأصبحت لا تنزع إلا عن روح الدين . وأصبح ما يغلب على شعراء الاسلام هو ما يسمى بالالهام الصادق المنبعث من قوة الايمان وصدق اليقين ، ويقابله بالنسبة لغير الشعراء ما يسمى بالفراسة التى يقول فيها النبى - ﷺ -: « اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله » .

وعلى كل فقد صدقت كلمة حسان ، وجاءت خيل الله من كداء واستقبلتها النساء فعلا بالخمر تلطمها فى وجوهها فى محاولة لردها عن غايتها وأنَّى لهن أن يستطعن ذلك ؟

ومن الدلالات التى يوحى بها هذا الأمر - توارى الرجال خوفاً ورعبا .

لقد صدق الله وعده وحقق نصره لرسوله والمسلمين ، ودخل الإسلام مكة وسعد الرسول - ﷺ - بعودته اليها . . .

وخاف الأنصار أن يفضل الرسول - ﷺ - البقاء فى مكة - لما رأوا من فرحة بالعودة اليها . . .

قال أبوهريرة - فيما يرويه البيهقى - وغيره : ألقى الناس سلاحهم ، ودخل رسول الله - ﷺ - فبدأ بالحجر فاستلم ، ثم طاف سبعا وصلى خلف المقام ركعتين ، ثم جاء ومعه القوس آخذ بسيتها[٨٣] ، فجعل يطعن بها فى عين صنم من أصنامهم ، وهو يقول : « جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا » .

ثم انطلق حتى أتى الصفا فَعَلَا منه حتى يرى البيت ، وجعل يحمد الله ويدعوه ، والأنصار عنده يقولون - يعنى فى نفوسهم - أما الرجل فأدركته رغبة فى قريته ورأفة بعشيرته .

---

(٨٣) سية القوس : طرفها المنحنى

وجاء الوحى ، وكان الوحى إذا جاء لم يخف علينا .

فلما رفع الوحى قال : يامعشر الأنصار ، قلتم : أما الرجل فأدركته رغبة فى قريته ورأفة فى عشيرته ؟

كلا ، فما أُسَمَّى إذاً ـ قال ذلك ثلاث مرات .

كلا ، إنى عبدالله ورسوله ، المحيا محياكم ، والمهات مماتكم . .

فأقبل الأنصار يبكون ، وقالوا : يارسول الله ، والله مادفعنا الى ذلك إلا الضنُّ بالله ورسوله .

فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : إن الله ورسوله يصدقانكم ويعذرانكم(٨٤)

لقد خشى الأنصار ـ بعد أن فتح الله مكة لرسوله ـ أن يبقى النبى ـ ﷺ ـ بمكة ، فهى بلده التى أُخْرِج منها ، وهى مسقط رأسه وهى أحب البلاد إليه ، والوطن له مكانة فى القلب لايشك فى ذلك أحد . ولو بقى النبى ـ ﷺ ـ بمكة مالامه أحد .

ومن هنا كان إشفاق الأنصار من أن يتركهم النبى ـ ﷺ ـ بعد أن وجدوا الأنس به ، واستشعروا العزة بوجوده بينهم ، وأدركوا الأمن والسعادة بحلوله دارهم . .

إنهم لايتصورون كيف تكون المدينة بدون وجوده فيها ؟ من أجل ذلك كانوا يجزعون .

ولكن النبى ـ ﷺ ـ يطمئنهم . ويقول لهم : لو بقيت هنا ماكنت جديرا بهذه التسمية : عبدالله ورسوله . .

---

(٨٤) أخرجه مسلم فى كتاب الجهاد والسير ـ فتح مكة ـ دلائل النبوة جـ ٥ ص ٥٦

ولقد كان النبى - ﷺ - يحب الأنصار ، ويقول : والله لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار . .

واطمأن الأنصار بقول رسول الله - ﷺ - لهم ، وذهب ماكانوا يشعرون به من جزع وقلق .

الشعر يحيى الفتح الإسلامى لمكة

وحيا الشعر الفتح الإسلامى ، وكان مما قاله الشعراء فى ذلك أبيات لبجير بن زهير بن أبي سلمى ، منها :

ضربناهم بمكة يوم فتح … النبى الخير بالبيض الخفاف

صبحناهم بسبع من سليم … وألف من بنى عثمان واف

نطا أكتافهم ضربا وطعنا … ورشقا بالمريشة اللطاف[٨٥]

فأبنا غانمين بما اشتهينا … وأبوا نادمين على الخلاف

وأعطينا رسول الله منا … مواثقنا على حسن التصافى[٨٦]

وقال عباس بن مرداس :

منا بمكة يوم فتح محمد … ألف تسيل به البطاح مسوم[٨٧]

نصروا الرسول وشاهدوا أيامه … وشعارهم يوم اللقاء مقدم

فى منزل ثبتت به أقدامهم … ضنك كأن الهام فيه الحنتم[٨٨]

---

(٨٥) نطا : مخفف نطأ - بالهمز - والمريشة : السهام

(٨٦) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٤٠

(٨٧) البطاح : جمع بطحاء - الأرض السهلة - ومسوَّم : معلَّم بعلامة

(٨٨) ضنك : ضيق - الهام : جمع هامة وهى الرأس - الحنتم : الحنظل يريد : تطير كما يطير الحنظل عند هصره

جرت سنابكها بنجد قبلها حتى استقاد لها الحجاز الأدهم
اللـــه مكنـــه لـه وأذلـه حكم السيوف لنا وجد مزحم
عـود الرياسة شامخ عرنينه متطلع ثغر المكارم خضرم(٨٩)

وان كان هذا هو لسان الشعر فى عصر الفتح فهناك من تناولوا هذا الحدث الجليل بعد عصر النبوة ، وصوروه بألسنتهم وأقلامهم ومن ذلك مايرويه القسطلانى فى كتابه المواهب اللدنية من قول بعضهم :

ويوم مكة إذ أشرفت فى أمم تضيق عنها فجاج الوعث(٩٠) والسهل
خوافق ضاق ذرع الخافقين بها فى قاتم من عجاج الخيل والابل
وجحفل قذف الأرجاء ذى لجب عرمرم كزهاء السيل منسحل(٩١)
وأنت صلى عليك الله تقدمهم فى بهو إشراق نور منك مكتمل
ينير فوق أغر الوجه متتجب متوج بعزيز النصر مقتبل
يسمو أمام جنود الله مرتديا ثوب الوقار لأمر الله ممتثل
خشعت تحت بهاء العز حين سمت بك المهابة فعل الخاضع الوجل
وقد تباشر أملاك السماء بما مُلِّكْتَ إذ نلت منه غاية الأمل
والأرض ترجف من زهو ومن فرق والجو يزهو إشراقا من الجذل

---

(٨٩) العرنين : طرف الأنف ، الخِضْرِم : الكريم الواسع العطاء
(٩٠) الوعث : المكان الواسع
(٩١) زهاء : قدر ، منسحل ـ سريع

والخيل تختال زهوا فى أعنتها | والعيس تنتال رَهْوًا فى ثنى الجُدُل[92]
لولا الذى حظت الأقلام من قدر | وسابق من قضاء غير ذى حِوَل
أهل نهلان بالتهليل من طرب | وذاب يذبل تهليلا من الذُّبُل[93]
الملك لله هذا عز من عقدت | له النبوة فوق العرش فى الأزل[94]

الشعراء يسلمون

واذا كان الحديث عن الشعر ، فمن المناسب ذكر الشعراء الذين كانوا يعادون الاسلام ، ويهاجمونه بشعرهم ويستعملون الشعر سلاحا يحاربونه به .. لقد علموا أن هذا السلاح قد ذهب جَدُّه وتثلم حده ، وتنكس لواؤه ، ووجد فى وصف القرآن الكريم للشعراء الغاوين صدعا زلزل كيانه وهدم أركانه حيث يقول فيهم :

﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (٢٢٧) ﴾[95]

---

(٩٢) رهْواً : ذات رهو وهو السير السهل - وثنى : جمع ثِنْى ، والجُدُل : الزمام المجدول

(٩٣) نهلان ويذبل : جبلان ، والذُّبُل : الرماح

(٩٤) المواهب اللدنية للقسطلانى جـ٣ ص ٢٣٠ والأبيات من قصيدة لأبى محمد الشقراطى

(٩٥) الشعراء ٢٢٤ - ٢٢٧

وقد سبق أن تحدثنا عن أبي سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب ، وذكرنا أنه أسلم والنبى - ﷺ - فى طريقه إلى فتح مكة .

وكان أبوسفيان بن الحارث يهجو المسلمين بشعره ويؤذيهم بلسانه ، فتولى شعراء الإسلام الرد عليه ، وقد قال له حسان بن ثابت فى احدى قصائده :

هجوت محمدا فأجبت عنه وعند الله فى ذاك الجزاء

فان أبى ووالده وعرضى لعرض محمد منكم وقاءُ

وكأنَّ إسلام أبي سفيان بن الحارث قد فتح الطريق أمام غيره من الشعراء فاقبلوا على النبى - ﷺ - مسلمين .

إسلام عبدالله بن الزبعرى

● ومن هؤلاء الشعراء الذين كانوا يهجون المسلمين بشعرهم ويثيرون خواطر المشركين ضد الاسلام - عبدالله بن الزِّبْعَرى بن قيس السهمى . وقد أسلم بعد الفتح وحسن إسلامه .

كان عبدالله أحد شعراء قريش المعدودين ، وكان ضالعا معها فى الكفر ، وله فى مصاولة حسان شاعر الرسول - ﷺ - جولات متعددة . من ذلك قوله يوم أحد - وكان إذ ذاك مشركا :

ياغراب البين أسمعت فقل إنما تنطق شيئا قد فُعِل

إن للخير وللشر مدى وكلا ذلك وجه وقبل

والعطيات خساس بينهم وسواء قبر مثر ومقل

كل عيش ونعيم زائل وبنات الدهر يلعبن بكل

أبلغـــا حســـان عنـــى آيـــة فقريض الشعر يشفى ذا الغلل
كم قتلنـــا من كـريـــم ســـيد ماجد الجديـــن مقدام بطـــل
ليـــت أشياخى ببـدر شـــهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل[96]

فأجابه حسان بن ثابت بقصيدة منها :

ذهبتْ يابن الزِّبَعْرى وقعة كان منا الفضل فيها لو عـــدل
ولقـد نلتـم ونلنـا منكـــم وكذاك الحرب أحيانـــا دول
نضـع الأسياف فى أكتـــافكم حيـث نهوى علَلاً بعد نهـــل
إذ تـولون على أعقابكـــم هربا فى الشُّعْـــب اشباه الرسل[97]
إذ شـددنا شـــدة صـــادقة فأجـأناكم الى سـفح الجبـــل
وتركـنا فى قـريش عـوْرة يـوم بـدر وأحـــاديث المثل
ورســول الله حقـاً شـاهد يوم بـدر والتنابيـل الهبل[98]

ولما فتح النبى - ﷺ - مكة فر عبدالله بن الزبعرى الى نجران هربا من النبى - ﷺ - فرماه حسان بن ثابت ببيت واحد من الشعر هو :

لاتعدمـن رجـلاً أحـلك بغضـه نجـران فى عيش أجد لئيم[99]

---

(٩٦) من مهذب الأغانى - بتصرف - جـ ٢ ص ٢٣٥

(٩٧) أشباه الرُّسُل : يعنى الغنم التى يرسلها الراعى

(٩٨) من سيرة ابن هشام بتصرف جـ ٣ ص ٢٠١ - والتنابيل : القصار يقصد بهم قوم عبدالله

(٩٩) تروى كلمة أحذ - بالحاء والذال - ومعناها : القليل المنقطع ، وتروى : أجد بالجيم والدال فمعناها المنقطع أيضاً من جده بمعنى قطعه

وواضح انه يقول له : ان هذا الرجل الذى عاديته وسلطت شعرك عليه هو الذى جعلك تفر وتسكن نجران فى شظف من العيش وانقطاع عن الأهل والعشيرة .

وقد يفهم منه التحريض على كسب رضا الرسول بدلا من الاستمرار فى عداوته ، وقد يفهم منه الدعاء عليه ببقائه فى هذا الحرمان والانقطاع .

وأيا كان المقصود منه فقد كان ابن الزبعرى عاقلا فى الخلوص من المأزق الذى أوقع نفسه فيه بجهله وطيشه وشركه ، فقرر الرجوع الى النبى - ﷺ - واستعطافه والعيش فى كنفه وظله .

فحين بلغه هذا البيت - وللشعر حينئذ ذيوع وانتشار وسير أسرع من أى وسيلة فى الانتقال ، فلا يقال بيت فى مكان إلا حركته الألسن كأنها تمشى به فتنقله فى أسرع من لمح البصر إلى أقصى مكان -

جاء ابن الزبعرى فألقى بنفسه بين يدى المصطفى - ﷺ - تائبا مستغفرا وهو يقول :

يارســول المليـك إن لســانى رائق مافتقت إذ أنا بور[١٠٠]

إذ أبارى الشيطان فى سنن الغى ومن مال مَيْلَه مثبور[١٠١]

---

(١٠٠) بور : هالك

(١٠١) مثبور : هالك ، والسنن - بفتح السين والنون - : وسط الطريق

ثم قال :

إن ماجئتنا به حق صدق ساطع نوره مضيء منير
جئتنا باليقين والبر والصدق وفى الصدق واليقين سرور
أذهب الله ضلة الجهل عنا وأتانا الرخـــاء والميسور
إننى عنك زاجر ثم حيا من لؤى وكلهـم مغــرور(١٠٢)

أجل ، لقد أمن عبدالله باسلامه ، أمن لحمه وعظامه وقلبه وجنانه ، حين شهد قلبه وصدق بأن محمدا - ﷺ - هو البشير النذير . . والايمان أكبر أمان

« الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون »

ولقد تعهد ابن الزبعرى بأن يضع سلاحه من الشعر فى خدمة هذا النبى الكريم مدافعا عنه ضد أولئك المغرورين الذى يعارضونه .

وأسلم عبدالله ، وحسن إسلامه ، وظل ينطق لسانه بما يحسه من ندم على ماقدم فى أيام شركه ، فنراه يقول :

منع الرقاد بلابل وهموم والليــل معتلج الرواق بهيـم(١٠٣)
مما أتانى أن أحمد لامنـــى فيه فبت كأننى محمـــوم
ياخير من حملت على أوصالها عَيْرَانَةٌ ســرح اليــدين غشوم(١٠٤)

---

(١٠٢) أسد الغابة جـ٣ ص ٢٣٩ والبيت الأخير من سيرة ابن هشام

(١٠٣) البلابل : الوساوس والأحزان - والمعتلج : المضطرب يركب بعضه بعضاً - والبهيم : المظلم

(١٠٤) عيرانه : ناقة تشبه العير وهو حمار الوحش فى شدته ، وسرح اليدين : خفيفة وغشوم : ظلوم ، يعنى أن مشيها فيه خفاء . .

إنـى لمعتـذر إليـك من الـذى أسديت إذ أنا فى الضلال أهيم

أيـام تأمـرنى بأغـوى خطـة سهـم وتأمـرنى بها مخـزوم

وأمـد أسباب الـردى ويقـودنى أمـر الغـواة وأمرهـم مشئوم

فاليـوم آمـن بالنبى محمـد قلبى ومخطـىء هـذه محـروم

مضت العداوة وانقضت أسبابها ودعـت أواصـر بيننا وحلـوم

فاغفـر فـدىً لك والـدىَّ كلاهمـا زللـى فإنك راحـم مرحـوم[١٠٥]

وكسب الإسلام جنديا من أقوى الجنود الذين ناصروا الدين الاسلامى بشعرهم بعد أن كانوا فى المعسكر الأخر يرمونه بهذا السلاح الذى كان العرب يعتبرونه من أمضى الأسلحة وأقواها .

كان البيت من الشعر يرفع القبيلة ، وأحيانا يخفضها .

فماهـو الا القـول يسـرى فتغتـدى له غـرر فى أوجـه ومـواسـم

إسلام ضرار بن الخطاب

وكان من الشعراء الذين عادوا الإسلام بشعرهم ـ ضرار بن الخطاب بن مرداس بن كثير بن عمرو ، من بنى فهر بن مالك ، ولذلك يقال له : القرشى الفهرى ، وكان شاعراً شجاعاً ، وهو أحد الأربعة الذى وثبوا بخيولهم الخندق فى معركة الأحزاب .

---

(١٠٥) أسد الغابة جـ٣ ص ٢٤٠ ، سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٣٣

ومن شعره فى أُحُد يُعَرِّضُ بالمسلمين :

حتى اذا ماأبـوا إلا محـاربة واستحصدت بيننا الأضغان والحقدُ[١٠٦]

سرنا إليهم بجيش فى جوانبه قوانس البيض والمحبوكة السرد[١٠٧]

والجرد ترفل بالأبطال شازبة كأنها حِدَأ فى سيرها تُؤدُ[١٠٨]

جيش يقودهم صخر ويرأسهم كأنه ليث غاب هاصر حرد[١٠٩]

فأبرز الحَيْنُ قوما من منازلهم فكان منا ومنهم مُلْتَقىً أُحُدُ

فغودرت منهم قتلى مُجَدَّلَةً كالمعز أَصْرَدَهُ بالصَّرْدَح البرد[١١٠]

وهو صاحب القصيدة التى لقنها لامرأة أنشدتها أمام النبى - ﷺ - حين سمع أن سعد بن عبادة يقول : اليوم يوم الملحمة .. وقد سبق أن ذكرنا هذه القصيدة التى أولها :

ياتبى الهدى إليك لجا حىّ قريش وأنت خير لجاء

حين ضاقت عليهم سعة الأرض وعاداهم إله السماء

وكانت هذه القصيدة مقدمة لاسلامه ، نلمح فيها روح التقرب إلى النبى - ﷺ - واستعطافه ..

لقد أقبل ضرار على الإسلام بعد أن أدرك أنه كان أحد المخدوعين الكبار بالضلال الجاهلى .

---

(١٠٦) استحصدت : قويت واستحكمت

(١٠٧) القوانس : أعالى بيض السلاح جمع قانسة - السَّرْد : المنسوجة ، يقصد الدروع

(١٠٨) الجرد : جمع أجرد ، يقصد الخيل العتاق - وترفل : تمشى متبخترة - شازبة : ضامرة شديدة اللحم - والحدأ : جمع حدأة ، وتؤد : تمهل

(١٠٩) هاصر : كاسر ، وحرد : غاضب ، وصخر هو أبوسفيان

(١١٠) أصرده : بالغ فى إبراده ، والصرد : البرد ، والصردح : المكان الغليظ

وماكان أعجب هؤلاء الشعراء الذين كانوا يُعْتبرون الطائفة المتميزة فى أمتهم ، وحاملى لواء الثقافة فى قبائلهم كيف ينساقون فى تيار الجاهلية .

ولا تتفتح عقولهم على صوت الهدى حين أعلنه النبى - ﷺ - واضحا لا لبس فيه ولا غموض ؟

ولا تعليل لذلك إلا أن الانصياع لسلطان القبيلة كان هو السيف المصلت على رقاب أبنائها لا يستطيعون الخروج عليه أو الفكاك منه ، أليس شاعرهم هو الذى يقول :

وهل أنا إلا من غزية إن غوت   غويت وإن ترشد غزية أرشد ؟

وعلى كل فقد تخلص ضرار من ربقة الجاهلية وأعلن اسلامه ،

وكما وقف - ضرار - ضد الاسلام جاهد فى سبيله . . وكان ضرار شجاعاً لبقاً فى حديثه . . اختلف الأوس والخزرج فيمن كان أشجع يوم أحد ، فمر بهم ضرار بن الخطاب فقالوا : هذا شهدها ، وهو عالم بها .

فسألوه عن ذلك فقال : لا أدرى ماأوسكم من خزرجكم ، لكنى زوجت يوم أُحُد أَحَدَ عشر رجلا من الحور العين - يعنى بذلك أنه قتل أحد عشر رجلا من المسلمين .

فانظر إلى لباقته فى إجابته ، وفى التعبير عن شجاعته ، وفى الاعتذار عن جهالته .

وشهد ضرار بن الخطاب فتوح الشام[111]

---

(111) أسد الغابة جـ٣

إسلام كعب بن زهير

هو كعب بن زهير بن أبي سلمى ، واسم أبي سلمى : ربيعة بن رباح بن قرط ، وهو من الشعراء المخضرمين .

أما أبوه فهو شاعر الجاهلية وحكيمها ، وصاحب المعلقة المشهورة التى مطلعها :

أمن أم أو فى دمنـــة لم تكلـــم بحومانـة الـــدراج فالمتثلـــم

وأبياتها فى الحكمة تشهد بعلو كعبه فى الشعر ، وسعة عقله ، ووفور علمه .. وفيها يقول :

وما الحـــرب الا ماعلمتـــم وذقتـــم وماهو عنهـــا بالحديـــث المرجـــم

متى تبعثوهـــا تبعثوهـــا ذميمـــة وتضـــر اذا ضريتموهـــا فتضـــرم

ومنها : ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله على قومـــه يستغن عنه ويذمـــم

ومن يجعل المعروف من دون عرضـه يفـره ومن لا يتـق الشـــتم يشـــتم

وقد شهد عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ لزهير ـ فيمايرويه أبو الفرج فى أغانيه . قال :

قال عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ لابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : أنشدنى لشاعر الشعراء .

قال ابن عباس : من هو ياأمير المؤمنين ؟

قال عمر : ابن أبى سلمى .

قال ابن عباس : وبم صار كذلك ؟

قال عمر : لأنه لا يتبع حوشى الكلام ، ولا يعاظل فى المنطق ، ولا يقول

إلا مايعرف ، ولا يمتدح الرجل إلا بما يكون فيه ، أليس هو الذى يقول :

ولو كان حمد يخلد الناس لم تمت ولكن حمد الناس ليس بمخلد ؟

أنشدنى . فأنشده ابن عباس حتى برق الفجر . فقال : حسبك ، اقرأ القرآن .

وقد وَرَّثَ زهير ابنيه بُجَيْراً وكَعْباً الشعر .

أما بجير فقد سبق أخاه إلى الاسلام . وتأخر إسلام كعب ، وصار إلبا على الاسلام حتى أهدر النبى - ﷺ - دمه .

ويقص علينا الرواة قصة إسلام بجير فيقولون :

كان بجير وكعب قد خرجا يتتجعان بأغنام لهما ، حتى وردا موضعا اسمه « أبرق العزاف »(١١٢)

فقال بجير لأخيه كعب : اثبت فى غنمنا فى هذا المكان ، حتى آتى الرجل - يعنى النبى - ﷺ - فأسمع مايقول .

فثبت كعب ، وخرج بجير حتى وصل إلى النبى - ﷺ - فسمع منه ، فأعجبه كلامه ، وعرض عليه الاسلام فأسلم ، ولم يعد لأخيه الذى كان فى انتظاره .

وبلغ كعبا إسلام أخيه فأرسل اليه معاتبا يقول :

من مبلغ عنى بجيرا رسالة فهل لك فيما قلت بالخيف ؟ هل لكا ؟

شربت مع المأمون كأسا روية فأنهلك المأمون منها وعلكا

---

(١١٢) هو ماء لبنى أسد بن خزيمة فى طريق القاصد من البصرة إلى المدينة

وخالفت أسباب الهدى واتبعته على أي شيء ويب غيرك دلكا[113]

على خلق لم تلف أما ولا أبا عليه ولم تدرك عليه أخاً لكا

فإن أنت لم تفعل فلست بآسف ولا قائل إما عثرت لعاً لكا[114]

ويروى البيت الثانى هكذا :

سقاك أبو بكر بكأس روية وأنهلك المأمور منها وعلّكا[115]

وكان أخوه بجير شاعراً فكتب اليه يوجهه ويرشده :

من مبلغ كعبا فهل لك فى التى تلوم عليها باطلا وهى أحزم ؟

إلى الله لا العزى ولا اللات وحده فتنجو إذا كان النجاء وتسلم

لدى يوم لا ينجو وليس بمفلت من الناس إلا طاهر القلب مسلم

وكان بجير حين بلغته أبيات كعب لم يستطع كتمانها عن النبى - ﷺ - وأنشده إياها ، فقال النبى - ﷺ - حين سمع قوله : سقاك بها المأمون : صدق وإنه لكذوب ، أنا المأمون .

ولما سمع : على خلق لم تلف أما ولا أبا عليه - قال : أجل لم يلف عليه أباه ولا أمه .

ولم يطع كعب أخاه ، ولم يستمع إلى نصحه ، بل استمر فى غيه ، ومضى فى طريق الضلال .

ولعله أفرط فى لومه أخاه ، وتجاوز الحد فى ذلك فهاجم الاسلام

---

(113) ويب غيرك : كلمة تقال فى الدعاء بالهلاك

(114) لعاً لكا : كلمة تقال للعاثر يدعى له بها ومعناها : قم وانتعش . . والأبيات من سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ١١٦

(115) النهل - بفتحتين - أول الشرب - والعلل - بفتحتين أيضاً - الشربة الثانية

والمسلمين ، فلم يجد النبى - ﷺ - بدّاً من إهدار دمه .

إن فى قتله قطعا للشر ، وقمعا للفتنة ، وقضاء على الباطل الذى يذيعه هؤلاء الشعراء ، الذين يبلغون بلسانهم أحيانا مالا يستطيع الشجاع أن يبلغه بسيفه .

وضاقت الأرض أمام كعب بمارحبت ، فهو لا يولى وجهه فى مكان حتى يجد الإسلام قد ألقى بجرانه فوقه ، فتنكر له الناس ، وأحجموا عن لقائه وحمايته وأغلقوا أبوابهم فى وجهه ، وجفاه أقرب الناس إليه .

ولا شك أنه سمع بإسلام غيره من الشعراء ، فهذا أبو سفيان بن الحارث يسلم ، وهذا ضرار بن الخطاب وهذا ابن الزبعرى ، ومن قبل هؤلاء أسلم العباس بن مرداس وغيره ممن وضعوا شعرهم تحت تصرف الاسلام ، يوجهه فى الخير وبث تعاليمه والدفاع عن أبطاله وإذاعة محامده والاشادة بأمجاده .

فما باله لا ينحو نحوهم .. لقد أهدر النبى - ﷺ - دمه - فأى رجل يلقاه فيقتله فلا دية له .. ؟

ماأضيعك إذن ياكعب إن ظللت على هذه الحال . وإلى متى تظل عصا الترحال على كاهلك ، وتطردك الفيافى والقفار ؟

وأخيرا جاء الغوث من قبل أخيه بجير ، يقول له :

ما أراك تفلت من قبضة النبى - ﷺ - ، ولا نجاة لك إلا بإعلان إسلامك واعتذارك للرسول - ﷺ - فهو رحيم ، ولا يأتيه أحد يشهد شهادة الحق الا قبله وعفا عنه ، وتجاوز عن إساءته ، وأسقط عنه ماكان قبل ذلك منه .

فإذا أتاك كتابى هذا فأقبل وأسلم .

وفرجت هذه الرسالة ضيقه ، فأنشأ قصيدته المشهورة فى الاعتذار ، وأقبل إلى المدينة مختفيا ، فنزل على رجل من جهينة كانت بينه وبينه معرفة قديمة فغدا به هذا الجهنى إلى رسول الله - ﷺ - حين صلى الصبح فصلى مع رسول الله - ﷺ - ثم أشار الجهنى لكعب على رسول الله - ﷺ - وقال له : قم فاستأمنه . .

وقام كعب يخطو إلى النبى - ﷺ - فى وجل ، وجلس بين يديه ، ووضع يده فى يده ، وكان رسول الله - ﷺ - لم يره قبل ذلك .

فقال كعب : يارسول الله ، إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائباً مسلما ، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به ؟

فقال رسول الله - ﷺ - : نعم .

وتلقفها كعب بفرحة غامرة ملأت كيانه فقال : أنا يارسول الله كعب بن زهير .

وهنا وثب رجل من الأنصار يقول : يارسول الله ، دعنى وعدوَّ الله أضرب عنقه .

ولكن المبعوث رحمة للعالمين يقول لهذا الأنصارى :

دعه عنك فإنه قد جاء تائبا نازعا عما كان عليه . وربما كان ذلك سبب غضب كعب على الأنصار . .

وأقبل كعب يستأذن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى إلقاء قصيدته التى سارت بها الركبان وحفظتها الأجيال عبر الأزمان ، وسار على نهجها الشعراء فى كل عصر وأوان - وفتحت الطريق أمام المادحين والمعجبين

بأخلاق المثل الأعلى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأذن له الرسول ـ فأخذ كعب يقول :

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول ... متيم إثرها لم يُفْد مكبول[116]

وماسعاد غداة البين إذ رحلوا ... ألا أغن غضيض الطرف مكحول[117]

وفيها يقول واصفا خوفه وقلقه وإعراض الناس عنه :

وقال كل خليل كنت آمله ... لا ألهينك انى عنك مشغول

فقلت : خلوا سبيلى لاأباكم ... فكل ماقدر الرحمن مفعول

كل ابن أنثى وان طالت سلامته ... يوما على آلة حدباء محمول[118]

ثم خلص إلى الاعتذار فقال :

نبئت أن رسول الله أوعدنى ... والعفو عند رسول الله مأمول

مهلا هداك الذى أعطاك نافلة ... القرآن فيها مواعيظ وتفصيل

لا تأخذنى بأقوال الوشاة ولم ... أذنب ولو كثرت فى الأقاويل

ثم مدح الرسول بقوله :

ان الرسول لنور يستضاء به ... مهند من سيوف الله مسلول

فى عصبة من قريش قال قائلهم ... ببطن مكة لما أسلموا زولوا

زالوا فمازال أنكاس ولاكشف ... عند اللقاء ولاميل معازيل[119]

---

(116) البين : الفراق ـ متبول : هالك ـ مكبول : مكبل ومقيد

(117) الأغن : من الغُنَّة ، جمال فى الصوت ، غضيض الطرف : فاتر الجفن ، من علامات جمال العيون

(118) الآلة الحدباء : النعش

(119) انكاس : جمع نِكس وهو الضعيف ، والكشف : جمع اكشف وهو الذى لاترس معه والميل : جميع أميل وهو من لاسيف معه ، والمعازيل : جمع معزال وهو من لاسلاح معه

وحين قال كعب : إن الرسول لنور يستضاء به قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأصحابه : أن اسمعوا ، فمازال كعب ينشد حتى انتهى من انشاده ، فخلع عليه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بردته ، التى توارثها أبناؤه من بعده . حتى اشتراها معاوية من أحفاده بثلاثين ألف درهم ، وظل يتوارثهاالخلفاء من بعده ـ وحسن إسلام كعب وأبلى بلاء مشكورا فى الاسلام ، وامتدح الأنصار الذين آووا الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونصروه بقصيدة قال فيها :

من سره كرم الحياة فلايزل ... فى مقنب من صالحى الأنصار[١٢٠]

ورثوا المكارم كابرا عن كابر ... إن الخيار هم بنو الأخيار

شهرة قصيدة بانت سعاد

وقد بلغت شهرة قصيدة « بانت سعاد » مبلغا كبيرا ، وأصبحت نموذجا ـ كما قلنا ـ يحتذى فى المدح . وتولاها بالشرح والتحليل كثير من الأدباء لأن فيها ـ كما يقول الدكتور الحوفى ـ ملامح جديدة لم يكن الشعراء يمدحون بمثلها فى الجاهلية . كحديثه عن القرآن ، وعن هداية النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ للناس وتأييده من ربه ، وبذلك فقد فتح الباب لمن جاء بعده ليسير على نهجه .[١٢١] . وفى ذلك خدمة كبرى للإسلام .

هذا وقد تأثر كعب فى شعره بالإسلام فرقّ ولان ، ودخلته المعانى الدينية ، والحكم الرائعة ومن ذلك قوله :

---

(١٢٠) مقنب ـ بزنة منبر ـ الجماعة من الخيل

(١٢١) الاسلام فى شعر شوقى د . أحمد الحوفى

لو كنت أعجب من شيء لأعجبني سعى الفتى وهو مخبوء له القدر
يسعى الفتى لأمور ليس يدركها والنفس واحدة والهم منتشر
والمرء ماعاش ممدود له أمل لاينتهي العيش حتى ينتهي الأثر .

قال ابن الأثير :

ومما يستحسن له قوله :

مقالة السـوء إلى أهلهـا أسـرع من منحـدر سـائل
ومن دعـا النـاس الى ذمـه ذموه بالحـق وبالباطـل[١٢٢]

لقد كسب الاسلام إلى صَفِّه فرسان البيان ، كما كسب فرسان الميدان وكان فتح مكة خيرا وبركة ، فتح العيون على الحقيقة الناصعة التي أعشى نورها كثيرا من العيون فلم يبصروها على حقيقتها ولم يقدروها حق قدرها . .

ولم يتخلف عن رؤيتها إلا من غلبت عليه شقاوته فمات طريدا شريدا فريسة الحقد والكفر والكبر الكاذب الذي لم يغن عنه شيئا .

ومن هؤلاء الشعراء الذين غلبت عليهم شقاوتهم ـ هبيرة بنت أبي وهب المخزومي زوج أم هانيء بنت أبي طالب ـ شقيقة على وابنة عم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ . لقد عز على هبيرة أن يسلم ، وهرب الى نجران واتخذها مقاما ، ورفض أن يعود مع ابن الزبعرى حين عاد ، ولو عاد لأمن ولكن القدر له تصاريفه . . . . ولم يكتف بأن ظل على كفره ، ولكنه اغتاظ حين

---

(١٢٢) أسد الغابة لابن الأثير جـ ٤ ص ٤٧٧ ـ الشعر في موكب الدعوة ـ د . صادق عبدالحليم ص ١١٨

بلغه أن زوجته أم هانىء قد أسلمت فقال فى ذلك :

فإن كنتِ قد تابعت دين محمد وقطعت الأرحام منك حبالها

فكونى على أعلىٍ سحيق بهضبةٍ ململمة غبراء يبس بلالها(١٢٣)

ومات هبيرة بنجران كافرا .

وكان هبيرة قد قاتل يوم فتح مكة ، ولم يستطع الصمود ففر أمام خالد ، وفى ذلك يقول معتذرا عن فراره :

لعمرك ماوليت ظهرى محمدا وأصحابه جبنا ولاخيفة القتل

ولكننى قلبت أمرى فلم أجد لسيفى غناء إن ضربت ولانبلى

وقفت فلما خفت ضيقة موقفى رجعت لعود كالهزبر أبى الشبل

قال خلف الأحمر : أبيات هبيرة فى الاعتذار عن الفرار خير من قول الحارث بن هشام فى الاعتذار عن الفرار حين قال :

الله يعلم ماتركت قتالهم حتى علوا فرس بأشقر مزبد(١٢٤)

سرايا لهدم الأصنام

انتداب خالد لهدم العزى

بعد أن فرغ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من تطهير مكة من الأصنام الرابضة حولها وفوقها وأصدر أمره الى الناس جميعا أن يكسروا الأصنام التى فى بيوتهم . . تفرغ لإرسال البعثات لهدم الأصنام التى يحج إليها العرب فى خارج مكة .

---

(١٢٣) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٣٥

(١٢٤) أسد الغابة جـ ٧ ص ٤٠٤

فوجه خالد بن الوليد لهدم الْعُزَّى .

والعزى ـ بضم العين المهملة وتشديد الزاى المفتوحة تأنيث الأعز ـ وقيل اشتقوها من اسم الله ـ تعالى ـ العزيز . وفى هذا دلالة على إشراكهم بالله تعالى ـ وكانت العزى شجرة ـ فيما يقول بعضهم .

أو هى صنم وضعه سعد بن ظالم الغطفانى حين قدم مكة ، ورأى أهلها يطوفون بين الصفا والمروة ، فأخذ من كلٍّ حجرا ونقلهما إلى نخلة وسماها الصفا والمروة . . . . . . ثم أخذ ثلاثة أحجار فأسندها الى شجرة فقال : هذا ربكم فجعلوا يطوفون بين الحجرين ، ويعبدون الحجارة .

ونخلة هذه اسم موضع وهو على مسيرة ليلة من مكة .

وكان الذين يعبدون العزى هم قريش وجميع بنى كنانة . ولذلك قال أبو سفيان مفتخرا على المسلمين ومعتزا بجاهليته فى غزوة أحد : لنا العزى ولاعزى لكم .

ولكن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمر من يرد عليه بقوله : الله أعلى وأعز . . وكان سدنة العزى وحجابها بنى شيبان من بنى سليم ، وهم حلفاء بنى هاشم . كانت العزى ، من أعظم أصنام الجاهلية ، وقد أشار القرآن الكريم إلى مدى جهلهم حين قال :

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ ﴾ (١٢٥)

كانت اللات لثقيف ، والعزى لقريش وبنى كنانة ، ومناة لبنى هلال .

وكان اختيار خالد لهذه المهمة أمرا له دلالته فهو ذو بأس من ناحية ،

---

(١٢٥) النجم ١٩ ، ٢٠

وسدنة هذه الشيطانة من بنى سليم الذين قاتلوا مع خالد فى مواطن شتى من ناحية أخرى .

وتجرد خالد لهذه المهمة . وهى شاقة من الوجهة النفسية ـ كما يقول العقاد ولكنها سهلة من الوجهة الحربية . . وعلى أى حال فقد كانت اختبارا لعزيمته وعقيدته . .

كان العرب يهدون للعزى كما يهدون للكعبة . ويعظمونها كتعظيم الكعبة . ويطوفون وينحرون عندها . وكانوا يقولون : إن الرب يشتى عند اللات ويصيف عند العزى ـ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ـ

وخرج خالد لخمس بقين من رمضان سنة ثمان ، ووصل الى العزى ـ وكان معه ثلاثون فارسا .

وحين رأى سادن العزى خالدا ، وقد جاء لهدم العزى . قال ـ بعد أن علق سيفه فوقها :

فياعز شدى شدة لاسوى لها على خالد ألقى القناع وشمرى
فياعز إن لاتقتلى اليوم خالدا فبوئى بإثم عاجل وتنصرى

وهدم خالد العزى وسوى مكانها وكانت على ثلاث سمرات ، ثم رجع إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال له : هل رأيت شيئا ؟

قال خالد : لا

قال : فإنك لم تهدمها ـ أى لم تهدمها الهدم الأبدى الذى يزيل أثرها فارجع إليها فاهدمها .

فرجع خالد إليها ، وهو متغيظ ، فجرد سيفه وأقبل على هذه السمرات يجزها ويقطعها ، فخرجت إليه امرأة سوداء عريانة ثائرة الشعر ، تحثو

التراب على رأسها ووجهها ، وجعل السادن يقول لها : ياعزى خبليه . ياعزى غوريه ولاتموق برغم ـ يعنى مرغمة ـ فأهوى عليها خالد بالسيف وهو يقول :

ياعز كفرانك لاسبحانك إنى رأيت الله قد أهانك

ففلقها نصفين . وقيل : اقتلع السمرات التى فيها من جذورها بالفأس ، وقتل سادنها واسمه « دبية السلمى » وعاد خالد الى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يخبره بذلك فقال : نعم تلك العزى وقد يئست أن تعبد ببلادكم أبدا .

وقال للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « الحمد لله الذى أكرمنا بك وأنقذنا من الهلكة ، لقد كنت أرى أبى يأتى العزى بخير ماله من الابل والغنم فيذبحها للعزى ، ويقيم عندها ثلاثا ، ثم ينصرف إلينا مسرورا ونظرت الى مامات عليه أبى ، وكيف خدع حتى صار يذبح لما لايسمع ولايبصر ولايضر ولاينفع .

فقال عليه الصلاة والسلام :ـ إن هذا الأمر إلى الله ، فمن يَسَّرَه الله للهدى تيسر له ، ومن يَسَّره للضلالة كان فيها .

وهكذا بلغت العبرة إلى خالد قبل أن تبلغ منه إلى الناس[١٢٦] »

هدم سواع

وكما أصدر أمره إلى خالد بن الوليد بهدم العزى أمر عمرو بن العاص بهدم سُوَاع .

---

(١٢٦) عبقرية خالد للعقاد ص ١٠٣

قال ابن جرير الطبرى سمى هذا الصنم بسواع ـ لأنهم أطلقوا عليه اسم سواع بن شيث بن آدم ـ فإنه لما مات صوروا صورته وعظموها لموضعه من الدين ، ولما عهدوا فى دعائه من الإجابة ، وأولاده هم : يغوث ويعوق ونسر وقد ورد ذكر هؤلاء فى القرآن فى سياق التنديد بعبدة هذه الأصنام ، والتدليل على جهلهم حيث قال الله ـ تعالى :

﴿ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَـٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾ ﴾ (١٢٧)

وذكر القرطبى راوياً عن محمد بن كعب قصة عبادة هذه الأصنام فقال :

كان ود ، وسواع ، ويغوث ، ويعوق ، ونسر ـ من ولد آدم . .

وكانوا عُبَّاداً ، فمات واحد منهم فحزنوا عليه ، فصوروا مثله حتى إذا نظروا إلى الصورة ذكروه . فصوروه فى المسجد من صُفْر ورصاص .

ثم مات آخر ، فصوروه ، حتى ماتوا كلهم . . . . ومازال الناس

---

(١٢٧) نوح ٢٣ ، ٢٨

يعظمونهم حتى تركوا عبادة الله ـ تعالى ـ بعد حين ـ وعبدوا تلك الصور .

ووسوس لهم الشيطان وقال لهم :

هذه آلهتكم وآلهة آبائكم فعبدوها من دون الله ، حتى بعث الله نوحاً ، فقالوا « لا تذرن لاتذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً » . .

ونلاحظ هنا اختلافاً بين الرواة . . فهذه الرواية تقول إنهم من ولد آدم ـ والرواية السابقة تقول : إن سواع من ولد شيث ـ ولا اختلاف إذا نظرنا إلى أن ولد الولد هو ولد كذلك .

وقد شرف الإسلام عقول أبنائه من الاعتقاد الفاسد فى تلك الصور والتماثيل ، وحطم الأصنام وقضى على عبادتها . .

ومن هنا ندرك فضيلة هذا الدين الذى نؤمن به ونحمد الله الذى هدانا إليه ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله . . ومن خصائص هذه الأمة الاسلامية أن الله عصمها من الشرك الذى وقعت فيه الأمم السابقة

وقد أخبر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرض الإسلام . كما قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ مبشراً أمته : أنا لا أخاف عليكم أن تشركوا بعدى[١٢٨] .

وكان الصنم الذى يطلق عليه سواع لهذيل بساحل البحر .

روى عن ابن عباس أن الطوفان دفنه فأخرجه إبليس ، فعبد ، وصار لهذيل . وكان الناس يحجون إليه . وكان فى موضع على ثلاثة أميال من مكة .

---

(١٢٨) أخرجه البخارى فى باب الجنائز

وخرج عمرو بن العاص إلى مهمته هذه فى شهر رمضان بعد خروج خالد بن الوليد إلى العزى .

قال عمرو بن العاص : فانتهيت إليه وعنده سادنه ، فقال : ما تريد ؟

قلت : أمرنى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن أهدمه .

قال : لا تقدر على ذلك .

قلت : لِمَ ؟

قال : تُمنع .

فقلت : حتى الآن مازلت على الباطل . . . . ويحك ، وهل يسمع أو يبصر ؟

قال عمرو : فدنوت منه فكسرته ، وأمرت أصحابى فهدموا بيت خزائنه ، فلم نجد فيه شيئاً .

ثم قلت للسادن : كيف رأيت ؟

قال : أسلمت لله رب العالمين .

هدم مناة

وأرسل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ سعد بن زيد الأشهلى إلى مناة وبعضهم يقول « مناءة » .

وهى صنم لخزاعة ، وقيل للأوس والخزرج ومن دان بدينهم من أهل يثرب قبل الإسلام .

وقيل : كانت أيضاً لغسان .

وسبب تسميتها بذلك لكثرة ما يريقون عندها من دماء ـ يتقربون إليها بذلك .

وكانت بالمشلل ، وهو جبل على ساحل البحر يهبط منه إلى قديد .

قالت عائشة ـ رضى الله عنها ـ كانوا يهلون لمناة ، وكانت حذو قديد .

وليس صحيحاً أن اللات والعزى ومناة كانت أصناماً فى جوف الكعبة ، إذ لو كانت كذلك لهدمت فيما هدم من أصنام حول الكعبة ، إلا إذا كانت هناك أصنام سميت على اسمها ووضعت هناك . وبقى الأصل فى مكانه الذى سيَّر إليه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذه البعوث .

وتجرد سعد لمهمته . وخرج فى عشرين فارساً .

ولكن ابن الأثير يذكر أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ انتدب سعداً لهدم المنار الذى كان بالمشلل[129] .

وقد يكون المنار هو مناة ، وحدث تحريف أدى إلى إضافة الألف واللام ووضع الراء بدل التاء المربوطة . فلا شىء اسمه مناراً كان بالمشلل ولكن المعروف أن مناة هى التى كانت بالمشلل .

وعلى أى فقد توجه ـ سعد لهدم مناة ، فلقيه السادن فقال له : ماذا تريد ؟

قال : أريد هدم مناة .

فقال له السادن متحدياً : أنت وذاك .

كأنه يتهكم به ، ويسخر منه ويتحداه ظناً منه أنه لا يستطيع ذلك .

فأقبل سعد على هذا الصنم وأهوى فوقه بما يكسره به ، فخرجت إليه

---

(129) أسد الغابة جـ٢ ص ٣٥١

امرأة عريانة سوداء ثائرة الشعر ، تدعو بالويل وتضرب صدرها .

فقال السادن : مناة دونك بعض عصاتك .

فضربها سعد بن زيد فقتلها ، وأقبل إلى الصنم ومعه أصحابه فهدموه ولم يجدوا فى خزانته شيئاً .

وعادوا إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان ذلك لست بقين من رمضان . . . وهذا يدل على أن هذه السرية كانت قبل توجه خالد للعزى . ولكن الرواة قدموا الحديث عن سرية خالد للعزى ، وربما كان ذلك لأهمية أحداث العزى واهتمام القرشيين بشأنها .

هدم ذى الخُلصَة

ذكر بن كثير ما ورد فى البخارى من تخريب خثعم للبيت الذى كانت تعبده من دون الله ، وكانوا يسمونه « الكعبة اليمانية » مضاهاة للكعبة التى بمكة .

وكانوا يسمون الكعبة التى بمكة : « الكعبة الشامية » .

قال البخارى : ثنا يوسف بن موسى ، ثنا أبو أسامة عن إسماعيل بن أبى خالد عن قيس عن جرير قال : قال لى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ألا تريحنى من ذى الخلصة .

قلت : بلى فانطلقت فى خمسين ومائة فارس من أحمس ، وكانوا أصحاب خيل ، وكنت لا أثبت على الخيل ، فذكرت ذلك للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فضرب بيده على صدرى ، حتى رأيت أثر يده فى صدرى وقال : « اللهم ثبته واجعله هادياً مهدياً »

قال : فما وقعت عن فرسى بعد .

قال : وكان ذو الخلصة بيتا باليمن لخثعم وبجيلة ، فيه نُصُب تعبد وكان يقال له : الكعبة اليمانية .

فأتاها فحرقها بالنار وهدمها .

ولما قدم جرير إلى اليمن كان بها رجل يستقسم بالأزلام ، فقيل له : إن رسول رسول الله ﷺ هاهنا ، فإن قدر عليك ضرب عنقك .

قال : فبينما هو يضرب بها إذ وقف عليه جرير ، فقال له : لتكسرنها وتشهد أن لا إله إلا الله ، أو لأضربن عنقك .

فكسرها الرجل وشهد .

ثم بعث جرير رجلا من أحمس يكنى أبا أرطاة إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - يبشره بذلك . فلما أتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : يا رسول الله ، والذى بعثك بالحق ما جئت حتى تركتها كأنها جمل أجرب .

قال : فبارك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على خيل أحمس ورجالها خمس مرات(١٣٠) .

رواه مسلم أيضاً . وجرير .... هو جرير بن عبد الله البجلى .

هدم ذى الكفين

وكان هناك صنم من خشب له كفان أقامه حاكم دَوْس واسمه : عمر بن حُمَمَة - بضم الحاء وفتح الميمين بعدهما تاء مربوطة .

واختار النبى - صلى الله عليه وسلم - لهدمه رجلاً من دوس هو الطفيل

---

(١٣٠) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٤ ص ٣٧٥

ابن عمرو بن طريف الدوسى .

وكان الطفيل قد أسلم قديماً بمكة ورجع إلى بلاده يدعو قومه إلى الاسلام ، ثم عاد إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وشهد معه فتح مكة .

وكان الطفيل حين أسلم وذهب ليدعو قومه إلى الاسلام دعا له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يجعل الله معه آية ، فسطع له نور بين عينيه ، فقال الطفيل : أخاف يارب أن يقولوا مُثْلَة ـ فحول الله له النور إلى طرف سوطه ، فكان يضيء له فى الليلة المظلمة .

وحين بَعَث النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الطفيل لهدم ذى الكفين ، كان فى طريقه لغزو الطائف ، فقال له : اهدم الصنم ووافنى سريعاً بقومك بالطائف . فخرج الطفيل سريعاً ، وأشعل النار فى الصنم ، وجعل يلقى النار فى وجهه ويقول :

يا ذا الكفين لست من عُبَّادكا ... ميلادنا أقدم من ميلادكا

إنى حشوت النار فى فؤادكا

ومعنى حشوت : ألقيت . .

وقد صدق الطفيل فى قوله : إذ كيف يعبد هؤلاء صنماً صنعوه بأيديهم ، ووجودهم أقدم من وجوده ؟

ولو استعمل الكفار عقولهم بمثل ما استعمله الطفيل لاهتدوا إلى الحق ، لأن عامة هذه الأصنام التى كانت منصوبة فى كل مكان قد صنعها الناس بأيديهم من مواد مختلفة ، بعضها من حجارة ، وبعضها من خشب ، وبعضها من نحاس . . . . . بل الأعجب من ذلك أن بنى حنيفة كان لهم إله من عجوة أو من حَيْس ، يسجدون له ، فإذا جاعوا أكلوه ، وفى ذلك يقول

بعض الشعراء متهكماً منهم :

أكلـــت حنيفـــة ربهـــا عـــام التقحـــم والمجـــاعـة

لم يحـــذروا من ربهـــم ســـوء العواقـــب والتباعـــة . .

وعاد الطفيل بعد نجاح مهمته إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعه أربعمائة من قومه ، بعد مقدم النبى ـ ﷺ ـ الطائف بأربعة أيام .

ويقال : إنه عاد ومعه دبابة(١٣١) ومنجنيق ، وهما آلتان من آلات الحرب ، والدبابة بالطبع آلة بدائية ، لا كتلك الآلات التى تطورت فيها بعد وأصبحت على ما هى عليه الآن . . والمنجنيق هو الذى تطور إلى القذائف الصاروخية المختلفة فيما بعد .

وقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لهؤلاء القادمين : يا معشر الأزد من يحمل رايتكم ؟

فقال الطفيل : من كان يحملها فى الجاهلية ـ النعمان بن الرازية اللهبى .

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أصبتم .

وبذلك تطهرت الجزيرة العربية من الأصنام ، ولم يبق إلا اللات صنم ثقيف ، وسوف يقوض بعد قليل بأيدى الثقفيين أنفسهم حين يعلنون إسلامهم .

---

(١٣١) الدبابة : آلة يدخل فيها الرجال فيدبون فيها لنقب الأسوار

مانزل فى فتح مكة من قرآن

أخرج عبد الرازق فى مصنفه عن معمر عن الزهرى قال : لما دخل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مكة عام الفتح بعث خالد بن الوليد ، فقاتل بمن معه صفوف قريش بأسفل مكة حتى هزمهم الله ، ثم أمر بالسلام فرفع عنهم فدخلوا فى دين الله ، فأنزل الله - تعالى -

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾ (١٣٢)

وروى مسلم عن عائشة قالت : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يكثر من قول : « سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله وأتوب إليه » . قالت : فقلت له : يارسول الله ، أراك تكثر من قول : « سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله وأتوب إليه » ؟

فقال : خبرنى ربى أنى سأرى علامة فى أمتى فإذا رأيتها أكثرت من قول سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله وأتوب إليه - فقد رأيتها : « إذا جاء نصر الله والفتح » - فتح مكة - . . ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا . فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا »

---

(١٣٢) أسباب النزول للسيوطى جـ ٤ ص ١٨٥

وليس من شك فى أن النصر والفتح إنما هو نصر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على قريش وفتح مكة .

والنصر فى اللغة معناه العون مأخوذ من قولهم : قد نصر الغيث الأرض إذا أعان على نباتها .

وللمفسرين أقوال متعددة حول مضمون السورة . . . . ذكر القرطبى ـ فيها ذكر من ذلك .

قال : قال العرب لما فتحت مكة : أمَا إذا ظفر محمد بأهل الحرم وقد كان الله أجارهم من الفيل فليس لكم به يدان ـ أى طاقة ـ فكانوا يسلمون أفواجا ، أمة أمة . فهذا المعنى بالناس .

وذكر أيضا أن الناس هنا إشارة الى أهل اليمن ، فقد جاء بعد الفتح منهم سبعمائه إنسان مؤمنين طائعين ، بعضهم يؤذنون ، وبعضهم يقرءون القرآن ، وبعضهم يهللون ، فسُرَّ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبكى عمر وابن عباس .

وروى عكرمة عن ابن عباس أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قرأ : « إذا جاء نصر الله والفتح » وجاء أهل اليمن رقيقة أفئدتهم ، لينة طباعهم ، سخية قلوبهم ، عظيمة خشيتهم ، فدخلوا فى دين الله أفواجا .
وفى أهل اليمن وردت أحاديث تشيد بهم .

ذكر مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « أتاكم أهل اليمن هم أضعف قلوبا وأرق أفئدة ، الفقه

يمان ، والحكمة يمانية »

أما بكاء عمر وابن عباس فلفهمهما أن ذلك يعنى قرب أجل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وان هذه السورة لتدعو إلى التسبيح وكثرته ، والمقصود به الصلاة ، وإلى كثرة حمد الله على نعمه ، والنعمة هنا النصر والفتح ، وإلى كثرة الاستغفار ، ولذلك قالت عائشة ـ رضى الله عنها ـ : ما صلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ صلاة بعد أن نزلت عليه سورة « إذا جاء نصر الله والفتح » إلا يقول : سبحانك ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لى .

وقال أبو هريرة : اجتهد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى العبادة بعد نزول هذه السورة حتى تورمت قدماه ونحل جسمه وقل تبسمه وكثر بكاؤه .

وقال عكرمة : لم يكن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قط أشد اجتهادا فى أمور الآخرة ماكان منه عند نزولها .

ولسائل أن يسأل : أى ذنب يستغفر منه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد غفر الله له ذنبه ما تقدم وما تأخر ـ على أنه لم يذنب ؟

والإجابة على ذلك أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يقول فى دعائه : « رب اغفر لى خطيئتى وجهلى ، وإسرافى فى أمرى كله ، وما أنت أعلم به منى ، اللهم اغفر لى خطئى وعمدى ، وجهلى وهزلى ، وكل ذلك عندى ، اللهم اغفر لى ماقدمت وما أخرت ، وما أعلنت وما أسررت ، أنت المقدم وأنت المؤخر ، إنك على كل شىء قدير »

إنه سيد المتواضعين ، وهو أقرب الناس إلى الله وأخوفهم منه ، وكلما

اقترب العبد من ربه ازداد خوفه منه حتى قالوا إن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، فكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يخشى التقصير لعظم ما أنعم الله به عليه ، ويرى قصوره عن القيام بحق ذلك ذنوبا .

وقيل : الاستغفار بالنسبة للرسول تعبد يجب القيام به . .

وقيل : ذلك تنبيه لأمته لكيلا يأمنوا ويتركوا الاستغفار ، وقيل المعنى : استغفره لأمتك . .[١٣٣]

وقال الإمام محمد عبده فى تفسير هذه السورة :

كأن الله يقول : إذا حصل الفتح وتحقق النصر ، وأقبل الناس على الدين الحق فقد ارتفع الخوف ، وزال موجب الحزن ، فلم يبق الا التسبيح وشكر الله والنزوع إليه عما كان من خواطر النفس ، فلن تعود الشدة تأخذ نفوس المخلصين ماداموا على تلك الكثرة من الإخلاص .

ومن هذا أخذ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن الأمر قد تم ولم يبق له إلا أن يسير إلى ربه ، فقال ـ فيما يروى عنه : إنه قد نعيت إليه نفسه . والله أعلم[١٣٤]

● ومن الآيات التى قال بعض العلماء إنها نزلت فى شأن الفتح قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[١٣٥]

---

(١٣٣) راجع تفسير القرطبى جـ ٢٠ ص ٢٣١

(١٣٤) تفسير جزء عم للامام محمد عبده ص ١٧٤

(١٣٥) السجدة ٢٨ : ٣٠

فقد قال الفراء والقتبى فيما يرويه القرطبى : يعنى فتح مكة . . .
ولقد كان المسلمون يهددون الكفار بالفتح فاستبطأوه ، وقالوا : متى هو ؟

ويقول ابن كثير معقبا على ذلك .
ومن زعم أن المراد من هذا الفتح فتح مكة فقد أبعد النجعة وأخطأ فأفحش .

فإن يوم الفتح قد قَبِلَ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيه إسلام الطلقاء ، وكانوا قريبا من ألفين ، ولو كان المراد فتح مكة لما قبل إسلامهم ، لقوله ـ تعالى ـ

« قل يوم الفتح لاينفع الذين كفروا إيمانهم ولاهم ينظرون »
وإنما المراد هو يوم القضاء والفصل كقوله ـ تعالى ـ

﴿ فَٱفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [١٣٦]

وهذا تفسير صحيح يلتقى مع ماذكر فى أسباب النزول ،[١٣٧] ،
فقد أخرج ابن جرير عن قتادة ، قال الصحابة : إن لنا يوما يوشك أن نستريح فيه وننعم ، فقال المشركون : متى هذا الفتح إن كنتم صادقين ؟
فنزلت : « ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين . قل يوم الفتح لاينفع الذين كفروا إيمانهم ولاهم ينظرون . فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون »

---

(١٣٦) الشعراء ١١٨
(١٣٧) أسباب النزول للسيوطى ص ١٣٦

ولكن الزمخشري يرد على هذا الإيراد فيقول فى تفسيره :

فإن قلت : فمن فسر الفتح بفتح مكة أو بيوم بدر كيف يستقيم على تفسيره أن لاينفعهم الإيمان ، وقد نفع الطلقاء يوم مكة ، وناسا يوم بدر ؟

قلت : المراد أن المقتولين منهم لاينفعهم إيمانهم فى حالة القتل ، كما لا ينفع فرعون إيمانه عندما أدركه الفرق[١٣٨]

● ولم تخل سورة الفتح التى نزلت عقب الانصراف من الحديبية من إشارات إلى فتح مكة ، مثل قوله ـ تعالى ـ

﴿لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾[١٣٩]

وقد ذكر بعض المفسرين أن الفتح القريب هو فتح مكة ، ولكن جمهور المفسرين كما سبق أن ذكرنا يرى أن المقصود به فتح خيبر .

والآيتان تؤكدان نصر الله لرسوله ، وتبشيره بظهور دينه ، وقد تم ذلك فعلا بفتح مكة ، فقد نكست على أثر هذا الفتح الأصنام ، وذهبت الى غير رجعة دولة الشرك وعبادة الأوثان ، ودان هؤلاء القوم الذين طالما حاربوا الاسلام ودخلوا فى دين الله وساروا تحت رايته مجاهدين فاتحين ، بعد أن

---

(١٣٨) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل للزمخشري جـ٣ ص ٥١٧

(١٣٩) الفتح ٢٧ : ٢٨

أدركوا أنهم كانوا فى وقوفهم ضد هذه الدعوة مبطلين واهمين .. وحق لصاحب الهمزية أن يقول :

واستجابت له بنصر وفتح   بعد ذاك الخضراء والغبراء



دروس من فتح مكة

ولنا أن نتأمل فى هذه الغزوة التى أتم الله بها نعمته على نبيه - صلى الله عليه وسلم - وأقرّ بها عينه فى أهله وعشيرته ، فنجدها غاصة بالعبر والعظات والدروس .. ويمكن تلخيص ذلك فى نقاط نذكرها فيما يأتى :

١ - اعتمد نجاح الغزوة فى المقام الأول على عنصر المباغتة ، فقد حرص النبى - صلى الله عليه وسلم - على كتمان خبرها وعدم تسرب أمرها إلى قريش ، وقد رأينا كيف أعانه الوحى على ذلك ، حين أطلعه على ما همَّ به حاطب بن أبى بلتعة ، وبذلك أصبح تحرك الجيش سراً لم يصل نبؤه إلى قريش حتى فوجئت برؤية النيران الكثيرة المشتعلة تحيط بها من جميع جوانبها ..

ولقد ظهرت براعة النبى - صلى الله عليه وسلم - واضحة فى إبقاء هذا السر مكتوماً عن قريش ، متخذاً الأسباب الكفيلة بذلك ، مع أنه من العسير أن تبقى تحركات عشرة آلاف جندى أو يزيد - سراً مطوياً لفترة طويلة من الوقت .

٢ - استطاع النبى - صلى الله عليه وسلم - جمع المعلومات الكافية الكاملة عن عدوه فحين جاءه وفد خزاعة يخبره أن قريشاً نقضت عهدها معهم استفسر النبى منهم عن كل ما يمكن عن قريش ، فى الوقت الذى كانت فيه أنباء المسلمين مطوية عن قريش . ولم ينجح أبو سفيان - فى مهمته حين ذهب إلى المدينة - فى تحقيق أى هدف أو التقاط أى خبر .

٣ ـ كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعيد النظر جداً يحسب لكل أمر حسابه ، ولا يترك الأمور تجرى دون تخطيط دقيق ـ هذا مع قوة إيمانه ويقينه وتوكله على الله حق التوكل ، ولكن مع العمل على اتخاذ الأسباب المادية التى يمكن اتخاذها لتحقيق الهدف المطلوب .

ومن الأمثلة على ذلك أنه حينما قبض على أبى سفيان وأعلن أبو سفيان إسلامه ، لم يتركه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ينصرف ، بل أمر ببقائه فى مدخل الجبل إلى مكة ليرى جنود المسلمين تمر أمامه ، ويرى مدى قوتها وكفاءتها وعظمها ، ولتتمكن هذه القوات من تطويق مكة من جميع جهاتها ، قبل أن يذهب أبو سفيان إلى قومه .

وذلك حتى يعرف أبو سفيان قوة المسلمين ، وينقل الصورة كاملة إلى قومه فيثبط عزمهم ويوهن قوتهم .

لقد رأى أبو سفيان ما قضى على روحه المعنوية ، وكان هو نفسه المثبط لقريش عن أن تقاوم حتى همت به زوجته ، وقالت لقومها : اقتلوا هذا الرجل .

٤ ـ ولقد كان تنظيم الجيش رائعاً على الرغم من كثرته واجتماعه من قبائل متعددة ، وكان الفضل فى تنظيمه بهذه الصورة الفريدة يرجع إلى مهابة القائد الأعلى ومنزلته فى نفوس جنده ، وإلى قوة العقيدة التى تحتل مكانها فى قلوب هؤلاء الجنود .

٥ ـ أما معنويات الجنود فقد كانت عالية جداً ، وهم يدخلون هذا البلد المقدس الذى له فى نفوسهم أعظم مكانة ، وإليه يتوجهون فى صلواتهم إلى

الله . . . . . وعلى النقيض من معنويات المسلمين كانت معنويات أعدائهم . لقد أسقط فى أيديهم حين رأوا ذلك الجيش الزاحف تدوى حناجره بكلمة التكبير التى تزلزل من وقعها الجبال . . فماذا يصنعون هم : أمام كلمة ـ الله أكبر ؟

وإذا كان المسلمون يقاتلون من أجل هدف أسمى هو رفع كلمة الله فمن أجل أى هدف يقاتل هؤلاء المشركون ؟

أيقاتلون من أجل إعلاء صنم لا يضر ولا ينفع ولا يبصر ولا يسمع ؟ ما أحقر هذا الهدف . .

قال عز وجل مبيناً الفرق بين هدف القتال عند المسلمين وعند الكافرين :

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾ (١٤٠)

وقد مرت بنا قصة حماس الذى كان يقول لامرأته : إنى أريد أن آخذ بعض المسلمين وأجعلهم خدماً لك ، فلما عاد منهزماً وأمر زوجته أن تغلق الباب دونه ، قالت له : أين ما كنت تقول ؟ فقال لها :

إنك لو رأيت يوم الخندمة إذ فر صفوان وفر عكرمة

لم تنطقى باللوم أدنى كلمة

---

(١٤٠) النساء ٧٦

لقد قالت له امرأته قبل المعركة : والله ما أرى أنه يقوم لمحمد وأصحابه شيء ، وصدقت فى قولها . .

ولقد كانت عمرة القضاء التى سبقت الفتح بعام ، هى المقدمة الكبرى لفتح مكة . .

لقد فتحت هذه العمرة مكة معنوياً ، ثم جاء الجنود بعد ذلك بعام فأكدوا هذا الفتح المعنوى بالفتح العسكرى . .

٦ ـ ولم يكن الهدف من فتح مكة المغانم ، فالإسلام لا يحارب فى سبيل هذا الهدف ، بدليل أنه لم تكن هناك مغانم فى هذا الفتح على الرغم من أن كثيراً من العلماء يقولون : إن مكة فتحت عنوة لا صلحاً ، وان هناك قتالاً جرى بالفعل فيها . . ولكن لم تكن هناك غنائم على الاطلاق . فقد نهى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن ذلك ، وأقر الناس فى بيوتهم وأملاكهم .

كما أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان حريصاً على عدم إراقة الدماء فى مكة وبذل فى سبيل ذلك جهوداً كثيرة . وحين علم أن خالداً يقاتل قال : ألم أنه عن القتال ؟ فقيل له : إن خالداً قوتل فقاتل . فقال : قضاء الله .

وحين استولى على مكة قال لأهلها : اذهبوا فأنتم الطلقاء . .

أما إهدار دم البعض فكان لأسباب تستوجب ذلك . وقد أشرنا إليها ، ومع ذلك فقد عفا عن أكثر من أهدر دمهم . .

٧ ـ كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قمة فى التواضع عندما دخل

مكة . وهذا التواضع زاده رفعة فى أعين الناس وإكباراً فى قلوب ألد أعدائه وصدق هو إذ يقول : من تواضع لله رفعه . .

أما وفاؤه فهو مضرب الأمثال ، فعندما تحدث الأنصار فى نفوسهم أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ربما آثر البقاء بمكة بعد فتحها . قال لهم مكاشفة : المحيا محياكم والممات مماتكم . وحين ظن عثمان بن أبى طلحة أن مفتاح الكعبة ربّما لا يعود إليه ، سلمه له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يقول : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها » .

٨ ـ أما عقيدة المسلمين فهى جديرة بالإعجاب والتقدير ، وهم يقاتلون بها وفى سبيلها . ولا خير فى جندى يقاتل بدون عقيدة ، ولكن عقائد المقاتلين تختلف . فكلما سمت العقيدة سما الهدف معها . . وشتان بين عقيدة تفرض على الانسان الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر ، وعقيدة تملى على صاحبها الخضوع لصنم ، أو الانتماء لقبيلة أو التعطش للدم واقتناص المغانم . .

لقدّ هانت الدنيا فى نظر المسلمين ، لأن أمامهم جنة عرضها السموات والأرض يعملون من أجلها ويحرصون على الفوز بها .

وكان حبهم لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ معنى قائماً فى نفوسهم تتشربه أرواحهم . . . . . ومن منطلق هذا الحب قال عمر للعباس ـ رضى الله عنه ـ : لإسلامك يوم أسلمت أحب إلىَّ من إسلام الخطاب لو أسلم ، لأن إسلامك أحب إلى رسول الله من إسلام الخطاب .

حقاً إن عقيدة المسلمين لا تخضع للمصلحة الشخصية ولكنها تخضع للمصلحة العامة وحدها[141] .

٩ ـ فى مبايعة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ للنساء دليل على اشتراك المرأة مع الرجل فى جميع المسئوليات التى ينبغى أن ينهض بها المسلم ، ومن هنا فإنه يجب أخذ العهد على النساء بالعمل فى إقامة المجتمع الاسلامى ونهوضه بكل الوسائل المشروعة الممكنة ، فعليها أن تتعلم شئون دينها وأن تسلك السبل المشروعة الممكنة إلى التسلح بسلاح العلم والوعى ، والتنبه الى مكان الكيد وأساليبه لدى أعداء الإسلام الذين يتربصون به .



---

(١٤١) رجعنا فى هذه الدروس إلى كتاب النبى القائد للواء الركن محمود شيت خطاب بتصرف

غزوة حنين

- سبب الغزوة
- استعداد المسلمين
- سير المعركة
- اضطراب جيش المسلمين وتراجعه
- ثبات النبي - صلى الله عليه وسلم -
- الهجوم المضاد للمسلمين
- لماذا تغير سير المعركة لصالح المسلمين
- جند الله
- الذين ثبتوا مع الرسول
- صور رائعة من البطولة
- من قتل قتيلاً فله سلبه

أين حنين ؟ ومن يسكنها ؟

جاء في دائرة المعارف الإسلامية :

حُنَيْن : ـ لعلها الشرائع فى الوقت الحالى ـ يعنى منطقة الشرائع القريبة من مكة .

وهى وادٍ غير منتظم به أحراج من شجر النخيل ، وهو على مسيرة يوم من مكة ، على طريق من الطرق الممتدة إلى الطائف .

ويدخل الطريق بعد أن يغادر واحة حنين الضيقة فى ثنيات متعرجة صالحة لأن تكون مكامن ومخابىء[١٤٢] .

وهى بالتصغير وادٍ بين مكة والطائف . قرب « ذى المجاز » التى كانت سوقا مشهورة عند العرب على مسافة فرسخ من عرفة .

وقال بعضهم : بل هو ماء بينه وبين مكة ثلاث ليال قرب الطائف ، وفى تعليل تسميته بذلك .

يقول الزرقانى : سمى باسم حُنَين بن قاين بن مهلاييل . . وفى هذا المكان كانت تقيم « هَوازِن » ـ بفتح الهاء وكسر الزاى ، وهى قبيلة كبيرة من قبائل العرب فيها عدة بطون ، ينسبون الى هَوازن بن منصور بن عكرمة بن خَصْفَة بن قيس عَيْلان بن إلياس بن مُضَر .

---

(١٤٢) دائرة المعارف الاسلامية مادة « حنين »

سبب الغــــزوة

روى الواقدى عن أبي الزناد أن هوازن أقامت سنة تجمع الجموع ، وينتقل رؤساؤهم فى العرب . يحاولون تجميعهم لحرب النبى صلى الله عليه وسلم ـ

ومعنى ذلك أن استعداد هوازن بدأ مبكرا جدا قبل فتح مكة ، وانه كان أمرا مسبقا سواء فتحت مكة أم لا . . إلا أن فتح مكة بالنسبة لهم كان فرصة زادت من خوفهم فأسرعوا فى جمع الجموع وحشد القبائل . ولكن أغلب المؤرخين يقولون : إن هوزان وثقيف تحركوا لغزو النبى صلى الله عليه وسلم ـ بعد فتح مكة لا قبلها .

قال القسطلانى : إن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما فرغ من فتح مكة وتمهيدها وأسلم عامة أهلها ، مشت أشراف هوازن وثقيف بعضهم الى بعض ، وحشدوا جموعهم ، وقصدوا محاربة المسلمين . لأنهم أشفقوا أن يغزوهم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقالوا : قد فرغ لنا ، فلا ناهية له دوننا ، والرأى أن نغزوه . وقالوا : والله إن محمدا لاقى قوما لايحسنون القتال ، فأجمعوا أمركم وسيروا إليه قبل أن يسير إليكم .

واستنفروا القبائل فاستجاب لهم من أقربائهم عدد كبير منهم ـ بنو سعد بن بكر الذين تربى بينهم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو رضيع .

وهكذا اجتمعت هوازن وثقيف وجشم وبكر وناس من بنى هلال . . .

وتولى قيادة الجميع مالك بن عوف ، وكان فتىً جريئا فى نحو الثلاثين من عمره يملؤه الغرور ويجمع الى غطرسة الإمارة وحمية الفروسية ـ حدة

الشباب ولدد الخصومة والعناد .

وأراد أن يثير فى قومه نخوة الدفاع عن العرض والمال ، فساق أموالهم ونساءهم وأبناءهم ، وأمرهم إذا رأوا المسلمين أن يكسروا جفون سيوفهم ، ثم يشدوا عليهم شدة رجل واحد ، فإما فوز وإما فناء .

كانت عدة هذا الجيش ثمانية آلاف - أربعة آلاف من هوازن وثقيف والباقى من غيرهم . وقيل : أكثر من ذلك .

ويقال : إن ثقيفا كان يقودها كنانة بن عبد . .

ونزل هذا الجمع الكثيف واديا اسمه « أوطاس » وفيه دارت المعركة ولذلك تسمى غزوة « أوطاس » أيضا .

ونما علم هذا التحرك إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فأرسل عبدالله بن أبى حدرد الأسلمى عينا يستخبر له أمر القوم - فعاد وقد أخبره خبرهم وما شاهده منهم - وسنقص قصة استخباره بعد .

استعداد المسلمين

وعزم النبى - صلى الله عليه وسلم - على لقاء هؤلاء القوم المتحفزين ، إذ لابد من ذلك . وإلا أجهضت عملية فتح مكة .

إن هؤلاء الذين أسلموا يوم الفتح لم تطمئن قلوبهم بعد بالإسلام ، ولئن لم يروا مايثبتهم فى أمر دينهم لربما عادوا سراعا إلى الكفر . . .

ولذلك أذن النبى - صلى الله عليه وسلم - بالجهاد . . . . . وسرعان ماتهيأ الجيش الذى فتح مكة وعدده عشرة آلاف جندى ، وانضم إليهم ألفان ممن أسلموا من أهل مكة ممن يسمون الطلقاء . . .

وأراد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يكمل عُدَّة جيشه فاستعار من صفوان بن أمية ـ وكان مازال على شركه ـ مائة درع .

قال له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ياأبا أمية أعرنا سلاحك .

فقال صفوان : أغصباً يامحمد ؟

قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : بل عارية مضمونة حتى نردها إليك .

كما استعار من نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ثلاثة آلاف رمح ، وقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ له : كأنى أنظر الى رماحك هذه تقصف ظهر المشركين .

واستسلف من ربيعة المخزومى ثلاثين ألفا أو أربعين ألفا ، فلما قدم قضاها له . . ثم قال له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : بارك الله لك فى أهلك ومالك إنما جزاء السلف الوفاء والحمد[١٤٣] .

واستخلف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على مكة عَتَّاب بن أسيد وكان فى نحو العشرين من عمره ، وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد رأى فى نومه أنه ولَّى مكة أباه : أسيد بن أبى العيص بن أمية ، ولكنه كان قد مات كافرا . فتحققت الرؤيا فى ولده . . وترك معه معاذ بن جبل يعلم الناس الفقه والدين .

خـــروج الجيش الإسلامـــى

وخرج الجيش الإسلامى بقيادة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفيه ثمانون

---

(١٤٣) قال القرطبى : أخرجه ابن ماجه فى السنن

من المشركين الذين لم يسلموا بعد ، كصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو . وفيه كثير من الأعراب من بنى سليم وبنى كلاب وعبس وذبيان . بالإضافة الى الطلقاء من أهل مكة .

اثنا عشر ألفا يزحفون ، لايدرى أولهم آخرهم ، واهتزت أعطاف بعض المسلمين إعجابا وزهوا بما رأوه من هذه الكثرة الزاحفة ، حتى قال بعضهم : لن نغلب اليوم من قلة . ولم تعجب هذه الكلمة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأنها تدل على اعتمادهم على كثرتهم أكثر من اعتمادهم على الله .

كان بدء الخروج من مكة يوم السبت السادس من شوال سنة ثمان ، ووصل إلى حنين ليلة الثلاثاء لعشر خلون منه .

وفى الطريق وجد بعض جهال الأعراب المصاحبين للجيش الإسلامى شجرة خضراء . وكان للعرب فى الجاهلية شجرة معروفة يسمونها : « ذات أنواط » . يأتونها كل سنة فيعلقون عليها أسلحتهم ، ويذبحون عندها ، ويعكفون عليها يوما . فلما رأى هؤلاء الأعراب تلك الشجرة الخضراء قالوا للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : يارسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط .

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ « الله أكبر » قلتم والذى نفسى بيده كما قال قوم موسى : اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون . . . . . لتركبن سنن من قبلكم حَذْوَ القُذَّة بالقُذَّة حتى إنهم لو دخلوا جحرضب لدخلتموه »[١٤٤] .

---

(١٤٤) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٩٧

قال ذلك لهؤلاء الأعراب الذين لم يعرفوا قيمة الإسلام بعد ، ولم يذوقوا حلاوة الإيمان . أما الذين اطمأنت قلوبهم الى الدين وأدركوا لغة اليقين فلا ينحرفون ولا يبدلون .

سير المعركة

كان على رأس جيش المشركين كما قلنا مالك بن عوف . وفى جيشه ناس من زعماء القبائل ، وكان فيهم من بنى جشم ـ دُرَيْد بن الصمة ، وكان شيخا كبيرا قد فنى ، ولكنه كانت له فى شبابه مواقع مشهورة ، وأخبار مشكورة ، وله تجاربه الرائعة التى صاغها حكما وأمثالا ووصايا وأشعارا حفظها التاريخ ومازالت تروى .

ولم يكن أخذهم له إلا التيمن به والاسترشاد برأيه ومعرفته بالحرب . . ولكن مالك بن عوف المفتون بنفسه أبى أن يستمع الى نصح أحد أو يأخذ برأى كبير أو حكيم .

وحين نزل مالك بالناس فى أوطاس ومعهم أموالهم ونساؤهم وأبناؤهم ـ وجاء بنو جشم بشيخهم دريد بن الصمة فى شجار له يُقَادُبه[١٤٥] .

فلما نزلوا قال : بأى واد أنتم ؟

قالوا : بأوطاس .

قال : نعم مجال الخيل ، لاحَزْنٌ ضرِس ، ولاسهل دهِس[١٤٦] . مالى

---

(١٤٥) الشجار ـ بزنة كتاب ـ محمل يشبه الهودج إلا أنه مكشوف من أعلاه

(١٤٦) الحزن : المرتفع الغليظ من الأرض ، والضرس : الذى فيه حجارة محددة ، والدهس : اللين

أسمع رُغاء الإبل ونهاق الحمير ، وبكاء الصغير ، ويُعار الشاء ؟؟[١٤٧] .

قالوا : ساق مالك بن عوف مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم ؟

قال : أين مالك ؟

قالوا : هذا مالك ، ودُعى له .

فقال : يامالك ، إنك أصبحت رئيس قومك ، وإن هذا يوم كائن له مابعده من الأيام ، مَالِي أسمع رغاء الإبل ونهيق الحمير ، وبكاء الصغير ؟

قال : سُقت مع الناس أبناءهم ونساءهم وأموالهم .

قال دُرَيْد : ولم ؟

قال مالك : أرت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم . فصاح به دريد ، وزجره كما تزجر الدابة . . ثم قال : راعى ضأن والله ، وهل يَرُدُّ المنهزم شيء ؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك فُضِحتَ فى أهلك ومالك .

ثم قال : مافعلت كعب وكلاب ؟

قالوا : لم يشهدها منهم أحد .

قال : غاب الحدُّ[١٤٨] والجِد ، ولو كان يوم علاء ورفعة لم تغب عنه كعب ولا كلاب ، ولوددت أنكم فعلتم مافعلت كعب وكلاب . . . . فمن شهدها منكم ؟

---

(١٤٧) يعار الشاء : صوتها

(١٤٨) الحد : يعنى الشجاعة والحدة

قالوا : شهدها عمرو بن عامر ، وعوف بن عامر .

قال : ذانك الجذعان من عامر لاينفعان ولايضران[149] .

ثم التفت إلى مالك يقول له : يامالك إنك لم تصنع بتقديم البيضة ـ بيضة هوازن[150] الى نحور الخيل شيئا ، ارفعهم إلى متمنع بلادهم ، وعُلْيا قومهم ، ثم الق الصُّبأ[151] على متون الخيل ، فإن كانت لك لحق بك من وراءك ، وإن كانت عليك ألفاك ذلك وقد أحرزت مالك وأهلك .

قال مالك فى عنجهية واستعلاء : لا ـ والله لاأفعل ذلك ، إنك قد كبرت وكبر عقلك ، والله لتطيعُنّى يامعشر هوازن ، أو لأتكئن على هذا السيف حتى يخرج من ظهرى .

وكان هذا القول من مالك دليل حمقه ، لأنه استصغر رأى المجربين قبله ، ثم إنه هدد بالانتحار إن لم يطعه الناس ، وهل فى عقل مأفون يهدد بالانتحار غناء فى وقت الشدة ؟

لقد كره أن يكون لدريد بن الصمة فى هذه الموقعة ذكر أو رأى .

وقال الناس ـ لما سبق عليهم من قضاء الله ولما قضى به عليهم حظهم العاثر ـ : قد أطعناك .

---

(١٤٩) الجذعان : مثنى جَذَع ـ بفتحتين ـ ماقبل الثنىّ وهو فى ولد الشاة ماق سن الثانية ، وفى ولد البقرة ماق سن الثالثة ، وفى الابل ماق سن الخامسة ، ويجمع على أجذاع ـ ويكنى دريد بذلك عن صغر سنهما وضعفهما

(١٥٠) البيضة : جماعة الناس وأصلهم (١٥١) الصُّبَّاء : جمع صابىء ويعنى بهم المسلمين

فقال دريد بن الصمة : هذا يوم لم أشهده ، ولم يفتني . ثم أنشأ :

يالتني فيها جَذَعْ أخب فيها وأضعْ[١٥٢]
أقود وطْفَاءَ الزمع كأنها شاةٌ صَدَعْ[١٥٣]

مالك يستخبر عن جيش المسلمين

وأرسل مالك بن عوف ثلاثة نفر من هوازن يأتونه بخبر جيش المسلمين فعادوا إليه وقد ارتعدت أوصالهم من الخوف .

فقال لهم : مالكم ، ويلكم ؟

فقالوا : رأينا رجالا بيضا على خيل بلق ، فوالله ماتماسكنا أن أصابنا ماترى ، والله مانقاتل أهل الأرض ، إن نقاتل إلا أهل السماء ، وإن أطعت رجعت بقومك ، فإن الناس إن رأوا مثل الذى رأينا أصابهم ماأصابنا .

فقال مالك ـ وما زال سادرا فى غيِّه ـ : أف لكم ، بل أنتم أجبن أهل العسكر . ثم أمر بحبسهم عنده خوفا من أن يشيع ذلك الرعب فى العسكر ، وقال : دلونى على رجل شجاع ، فأجمعوا له على رجل ، فبعثه أيضا ليستخبر ، فعاد وقد أصابه نحو ما أصاب مَنْ قبله . .

فلم يثن مالكا ذلك عن وجهه وعزمه

---

(١٥٢) الجذع : يقصد الشاب الفتى ـ وأخب من الخبب ـ وأضع من الوضع : نوعان من السير

(١٥٣) الوطفاء : الطويلة الشعر ، والزَّمَع : الشعر الذى فوق مربط قيد الدابة ، والصَّدَع : الوسط بين العظيم والحقير .

النبى يبعث عبد الله بن أبى حدرد مستخبرا

ذكر : أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أرسل عبد الله بن أبى حدرد الأسلمى ، فتلطف حتى دخل عسكر هوازن ، وخالطهم ، وأقام فيهم يوما أو يومين حتى علم كل شىء عنهم ، وسمع ما أجمعوا عليه .

وقال الواقدى : إنه انتهى إلى خباء مالك ، فوجد عنده رؤساء هوازن ، فسمعه يقول لأصحابه : إن محمدا لم يقاتل قوما قط قبل هذه المرة ، وإنما كان يلقى قوما أغمارا لاعلم لهم بالحرب ، فيظهر عليهم . فإذا كان السَّحَر فَصفُّوا مواشيكم ونساءكم وأبناءكم من ورائكم ، ثم اصطفوا ، ثم تكون الحملة منكم ، واكسروا جفون سيوفكم فتلقونه بعشرين ألف سيف مكسورة الجفون ، واحملوا حملة رجل واحد ، واعلموا أن الغلبة لمن حمل أولا .

فأقبل عبد الله حتى أتى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأخبره الخبر .

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعمر : ألا تسمع مايقول ؟ فقال عمر : كذب .

فقال ابن أبى حدرد : لئن كذبتنى ياعمر فقد كذبت بالحق .

فقال عمر للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ألا تسمع مايقول يارسول الله ؟

فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ ياعمر قد كنت ضالا فهداك الله . . . لقد أدرك النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ صدق عبد الله بن أبى حدرد . . . . .

فأراد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يوجه عمر إلى ذلك . ويذكره بأن الإسلام يفعل فعله فى النفوس

وليس معنى حداثة إسلام عبد الله بن أبى حدرد أنه غير مأمون فى روايته . .

ولقد تفاءل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما أخبر به ابن أبى حدرد ، وبشر المسلمين بغنائم كبيرة غدا إن شاء الله . .

اللقاء

وعَبَّأ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ جنوده ، وجعل خالد بن الوليد على طليعة الجيش فى مائة فارس من بنى سليم .

قال الحارث بن مالك : خرجنا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونحن حديثو عهد بالجاهلية ، فسرنا معه إلى حنين .

وكان فى الجيش كثير من أمثال الحارث ، وكان فى ساقه المسلمين جمع من الطلقاء بين رجال ونساء ينظرون مايكون ، وكان فيهم أبو سفيان وغيره ـ كما قدمنا ـ

وكان الغالب على جيش المسلمين عدم الاكتراث بعدوهم . فإنَّ فتح مكة قد جعلهم فى زهو من أنفسهم ، وكثرتهم التى هم عليها قد غرتهم

وتقدم الجيش حتى حضرت صلاة الظهر ، فجاء رجل فارس فقال : يارسول الله ، إنى انطلقت بين أيديكم حتى طلعت جبلا ، فإذا أنابهوازن عن بكرة أبيهم بظعنهم ـ بنسائهم ـ ونعمهم وشائهم اجتمعوا إلى حنين

فتبسم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال : تلك غنيمة المسلمين غدا إن شاء الله(١٥٤)

وسأل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائلا : من يحرسنا الليلة ؟

قال أنس بن أبي مرثد : أنا رسول الله .

فأمره ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يستقبل الشِّعب ، حتى يكون فى أعلاه . وقال له : لانُغرنَّ(١٥٥) الليلة من قبلك .

فلما أصبحوا قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : هل أحسستم فارسكم ؟

يعنى ذلك الفارس المستطلع .

قالوا : يارسول الله ما أحسسنا .

فثوَّب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالصلاة ، فجعل يصلى وهو ملتفت إلى الشعب ، حتى إذا قضى صلاته ، قال : أبشروا فقد جاء فارسكم .

فجعلنا ننظر إلى خلال الشجر فى الشعب فإذا هو قد جاء ، حتى وقف على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : إنى انطلقت حتى إذا كنت فى أعلى الشعب حيث أمرنى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلما أصبحت نظرت إلى الشعبين كليهما فلم أر أحداً ،

---

(١٥٤) لعل ذلك مبالغة منه فى كثرة عدد من معه .

(١٥٥) الشعب : الطريق بين جبلين ، ونُغْرَنْ : نؤخذ على غرة

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : هل نزلت الليلة ؟

قال : لا إلا مصليا أو قاضي حاجة .

فقال له : فقد أوجبت ، فلا عليك ألا تعمل بعدها[١٥٦]

لقد خرج مالك بن عوف بمن معه إلى حنين فسبق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إليها ، فأعد جنوده وتهيأ في مضايق الوادي وأحنائه .

وأقبل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه حتى هبط بهم الوادي في عماية الصبح ، فلما هبط بهم ثارت في وجوههم الخيل ، فشدت عليهم واضطرب الناس وفروا منهزمين لايقبل أحد على أحد . .

لقد انكشف المسلمون من أول وهلة ، وعادوا لايلوون على شيء وقال بعض المشركين ساعتئذ : لاتنتهي هزيمتهم دون البحر .

وصرخ كلدة بن الحنبل شامتا متعجلا : ألا قد بطل السحر اليوم ـ يقصد بذلك ماكان يتوهمه بعضهم من أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ساحر ـ

وصرح آخرون من الطلقاء والأعراب والمشركين : اليوم ترجع العرب إلى دين آبائها .

لقد انكشف المسلمون في أول اللقاء ، ولم يلووا على شيء ، وزلزلوا وضاقت عليهم الأرض بما رحبت . وكادت تدور الدائرة عليهم لولا رحمة الله التي أحاطت بهم وأمدتهم بجنود لم يروها ، فانتصروا بعد أن ذاقوا مرارة

---

(١٥٦) أسد الغابة جـ١ ص ١٥٤ ترجمه أنس

الهزيمة ، وفي ذلك يقول الله - تعالى -

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ (١٥٧)

سبب الهزيمة

وقد أشارت الآية الكريمة إلى سبب الهزيمة وهو الغرور إذ قالت :
« أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا »

والإعجاب بالكثرة يعمى العيون أحيانا عن اتخاذ أسباب الحيطة . . .
والمحللون العسكريون يعلقون على سير المعركة قائلين :

كانت خطة مالك تتلخص باحتلال قمم وادى حنين ، ومضيق الوادى فاذا دخلت قوات المسلمين فى الوادى باغتهم المشركون بالرمى عليهم بالنبال من كل جانب لتحطيم صفوفهم ، ثم القيام بهجوم لإجبارهم على الانسحاب .

---

(١٥٧) التوبة ٢٥ : ٢٧

وأكمل المشركون احتلال هضاب الوادى قبل دخول المسلمين إليه ، وكمنوا فى أماكن مستورة انتظارا الجيش المسلمين .

ودخلت قوات المسلمين وادى حنين فجراً وكان واديا أجوف منحدرا ينحط فيه الركبان كلما أوغلوا ، كأنهم يسيرون إلى هاوية .

فلما استقرت أكثر قوات المسلمين فى الوادى رماهم المشركون بوابل من سهامهم فلم يعرف المسلمون مصدر ذلك الرمى ، لأن الظلام كان سائدا وقتذاك ولأن مواضع المشركين كانت مخفية تماما ، فتراجعت مقدمة المسلمين ، وجرفت أمامها قوات المسلمين الأخرى ، فانقلب الانسحاب إلى هزيمة . .

وحاول شيبة بن عثمان بن طلحة الذى قتل أبوه فى أحد ـ اغتيال الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى هذا الموقف العصيب ليدرك ثأر أبيه . ولكن الله دافع عن نبيه .

وترك جيش العدو أماكنه للقيام بالمطاردة ، وكان يتقدم هوازن رجل على جمل أحمر ، بيده راية سوداء فى رأس رمح طويل ، وكلما أدرك المسلمين طعن برمحه ، وجيوش هوازن وثقيف منحدرون وراءه يطعنون ، وانتشر الفزع بين المسلمين ، وازدحمت المسالك بالسابلة ، وارتبكت الصفوف واختلطت القبائل وركبت الإبل بعضها وهى مولية بأصحابها ، وتعقدت الأمور .

الهجوم المضاد للمسلمين

ولكن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثبت فى مكانه ، وثبت معه عشرة

من أهل بيته ومن المهاجرين هم : أبو بكر ، وعمر ، وعلى ، والعباس ، وأبو سفيان بن الحارث ، وابنه جعفر ، والفضل بن العباس ، وربيعة بن الحارث وأسامة بن زيد ، وأيمن بن أم أيمن .

وأخذ النبى - ﷺ - ينادى الناس ، إذ يمرون به منهزمين - أين أيها الناس ؟ أين ؟ هلموا إلىّ ، أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبد الله .. وأخذ يردد : أنا النبى لا كذب . أنا ابن عبد المطلب .

ولكن أحدا لا يرد .

لقد انساق الناس بدون وعى وراء الهزيمة ..

إلا أن النبى - ﷺ - أمر العباس ، وكان جهير الصوت أن يُنادى : يامعشر الأنصار ، ياأصحاب البيعة يوم الحديبية . يامعشر المهاجرين ..

وكرر العباس النداء حتى تجاوبت أصداؤه فى جنبات الوادى .

وسمع النداء المهاجرون والانصار ، فأخذوا يجاهدون حتى بلغوا مصدر الصوت .

ورمى بعضهم درعه وترك بعيره واستصحب سيفه فقط ، ليبلغ مصدر الصوت بسرعة ..

واجتمع حول الرسول - ﷺ - نحو مائة وهو يصيحون : لبيك - لبيك .. وهؤلاء هم المائة الصابرة .

فاستقبل النبى - ﷺ - بهم المشركين ، وصمدوا فى مواطنهم حتى فتر هجوم المشركين .

وكان النهار قد طلع ، والمشركون قد تركوا مواقعهم ، فلا يحتاج المسلمون إلا إلى الصمود لايقاع بعض الخسائر بالمشركين لكى تتزعزع معنوياتهم ويوقفوا الهجوم .

ولولا صمود هذا العدد القليل من المسلمين ومشاغلتهم المشركين لكانت خسائر المسلمين فى تلك المعركة كبيرة جدا . وتمكن عليٌّ ورجل من الأنصار من قتل الرجل صاحب الجمل الأحمر الذى كان يقود المشركين فبدأ وجه المعركة يتغير .

وأخذ عدد المسلمين الصامدين يتزايد ، وهنا بدأوا بالهجوم المضاد على المشركين ، وعندما رأت هوازن وثقيف أن المقاومة لا تجديهم نفعاً ، وأنهم لا يستطيعون صد هجوم المسلمين انسحبوا من ميدان المعركة تاركين وراءهم نساءهم وأموالهم غنيمة للمسلمين ، ولم يكن للمشركين ساقة لحماية الانسحاب ، فانقلب الانسحاب إلى هزيمة ساحقة .

وأسرع المنسحبون من ثقيف إلى الطائف وكان معهم الزعيم المغرور مالك بن عوف ، وانسحبت هوازن وبقية القبائل إلى أوطاس ونخلة .

وقام المسلمون بعملية المطاردة ، وأعلن النبى - ﷺ - : من قتل مشركا فله سلبه ، ووصلت المطاردة إلى أوطاس ، فأوقعوا بهوازن خسائر فادحة بالأرواح ، كما وصلوا الى نخلة فأوقعوا بالمنسحبين خسائر فادحة أيضاً واستسلم كثير من المشركين أسرى .

وعاد حديثو العهد بالأسلام الذين كانوا قد فروا فى بداية المعركة فرأوا المشركين أسرى مصفدين بالأغلال[١٥٨]

ويفصل أحد الخبراء العسكريين رأيه فى تلك المعركة من وجهة النظر العسكرية فيقول :

كان خالد أول من تلقى صدمة الكمين الذى أعده مالك بن عوف قائد المشركين ، وتبدد هدوء الفجر بآلاف الصيحات التى أطلقها الاعداء ، وانهالت السهام ليس بالعشرات أو العشرينات ولكن بالمئات ، انهالت السهام كالمطر الهاطل من السماء وأصابت الخيل والرجال . . . . ولم يقف بنو سُليم للتصرف ضد العدو ، ولم يقفوا ليفكروا أو يلتجئوا ، بل اتجهوا للخلف ، فروا كرجل واحد ، وذهبت صيحات خالد لرجاله كى يصمدوا أدراج الرياح ، وضاعت فى الضجيج والفوضى نداءاته ، وجرح خالد جرحاً بليغا ، وأخذ بعيداً ، ولكن بعد مسافة قصيرة سقط عن فرسه وبقى ممدوداً على الأرض غير قادر على الحركة بسبب جرحه . .

ومضى هذا الخبير العسكرى يصف المعركة على النحو الذى وصفت به فيما قدمناه . . ثم قال : كانت هذه أول مرة يقع فيها المسلمون فى كمين على نطاق كبير من قِبَل عدوهم .

وكان هذا الكمين ثانى كمين فى التاريخ . . . . إذ يقوم جيش كامل بنصب كمين لجيش كامل .

---

(١٥٨) الرسول القائد ـ محمود شيت خطاب ص ٣٥٧

- أما الكمين الأول فكان الكمين الذى نُصِبَ للرومان من قبل « هانيبال » عند بحيرة « تراسمين » فى عام ٢١٧ قبل الميلاد .

كانت خطة مالك التى وضعها لإبادة جيش المسلمين جيدة وسليمة ، ولكن بسبب ضعف التنفيذ من قبل رجاله لم يستطع أن يحقق المهمة التى خطط لها ، وعلى كل الأحوال فإنه على الرغم من ضعف التنفيذ هذا ، كان بإمكانه أن يحقق نصراً مؤزراً لو لم يكن المسلمون هم الذين يواجهونه . فتصميم النبى - ﷺ - على عدم تقبل الهزيمة ، وإيمان المسلمين بقائدهم ، هما اللذان حولا الهزيمة الى نصر لهم .

كان النبى - ﷺ - بخلاف مالك - غير راض بنجاح محدود فبمجرد أن أصبح الزمام فى أيدى المسلمين استثمر النبى - ﷺ - هذا النجاح لتدمير العدو والاستيلاء على معسكره بما فيه من غنائم .

وبالنسبة لخالد فهذه هى المرة الأولى التى أُخِذَ فيها على غرة ، كان دائما يعرف قيمة المفاجأة ، لكنه هذه المرة فوجىء هو شخصيا ، ورأى بعينيه كيف ذعر رجاله عند الظهور المفاجىء للعدو فى وقت ومكان غير متوقعين وصمم على أن لا يؤخذ على حين غرة مرة أخرى(١٥٩)

العقاد يبرر الموقف

لقد زلزل المسلمون أولا بالفعل نتيجة لمفاجأة غير متوقعة ، ولطف الله بهم فاستعادوا الكرة ، وحققوا النصر .

---

(١٥٩) سيف الله خالد بن الوليد جنرال أ أكرم ص ١٢٠

ويمكن الاعتذار عن المسلمين فى ذلك ، فما حدث ليس بدعاً فى التاريخ ، ولنقرأ ماكتبه العقاد ـ رحمه الله ـ فى تبرير هذا الموقف ـ قال :

« فوجئت الخيل فى الطليعة بالنبل المنتشر من الكمين المستتر فولت منهزمة فى جَفْلَة حيوانية معروفة فى أشباه هذه المواقف ، وقديما ذكر الرواة عن حرب الاسكندر وأمراء الهند أن جفلة الفيلة من الحديد المحمى كانت سبب الهزيمة التى أصيبت بها الهند ، فانقلبت الفيلة وبالا عليهم ، وقضت وهى مولية على الكثيرين من فرسانهم ومشاتهم ، تطأ بعضهم وتوقع الآخرين ، وتدفع من حاول الثبات إلى الفرار . . . . ولم تمض على حنين بضع سنوات حتى لقى الفرس من الفيلة مثل هذا المصرع ، ومثل هذه الجفلة الحيوانية ـ يوم تعمدها المسلمون بالضرب فى الأعين والخياشيم فى إحدى المعارك التى دارت مع الفرس .

وقد حدث مثل هذا مرة أخرى فى وقعة حنين هذه ، حين حاول المسلمون أن يكروا بعد الفرار ، فصار الرجل يلوى بعيره فلا يقدر على ذلك لكثرة الأعراب المنهزمين ، فيأخذ درعه فيقذفها فى عنقه ، ويأخذ سيفه وترسه ويترك بعيره ويخلى سبيله ويسرع الصوت .

وهكذا بدأت الهزيمة بفرار الخيل ولحاق المشاة بهم واختلاط الحابل بالنابل من الفريقين بعد ذلك .

وتواتر القول بأن الطلقاء الذين كانوا حديثى عهد بالاسلام أدبروا منهزمين بعد الهجمة الأولى ، فأشاعوا الهزيمة فيمن معهم من المهاجرين والأنصار .

ولقد أوشك أهل مكة أن يستقبلوا الأعراب المتقدمين على رضا من بعضهم لعدم ثبات الإيمان فى قلوبهم ، وعلى كره من بعضهم لأنفتهم من غلبة الأعراب على قريش .

ومما يؤثر فى ذلك قول صفوان بن أمية ، وكان لا يزال على شركه ـ : لأن يربنى رجل من قريش أحب إلىَّ من أن يربنى رجل من هوازن . قال ذلك حين سمع بعض الكفرة يقول : الآن بطل السحر . . وقال له : اسكت فض الله فاك .

سبب تغير المعركة

وتغيَّر مجرى القتال ودارت الدائرة على المشركين بعد لحظات ، وكان الفضل فى ذلك لحركة جاءت من قبل المسلمين ، وحركة جاءت من معسكر الأعراب ، وكان مجيئها فى الموعد المقدور .

فأما الحركة التى جاءت من قبل المسلمين فهى بروز النبى ـ ﷺ ـ بشخصه الكريم الى مقدمة الصفوف . فقد ثبت فى ذلك الهول الجارف ثبوتا يجل عن الوصف ، وأخذ زمام المعركة كلها فى يديه ليمضى وحده فى القتال كيفما تصير الأمور .

وكان قد شهد المعركة على بغلته الشهباء ، فانحاز الى اليمين سريعا ليستطيع التقدم بين تلك الصفوف المتدفقة من مدبرين ومقبلين ، والتفت الى اليمين ونادى : يامعشر الأنصار .

ثم التفت إلى اليسار ونادى كذلك : يامعشر الانصار والمهاجرين فتسامعوا وتجاوبوا وعطفوا ـ عطفة الإبل على أولادها ـ واجتمع حول رسول

الله - ﷺ - مئات المقاتلين فى لمحة عين .

وجعل الرسول يقول :

أنا النبى لا كذب   أنا ابن عبد المطلب

وأمر النبى عمه العباس أن ينادى فى الجيش : يامعشر الانصار ، ياأهل السَّمُرة[١٦٠] ، ياأصحاب سورة البقرة ، يابنى الخزرج ..... وكان العباس جهير الصوت يسمع صوته على مسافات بعيدة ، قيل : إنه كان يقف على سلع[١٦١] وينادى على غلمانه فيسمعونه ، وبينه وبينهم ثمانية أميال .

فلما جلجل الصوت بهذا النداء إذا بالأنصار والمهاجرين يتجاوبون : يالبيك يالبيك ، ويسرعون إلى ناحية الصوت زرافات زرافات ، حتى تجمع منهم ثلثمائة أو يزيد فى لحظات ، ثم شاع بين الألوف المؤلفة خبر عودة الجنود بعد فرارهم ومواجهتهم للعدو ، فاذا بالجيش الاسلامى بقضه وقضيضه[١٦٢] يعدو إلى ساحة القتال ، ويرسل الخيل والمطايا ليملك كل منهم زمام يديه وقدميه ، وهانت النفوس حتى استهدفت النساء للموت غير مباليات . .

أما الحركة التى جاءت من قبل المشركين فأعانت على هزيمتهم - فذاك أنهم قد غرتهم طلائع النصر فأقبلوا على الغنائم والأسلاب ، وشغل الكثير

---

(١٦٠) السمرة : نوع من الشجر ، وهى الشجرة التى بويع تحتها بيعة الرضوان

(١٦١) جبل سلع من جبال المدينة

(١٦٢) بقضه وقضيضه : جميعه

منهم بالتقاطها واستلابها عن مطاردة المدبرين من جيش المسلمين . فاتفقت الحركتان فى وقت واحد لتحويل وجهة القتال .

ويتبين من مقدمات المعركة كلها ومن بوادرها التى أجملناها أن الهزيمة التى حدثت للمسلمين فى بداية المعركة كانت ضرورة مادية لا محيد عنها ، وأنها ضرورة لم يكن لأحد يد فيها ، لأن أسبابها كانت كثيرة . . ومنها :

● أن الروح التى غلبت على الجيش الاسلامى بداية المعركة كانت روح استهانة وقلة اكتراث ، وأن الروح التى غلبت على المشركين يومئذ كانت روح استماتة وعناد مع تقارب عدد الجيش .

● وربما رجحت كفة المشركين فى الدروع والسلاح لما تقدم من حاجة النبى - ﷺ - إلى استعارة بعض الدروع والرماح .

وجود كثير من الطلقاء فى جيش المسلمين - يبلغون الألفين وقد يزيدون وهؤلاء كانوا حديثى عهد بالإسلام وبعضهم كان يتمنى هزيمة المسلمين ولهذا فروا عن أول وهلة من المعركة .

سبق المشركون إلى الميدان فاختاروا المواقع المهمة وأحسنوا الاختيار ، وهجموا فى الوقت الذى ارتضوه .

كان المسلمون يواجهون الشمس عند الصباح واليوم قائظ لا تقوى فيه العيون على مواجهة أشعتها ، فحيل بينهم وبين التثبت والإحكام فى مطلع الصباح إلى أن استوت الشمس فى كبد السماء .

لم يكن استطلاع المسلمين بارعا . . . فلم يكن على عادته من البراعة والتيقن والاسراع ، فقد أبطأ الفارس المستطلع حتى التمسه النبى - ﷺ - مرات ، ثم جاء ولم يخبر بشىء ، ثم ظهر الكمين من حيث لا يرونه ، فأوقع بالخيل وهى لا تحسب له أى حساب . . . هذا مع مهارة المشركين فى الرماية ، حتى قيل إنهم لا يسقط لهم سهم .(١٦٣)

هذه مبررات الهزيمة فى رأى العقاد . .

وقد استدركها النبى - ﷺ - بثباته والحمدلله ، واستطاع بما أتاه الله من شجاعه وحكمة وقدرة على الثبات أن يحول الهزيمة إلى نصر ساحق ، ويحقق الوعد الذى قاله للمسلمين : هذه غنيمتكم غداً إن شاءالله .

ولقد تحدث هؤلاء جميعا عن الأسباب المادية التى أدت إلى تحويل وجه المعركة من الهزيمة إلى النصر . وأهمها ثبات النبى - ﷺ - وعدم تزحزحه ، ومناداته للأنصار والمهاجرين وتذكيرهم بما عاهدوا الله عليه ، وثبات فئة معه من أهله وأقرب المقربين إليه ، وانعطاف المسلمين الصادقين إليه فور سماع النداء ، وكفاحهم بكل ما أوتوا من قوة ضد أعدائهم حتى أزالوهم عن مواقعهم ، وردوهم على أعقابهم ، وطاردوهم حتى أثخنوا فيهم الجراح ، وكبلوهم مأسورين . .

---

(١٦٣) انظر عبقرية خالد للعقاد ص ٩٠ ومابعدها .

ولكنهم لم يتحدثوا عن أسباب أخرى كانت وراء ذلك ، مع أن القرآن الكريم أشار إليها صريحة واضحة لا ريب فيها ـ تلك هى مدد الملائكة الذين بعثهم الله محاربين فى صفوف المسلمين ، والذين عناهم الله بقوله
ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها »

قال القرطبى فى تفسيره : أخذ رسول الله ـ ﷺ ـ حصيات فرمى بها فى وجوه الكفار ، ثم قال : انهزموا ورب محمد . قال راوى الحديث : فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته ، فمازلت أرى حدهم كليلا وأمرهم مدبرا .

وقال أبو عمر : روينا من وجوه عن بعض من أسلم من المشركين ممن شهد حنينا أنه قال ـ وقد سئل عن يوم حنين ـ : لقينا المسلمين فما لبثنا أن هزمناهم وأتبعناهم حتى انتهينا إلى رجل راكب بغلة بيضاء ـ فلما رآنا زجرنا زجرة شديدة وانتهرنا ، وأخذ بكفه حصى وترابا فرمى به وقال : شاهت الوجوه ، فلم تبق عين إلا دخلها من ذلك ، وما ملكنا أنفسنا أن رجعنا على أعقابنا .

فهذه قبضة من تراب أو حصىً ألقاها النبى ـ ﷺ ـ بيده الشريفة فكان لها فعل القذائف الموجهة التى لا تخطىء الطريق إلى وجهتها ، ووجهتها العيون خاصة ـ حتى تعمى عن الرؤية وتخطىء الطريق بسبب ما أصابها ، ثم هى تُلقِى مع ذلك الرعب فى قلوب من وجهت إليهم فيرتدون على أعقابهم خاسرين . وربما أصابت أفواههم أيضا فملأتها مرارة ، وجرعتهم غصة لايفيقون منها . . . . أى قوة بلغتها هذه القبضة التى وزعت على جيش كبير

يعد بالآلاف فما أخطأت واحداً منهم ، بل كل منهم ناله من هذه القبضة نصيب ؟

أليس ذلك هو الإعجاز الذى يمد الله به نبيه ، ويصدق به دعوته ويثبت به أقدامه ؟

ولقد روى هذا الحديث من طرق متعددة وبأساليب مختلفة ، قال سعيد بن جبير : حدثنا رجل من المشركين يوم حنين قال : لما التقينا مع أصحاب رسول الله - ﷺ - لم يقفوا لنا حَلْب شاة ، حتى إذا انتهينا الى صاحب البغلة الشهباء ، يعنى رسول الله - ﷺ - تلقانا رجال بيض الوجوه حسان ، فقالوا لنا : شاهت الوجوه ، ارجعوا ، فرجعنا وركبوا أكتافنا فكانت إياها - يعنى الملائكة .

ولا تعارض بين أن تكون عبارة « شاهت الوجوه » قد قالها النبى - ﷺ - أو قالتها الملائكة - فلا يبعد أن يكون كل منهم قالها . .

ما رواة أبوعبدالرحمن الفهرى

ولا شك فى أن الملائكة قد قاتلت يوم حنين كما قاتلت يوم بدر . ولقد تواترت الأخبار بذلك . فقد روى ذلك أصحاب السنن عن ثقات . وروى أحمد وأبو داود والدارمى من حديث أبى عبدالرحمن الفهرى فى قصة حنين قال :

كنت مع النبى - ﷺ - فى حنين فى يوم قائظ شديد الحر ، فنزلنا تحت ظلال الشجر ، فلما زالت الشمس لبست لأمتى وركبت فرسى ، فأتيت

رسول الله - ﷺ - وهو فى فسطاطه . فقلت : السلام عليك يارسول الله ورحمة الله ، قد حان الرواح ؟

قال : أجل .

ثم قال : يابلال ، فأسرع من تحت شجرة كأن ظله ظل طائر ، فقال : لبيك وسعديك ، وأنا فداؤك - يارسول الله :

قال : أسرج لى فرس .

فأتى بسرج وأسرج به الفرس ، فركبه النبى - ﷺ - ثم سرنا يومنا ، فلقينا العدو ، وتشامت الخيلان[164] ، فقاتلناهم .
فولى المسلمون مدبرين . كما قال الله - تعالى -

فقال - ﷺ - : أنا عبدالله ورسوله ، أنا عبدالله ورسوله . ونادى - ﷺ - نداءين لم يخلط بينهما كلام . . . التفت عن يمينه فقال : يامعشر الأنصار أنا عبدالله ورسوله . فقالوا : لبيك يارسول الله ، نحن معك ، ثم التفت عن يساره فقال : يا معشر الأنصار ، أنا عبدالله ورسوله . فقالوا : لبيك يارسول الله نحن معك .

فهزم الله المشركين ثم نزل النبى عن فرسه فأخذ كفا من تراب . قال : فأخبرنى الذى كان أدنى إليه منى أنه ضرب به وجوههم وقال : شاهت الوجوه . فهزمهم الله - تعالى .

وفى رواية ابن عطاء عن أبى همام الكوفى عن أبى عبدالرحمن الفهرى : فحدثنى أبناؤهم عن آبائهم أنهم قالوا : لم يبق منا أحد إلا امتلأت عيناه

---

(١٦٤) تشامت : تقاربت

وفمه ترابا ، وسمعنا صلصلة من السماء كإمرار الحديد على الطست الجديد .

لقد عاين المشركون الملائكة بأنفسهم . ولا يرى الملائكة فى الحرب إلا المشركون ، لأن القصد من ذلك إرهابهم ، ولا يراها المسلمون حتى لا يتكلوا عليها ويتركوا القتال .

أخرج ابن مردويه والبيهقى وابن عساكر عن شيبة بن عثمان قال : خرجت مع رسول الله - ﷺ - يوم حنين ، والله ماخرجت إسلاما ولكن خرجت اتقاء أن تظهر هوازن على قريش ، فوالله إنى لواقف مع رسول الله - ﷺ - إذ قلت : يارسول الله ، إنى لأرى خيلا بلقا .

قال : ياشيبة ، إنه لا يراها إلا كافر . فضرب بيده فى صدرى ، وقال : اللهم اهد شيبة . فعل ذلك ثلاث مرات ، فوالله ما رفع - ﷺ - الثالثة حتى ما أجد من خلق الله أحب إلىَّ منه .

وذكر القسطلانى أن الملائكة نزلت يوم حنين وسيماهم عمائم حمر أرخوها بين أكتفاهم .(١٦٥)

وروى جبير بن مطعم قال : نظرت والناس يقتتلون يوم حنين إلى مثل البجاد(١٦٦) الأسود يهوى من السماء . وفى رواية : رأيت قبل هزيمة القوم والناس يقتتلون مثل البجاد الأسود أقبل من السماء حتى سقط بين القوم

---

(١٦٥) شرح المواهب اللدنية للزرقانى ج ٣ ص ١٥

(١٦٦) البجاد : الكساء ويجمع على بُجُد

فنظرت فإذا هو قد ملأ الوادى ، لم أشك أنها الملائكة ولم يكن إلا هزيمة القوم(١٦٧)

وروى الواقدى عن شيوخ من الأنصار قالوا : رأينا يومئذ كالبجد السود هوت من السماء ركاما ، فكان نصر الله أيدنا به

ولعل الحكمة فى نزولهم بهذه الصورة أن يراهم المسلمون فيسألوا عنهم فيعلموا أنهم الملائكة وبذلك تقوى قلوبهم وتثبت أقدامهم .

الذين ثبتوا مع الرسول

لقد كان موقف النبى - ﷺ - رائعا فى ثباته فى ذلك الموقف الذى تتزلزل فيه أقدام الشجعان ..

ولم نقرأ فى تاريخ الحروب القديمة أو الحديثة أن قائدا من القواد تركه جنوده فارين منهزمين ثم بقى هو وحده ثابتا راسخا كالطود أمام الآلاف من جنود الأعداء الزاحفين لم يتزحزح .

إن ثباته وحده معجزة .... لأن وقوفه بهذه الصورة الخارقة أمر ليس فى طوق أحد من الناس .

إن أى إنسان مهما أوتى من الشجاعة والبأس والقوة لا يمكن أن يقف وحده فى الميدان أمام عشرة آلاف مقاتل تتلظى قلوبهم حقداً وكفراً وشراً وعدوانا ؟ ..

---

(١٦٧) المرجع السابق

لا تعليل لذلك إلا المعجزة . تلك التى أعمت العدو ، وأرهبته ، وزلزلت أركانه ، وردته على أعقابه خاسراً . .

وثباته هذا هو الذى بث الاطمئنان فى قلوب القلّة التى أحاطت به من ذويه وأصحابه . وكان الواحد منهم فى مقام ألف من الجنود أو يزيد ، ولم يكن الواحد منهم تهمه نفسه بقدر ما كان يهمه حياة النبى - ﷺ - الصامد أمامهم ، يود الواحد منهم أن يفديه بكل ما تمتلك روحه من أنفاس الحياة . . .

ولا تعليل لذلك إلا الإيمان العميق الذى تغلغل فى النفوس ، والحب الشديد لرسول الله - ﷺ - وهو جزء لا يتجزأ من العقيدة ، بل هو صلب العقيدة . . . . لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وفى الحديث الصحيح : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار[١٦٨] »

وقد اختلف الرواة فى أسماء الذين ثبتوا معه - صلى الله عليه وسلم - وقد أشار إليهم القرطبى فى تفسيره . . وقد سبق أن ذكرنا أسماءهم فى بعض الروايات .

ذكر القرطبى أن العباس عم النبى - صلى الله عليه وسلم - أشار إلى عشرة رجال ثبتوا مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى بيتين من الشعر هما :

---

(١٦٨) متفق عليه عن أبى أمامة وفى البخارى ومسلم كتاب الايمان ، وفى جمع الجوامع برقم ١٢٩٠٥/١

نصرنا رسول الله فى الحرب تسعة　　　وقد فر من قد فر عنه وأقشعوا
وعاشرنا لاقى الحمام بنفسه　　　بما مسه فى الله لا يتوجع

وهؤلاء العشرة هم : أبو بكر ، وعمر ، وعلى ، والعباس ، وأبو سفيان ابن الحارث بن عبد المطلب ـ على حداثة إسلامه ـ وابنه جعفر ، وأسامة ابن زيد ، وأيمن بن عبيد ـ وهو ابن أم أيمن ـ وهو الذى قتل فى الغزوة ـ وربيعة بن الحارث والفضل بن العباس .

وكان من النساء أم سليم ـ زوجة أبي طلحة ـ وفى يدها خنجر أعدته للمهاجين أو للمنهزمين .

وكان العباس وأبو سفيان بن الحارث آخذين ببغلة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يكفأنها عن التقدم على العدو ، لأنه ركضها فى نحورهم تحدياً لهم على الرغم من هزيمة أصحابه أمامهم .

إن فى ذلك لدلالة قوية على ثبات النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعدم تصور هزيمته . . . وقد حكى القاضى عياض فى الشفا أن من يقول : إن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ هزم يستتاب ، فإن تاب وإلا قتل .

وهذا رد على من توهم نسبة ذلك إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد اعتبر القاضى عياض هذا القول ردة على رأى قوم . .

بل إن العلماء اعتبروا ركوب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بغلة فى هذا الموطن دليلاً عملياً ملموساً على شجاعته ، فإن من دأب الحروب أن تركب

فيها الخيول لا البغال . وأن البغال لا تستعمل عادة إلا فى مواطن الأمن والاطمئنان .

وفى اعتبار مواطن الحرب كالسلم دلالة على قوة القلب وعدم الرهبة من العدو وزيادة الثقة بالله ـ تعالى ـ وقوة التوكل عليه . .

عبارات ألهبت المعركة

كان لنداء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الأنصار وأصحاب البيعة بقوله : يا أهل السمرة ، يا أصحاب سورة البقرة ـ أثر كبير فى إثارة روح التضحية والفداء .

وتعنى العبارة الأولى تذكيرهم بما بايعوا عليه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم الحديبية . . . . وقد زكى الله هذه البيعة بقوله

﴿ لَقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ ﴾[١٦٩]

وتعنى العبارة الثانية تذكيرهم بإيثار الآخرة على الأولى ، وأن ما أعطاهم الله من نعمة وخصهم به من فضل تهون بجواره الأرواح وتسترخص فى سبيل الفوز به النفوس .

وإن لسورة البقرة منزلة لا تسموها منزلة .

---

(١٦٩) الفتح ١٨

فضل سورة البقرة

قال العلماء : هذه السورة فضلها عظيم وثوابها جسيم ، ويقال لها : فسطاط القرآن ، وذلك لعظم بهائها وكثرة أحكامها ومواعظها .

إنها تحتوى على ألف أمر ، وألف نهى ، وألف حكم ، وألف خبر .

ويروى الثقات أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أرسل بعثاً وهم ذوو عدد .... وقدم عليهم أحدثهم سناً لأنه اتضح أنه يحفظ سورة البقرة دونهم وقال له : اذهب فأنت أميرهم[170] .

وروى مسلم عن أبى أمامة الباهلى قال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « اقرءوا سورة البقرة فإن أخذها بركة ، وتركها حسرة ولا يستطيعها البَطَلة قال معاوية ـ وهو أحد رواة الحديث : بلغنى أن البطلة هم السحرَة .

ومعنى ذلك أن حافظها لا يؤثر فيه السحر ، وهو أقوى أنواع الأذى ، فما بالك بما هو دونه ؟

وفيما يرويه أبو هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن سيدنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قوله : « لا تجعلوا بيوتكم مقابر ، إن الشيطان ينفر من البيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة » .

ومما روى فى فضائلها أيضاً قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « إن لكل شىء سناماً وإن سنام القرآن سورة البقرة » .

---

(١٧٠) أخرجه الترمذى عن أبى هريرة

وفى رواية : « ومن قرأها فى بيته ليلاً لم يدخل الشيطان بيته ثلاث ليال ومن قرأها نهاراً لم يدخل الشيطان بيته ثلاثة أيام » .

وفى سورة البقرة عشر آيات تعد حصناً لمن داوم على تلاوتها وهى أربع آيات من أولها ، وآية الكرسى ، وآيتان بعدها ، وثلاث آيات هى خواتيمها » من قوله ـ تعالى ـ

« لله ما فى السموات والأرض . . إلى آخر السورة[171] »

أما آية الكرسى فقد ورد فى فضلها آثار كثيرة .

روى الإمام أحمد حديث أبىّ بن كعب أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ سأله : أى آية فى كتاب الله أعظم ؟ قال : الله ورسوله أعلم . فرددها مراراً ، ثم قال أُبَىّ : آية الكرسى . قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليهنك العلم أبا المنذر[172] .

وفى خواتيم سورة البقرة قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « أعطيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش » وفى رواية « لم يعطهن نبى قبلى[173] »

فلا عجب أن يهتف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأصحاب سورة البقرة ، لما خصهم الله به من الكرامة التى تقهر أولياء الشيطان .

أما قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب

---

(١٧١) تفسير القرطبى ـ مقدمة سورة البقرة

(١٧٢) مسند الامام أحمد ١٤١/٥

(١٧٣) تفسير ابن كثير جـ٢ ص٥٠٦

فقد كان له وقع كبير فى تثبيت أقدام من ثبت بجواره ، وسرعة عودة من أذهلته المفاجأة فزحزحته عن مكانه .

لقد نفى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الكذب عن نفسه ، فكل ما يخبر به فهو صدق ، وقد أخبرهم أنهم ينتصرون ويغنمون ، فلابد أن يتحقق ذلك .

وقد ذكرهم بنسبه العالى الذى كان العرب يعرفون شرفه ومنزلته . . . . . ولعبد المطلب بالذات عندهم مكانة وفضل ، ولو كان النبى شاعراً لقلنا إن الإيقاع الشعرى هو الذى جعله يعدل عن عبد الله إلى عبد المطلب ، ولكن الله يقول فى حقه

﴿ وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ ﴾ (١٧٤)

إنه كلام جاء عفو الخاطر وإن وافق وزناً شعرياً ، إلا أنه غير مقصود . وكان العرب يعرفونه بابن عبد المطلب ، اتباعاً للقاعدة المشهورة عندهم من أنهم ينسبون الشخص لجده أو قبيلته ، وكان كثير منهم يخاطبه بابن عبد المطلب . فقد كان عبد المطلب مشهوراً شهرة ذائعة ، ورزقه الله طول العمر ونباهة الشأن ، حتى اعتز به سيف بن ذى يزن وقربه إليه حين ذهب إليه مهنئاً بجلاء الأحباش عن بلاده ، وبشره بنبوة حفيده ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى عاد عبد المطلب من عنده وقد عظمت بهجته واشتدت فرحته .

---

(١٧٤) يس ٦٩

ويروى أن ضمام بن ثعلبة حين قدم المدينة مسلماً ولم يكن رأى النبى - صلى الله عليه وسلم - قبل ذلك . وأناخ بعيره خارج المسجد ثم أقبل على القوم ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - بينهم فقال : أيكم ابن عبد المطلب ؟

فكأن النبى - صلى الله عليه وسلم - أراد أن يذكِّر الناس ، ولاسيما هؤلاء الأعراب الجفاة بذلك كله ، ويثير فى أذهانهم قصة التبشير بنبوته قبل أن يولد . يضاف إلى ذلك ما ذكره ابن كثير فى تفسيره قال :

لقد قال النبى - صلى الله عليه وسلم - هذه الكلمة فى مثل هذا اليوم ، فى حومة الوغى ، وقد انكشف عنه جيشه ، وهو على بغلة ليست سريعة ولا تصلح للكر - وهو مع ذلك يركضها فى وجوه القوم وينوه باسمه ليعرفه من لم يعرفه . .

- فهل هناك شجاعة أكثر من هذه الشجاعة ؟ وهل هناك تحد أكبر من هذا التحدى ؟ -

مع أنه هو المستهدف الوحيد فى هذه المعركة ، وحِرْص الكفار على قتله كان شديداً . . وهو مثار فخر لمن يحققه . . فأى استهانة بالعدو أكثر من ذلك ؟ كأنه يقول لهم : هأنذا وحدى أمامكم ، فمن لم يعرفنى فليعرفنى ومن أرادنى فليأت إلىّ -

قال ابن كثير : وما ذلك كله إلا ثقة بالله وتوكلاً عليه وعلماً منه بأن الله سينصره ويتم ما أرسله به ، ويظهر دينه على سائر الأديان .

الآن حمى الوطيس

ومن الكلمات الجامعة التى قالها ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى تلك المعركة والتى لم تسمع قبل ذلك من غيره . قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « الآن حمى الوطيس » .

وهى من وَطست الشيء إذا كدرته وأثرت فيه ، وأصل الوطيس فى اللغة التنور ، وأراد هنا الحرب نفسها ، فكأنه شبهها بالتنور المشتعل

وقال بعض أهل اللغة : الوطيس حجارة تُوقِد العرب تحتها النار ويشوون فيها اللحم .

وهذا مثل يضرب لشدة الحرب واشتعالها . وهذا من فصيح الكلام الذى لم يسمع من أحد قبل ذلك .

وإذا كنا نعجب ببعض الحكماء الذين يرد فى طى كلامهم بعض الأمثال وأغلبها مما أثرت عن غيرهم ، فكيف لا يستولى علينا الاعجاب حين نقرأ للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمثاله المبتكرة التى لم يُسْبق إليها ، بل هى من إملاء الموقف الذى هو فيه ، ومن نتاج اللحظة التى قيل فيها .

صور رائعة من البطولة

إن انكشاف المسلمين فى الجولة الأولى لا يعنى أنهم فقدوا روح البطولة . أو أن هذه الغزوة خلت من البطولات التى عرفت عن كثير منهم . . لقد حفلت هذه الغزوة كغيرها من الغزوات بآيات خارقة من البطولة والتضحية

والإيثار ، ونحن نقدم بعض ذلك على سبيل الاستشهاد لا الحصر . . ويأتى فى مقدمة ذلك . . موقف أولئك النفر العشرة الذين أحاطوا بالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إحاطة السوار بالمعصم ولم يبارحوه فى هذه اللحظة الرهيبة التى تشبه يوم الحشر . .

﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) ﴾ (١٧٥)

والشأن هنا هو النجاة بالنفس والتفكير فى شأنها لا شأن غيرها . . حقاً ، لقد كان موقفاً عصيباً . . وكان جديراً بوصف القرآن له
« وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين »
فثبات أولئك النفر مع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعد عملاً بطولياً رائعاً لاشك فى ذلك .

كان العباس ـ رضى الله عنه ـ آخذاً بلجام بغلة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يكفها مخافة أن تصل إلى العدو ، وكان أبو سفيان بن الحارث آخذاً بركابه . . وبقية النفر الثمانية يحيطون به ويدرءون دونه .

وقد رفع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يديه مستغيثاً بالله راجياً إياه وهو يقول : « اللهم لك الحمد وإليك المشتكى وأنت المستعان » .

---

(١٧٥) عبس ٣٤ ـ ٣٧

فقال له جبريل ـ عليه السلام ـ : لقد لقنت الكلمات التى لقن الله ـ تعالى ـ موسى يوم فلق البحر ، وكان البحر أمامه وفرعون خلفه .

روى البيهقى عن الضحاك قال : دعا موسى حين توجه إلى فرعون ، ودعا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم حنين :

« كنت وتكون ، وأنت حَىّ لا تموت ، تنام العيون ، وتنكدر النجوم وأنت حى قيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، يا حيى يا قيوم »

قَتْلُ صاحب الجمل

روى ابن هشام قول ابن إسحاق عن جابر قال : بينما رجل من هوازن على جمل أحمر يحمل راية سوداء يقود الناس ويطعن فى المسلمين برمحه إذ أسرع إليه على بن أبى طالب ـ رضوان الله عليه ـ ورجل من الأنصار بريدانه ، فجاءه على بن أبى طالب من خلفه فضرب عرقوبى جمله فوقع على عجزه ، ووثب الأنصارى على الرجل فضربه ضربة أطنّ بها ـ قطع ـ قدمه بنصف ساقه ، فسقط عن رحله . قال : واجتلد الناس ، فوالله ما رجعت راجعة الناس من هزيمتهم حتى وجدوا الأسارى مقيدين عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ [١٧٦] .

الاسلام يغير أطوار النفوس

وفى قصة شيبة بن عثمان بن طلحة ـ مثل عجيب . . . . قال يحدث عن إسلامه ، وقد كان مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى حنين وهو ما يزال على شركه :

---

(١٧٦) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٦٠

ما رأيت أعجب مما كنا فيه من اتباع ما مضى عليه آباؤنا من الضلالات ، ولما كان عام الفتح .. دخل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مكة ، وسار إلى حرب هوزان

قلت : أسير مع قريش إلى هوازن بحنين ، فعسى إن اختلطوا أن أصيب من محمد غرة فأقتله ، فأكون أنا الذى قمت بثأر قريش كلها .
وكنت أقول : لو لم يبق من العرب والعجم أحد إلا اتبع محمداً ما اتبعته ، لا يزداد ذلك الأمر عندى إلا شدة .

فلما اختلط الناس ، ونزل ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن بغلته أَصْلَتُ[177] السيف ودنوت منه أريد الذى أريد منه ، ورفعت السيف حتى كدت أُوقع به ...... فبينما أنا فى ذلك إذ رُفِع إلىَّ شواظ من نار كالبرق كاد يهلكنى ، فوضعت يدى على بصرى خوفاً عليه .

وفى رواية : لما هممت به حال بينى وبينه خندق من نار وسور من حديد .
فنادانى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : يا شيبة ـ ادن منى ، فدنوت منه ، فالتفت إلىَّ وتبسم وعرف الذى أريد منه .

فمسح صدرى ، ثم قال : اللهم أعذه من الشيطان .
قال شيبة : فوالله لهو كان الساعة أحب إلىَّ من سمعى وبصرى ونفسى ، وأذهب الله ما كان فى قلبى ..

---

(١٧٧) أَصْلَتُ : جردته وشهرته

ثم قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: ادن فقاتل .

قال : فتقدمت أمامه أضرب بسيفى يعلم الله أنى أحب أن أقيه بنفسى من كل شىء ، ولو كان أبى حياً ولقيته تلك الساعة يريد إيذاء الرسول لأوقعت به السيف . فكنت ممن لزمه فى ذلك اليوم(١٧٨) .

من قتل قتيلاً فله سلبه

ونادى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : من قتل قتيلاً فله سلبه . وكان لهذه الكلمة أثرها ، وبخاصة بين الأعراب الذين خرجوا مع جيش المسلمين ، فقد ألهبت الكلمة حماسهم ، وهى كلمة كانت مقررة من قبل ، فالمعروف أن سلب القتيل فى الحرب من حق قاتله ، إلا أن النداء هنا كانت له أهميته لتأكيد مشروعيته هذا الأمر من جهة ، ولإثارة الحماس من جهة أخرى .

حدث أنس ـ رضى الله عنه ـ قال : سلب أبو طلحة ـ رضى الله عنه ـ وحده عشرين رجلاً ، والمقصود أنه قتلهم وأخذ أسلابهم .

ولا يعنى السلب القيمة المادية وحدها ، فقد لا يكون مع القتيل ما يغنى ، ولكن القيمة المعنوية هى التى تقصد .. إنها تعنى عدد الجولات التى ظهر فيها المقاتل على الأعداء ..

ومما يقصه الرواة فى ذلك ، ما قاله أبو قتادة : رأيت يوم حنين مسلماً ومشركاً يقتتلان ، وإذا رجل من المشركين يريد إعانة المشرك ، فأتيته

---

(١٧٨) السيرة الحلبية جـ٣ ص ٧٥

وضربت يده فقطعتها ، فاعتنقني بيده الأخرى ، فوالله ما أرسلني حتى وجدت ريح الموت ، ولولا أن الدم نزفه لقتلني ، سقط وضربته فقتلته ، وأجهضني القتال عن استلابه .

فلما وضعت الحرب أوزارها قلت : يا رسول الله ، لقد قتلت قتيلاً ذا سلب ، وأجهضني القتال ، فما أدري من استلبه .

فقال رجل من أهل مكة : صدق يا رسول الله ، فأرضه عني من سلبه .

فقال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ والله لا يرضيه ، تعمد إلى أسد من أُسْد الله يقاتل عن دين الله تقاسمه سلب قتيله ؟

قال أبو قتادة : فأخذته منه ، فاشتريت بثمنه بستاناً .

مقتل دريد بن الصمة

وكان دريد بن الصمة ـ كما سبق القول ـ قد خرج مع رجال بني جشم . وكان قد بلغ من الكبر عتياً ، وقد ذهب بصره ، وكان يُحَمل . قيل : إنه قد بلغ مائة وعشرين عاماً ، وقال بعض الرواة : بل أكثر من ذلك .

وكان خروجه مع قومه لمجرد التيمن برأيه .

ويقال : إنه أشار بعدم قتال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد روى بعض الرواة أنه قال لمالك بن عوف : تريد أن تقاتل رجلاً كريماً قد أوطأ العرب وخافته العجم ومن بالشام وأجلى يهود الحجاز إما قتلاً وإما خروجاً عن ذل وصغار . . إن يومك هذا الذي تلقى فيه محمداً ما بعده يوم ؟

فقال مالك : إني لأطمع أن ترى ما يسرك .

قال دريد : منزلى حيث ترى فاذا جمعت الناس سرت إليك . .

وقد سبق أن ذكرنا أن دريدا لم يعجبه تصرف مالك ، وأشار عليه بغير ذلك ، ولكن مالكا أبى إلا تنفيذ أمره . .

وسارت المعركة على ماسارت اليه ، ثم انتهت بهزيمة هوازن ومن معها هزيمة منكرة . وفر الأعراب مدبرين .

وأدرك ربيعة بن رفيع دريد بن الصمة ، فأخذ بخطام جمله وهو يظنه امرأة وذلك أنه كان فى شجار فأناخ به ، فإذا هو شيخ كبير لايعرفه الغلام .

فقال له دريد : ماذا تريد ؟

قال ربيعة : أقتلك .

قال دريد : ومن أنت ؟

قال : أنا ربيعة بن رفيع السلمى . ثم ضربه بسيفه فلم يغن شيئا .

فقال دريد : بئسما سلحتك أمك ، خذ سيفى من مؤخر الشجار ، ثم اضرب به وارفع عن العظام واخفض عن الدماغ ، فإنى كذلك كنت أقتل الرجال ، وإذا اتيت أمك فأخبرها أنك قتلت دريد بن الصمة ، فرب يوم والله منعت فيه نساءك . . . فقتله ربيعة . . فلما رجع الى أمه أخبرها بقتله إياه ، فقالت : لقد أعتق أمهات لك ثلاثا[١٧٩] .

ولا تعليق على قتل دريد . الا أنه رجل كبير لم ينهه كبر سنه ووفور عقله عن الانتهاء عما كانت عليه الجاهلية من شرك . مع معرفته صدق النبى ـ

---

(١٧٩) أسد الغابة حـ ٢ صـ ٢١١

ﷺ ـ وظهور أمره كما أخبر هو بذلك مالك بن عوف فى صدر محاورتهما معا .

وربما كان قتل دريد لاغناء فيه فى رأى بعض الناس لأنه كما يقال : قد فنى وهو حىّ .

ولكن قتله كان ضرورة لابد منها لأنه زعيم قوم يأتمرون بأمره ، ويتيمنون برأيه . وان كانوا لم يعملوا به .

ولا يعدم إن نجا أن يثير الثائرة ، لأنه لم يتعود الهزيمة ولا يصبر على الضيم .

ففى قتله حسم للشر وقضاء على الفتنة . .

بطولة المرأة العربية

ولم تكن المرأة العربية بمنأى عن المعركة ، ولكن منهن من أبلت بلاء حسنا فى القتال ، فقد حدث البيهقى قال : لقى أبوطلحة أم سليم يوم حنين ومعها خنجر ، فقال : ياأم سليم ماهذا الذى معك ؟

قالت : أردت به . . . . . والله إن دنا منى بعضهم أبعج به بطنه .

فأخبر أبوطلحة النبى ـ ﷺ ـ بذلك . . فقالت أم سليم : يارسول الله أقتل من يعدونا من الطلقاء انهزموا عنك يارسول الله .

فقال : ياأم سليم ، إن الله ـ عز وجل ـ قد كفى وأحسن(١٨٠) .

لقد نظرت أم سليم الى الطلقاء الذين عفا عنهم رسول الله ـ يوم فتح مكة فلم تجدهم خيرا من المشركين ـ بل اعتبرت فرارهم عن رسول الله ـ ﷺ ـ

---

(١٨٠) دلائل النبوة للبيهقى حـ ٥ صـ ١٥٠

شرا من هجوم المشركين . وربما فهمت أنهم كانوا سبب هذه الهزيمة التى منى بها المسلمون أولا . فعولت على الانتقام منهم . وهو موقف يحمد لها على أى حال ، لأنه يدل على قوة إيمانها وحرصها على رفع راية الاسلام وارتفاع كلمة الله .

المسلمون يتبعون القوم

ولما انهزم القوم عسكر بعضهم بأوطاس وهم قوم دريد فاتبعهم المسلمون ، وأرسل النبى - ﷺ - فى آثارهم جماعة على رأسهم ابوعامر الأشعرى وهو عم أبى موسى الأشعرى ، فلحقوا بالقوم ، وحدثت مبارزة بين أبى عامر وبينهم فقتل تسعة ممن بارزوه .

وكان كل من يبارزه يدعوه أولا الى الاسلام فيأبى ، فيقتله وهو يقول : اللهم فاشهد .

ويقال إن هؤلاء المقتولين كانوا إخوة .

وتقدم أخوهم العاشر بعد ذلك للمبارزة ، فتقدم اليه أبوعامر وعرض عليه الاسلام فأبى ، فقال أبوعامر : اللهم اشهد ، وهجم عليه يريد قتله ، فقال الرجل : اللهم لاتشهد ، وفرش يديه .

فظن أبوعامر أنه أسلم ، وكف عنه فهرب الرجل ، ولكنه أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه .

وكان النبى - ﷺ - إذا رآه يقول : هذا شريد أبى عامر[١٨١] .

ويقال : إن أباعامر هو الذى لقى دريد بن الصمة وقومه وهم مولون إلى

---

(١٨١) السيرة الحلبية جـ٣ صـ٢١٤

أوطاس ، فناوشهم القتال ، فهزمهم وقتل منهم ، وقتل دريدا . . . ورماه رجل منهم فى ركبته فأثبته ، ثم لحقه ابن أخيه أبوموسى ، فقال له : ياعم ، من قتلك ؟

فأشار الى رجل من بنى جشم ـ قال بعضهم : هو سلمة بن دريد ، فقصد اليه أبوموسى الأشعرى ، فولى الرجل منهزما .

فقال له أبوموسى : ألا تستحى ؟ ألست عربيا ؟

فوقف الرجل فتبارزا فاختلفا فى ضربتين ، وكانت ضربة أبى موسى لخصمه قاتلة ، ورجع الى عمه فنزع السهم من ركبته . فقال له : ياابن اخى انطلق الى رسول الله ـ فأبلغه منى السلام ، وقل له : يقول لك أبوعامر : استغفر لى . ومكث يسيرا ثم مات .

قال أبوموسى : فرجعت الى رسول الله ﷺ ـ فأخبرته فقال : اللهم اغفر لعبدك أبى عامر ، ثم قال : اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك(١٨٢) .

وأمر النبى ـ ﷺ ـ بجمع الغنائم ـ وما أكثرها ـ وذلك تمهيدا لتقسيمها بعد أن يفرغ نهائيا من أمر أولئك المنسحبين . . . والذين تحصنوا فى الطائف ومعهم مالك بن عوف سيد هوازن .

---

(١٨٢) أسد الغابة حـ ٦ صـ ١٨٧

حصار الطائف

أين تقع الطائف ؟

مسير المسلمين إليها

حصار الحصون

رميهم بالمنجنيق

تحريض العبيد على الفرار

رؤيا النبي ﷺ .

الذين أصيبوا من المسلمين فى الطائف

تقسيم غنائم هوازن

النبى يعطى البعض لتأليف قلوبهم

حكم المؤلفة قلوبهم بعد استقرار الإسلام

أثر العطاء فى تأليف القلوب

اعتراض أحد المنافقين على تقسيم الغنائم .

موقف الأنصار من تقسيم الغنائم



حصار الطائف

أسرع المنهزمون من ثقيف إلى الطائف يلوذون بها فرارا من متابعة المسلمين لهم ، ولاذت معهم فيها بقية القبائل الأخرى التى هربت من أوطاس بعد هزيمتهم فيها . وتحصن الجميع وراء أسوار الطائف وحصونها المنيعة .

لقد جمع هؤلاء الهاربون كل مايكفيهم من المؤن والطعام لمدة عام كامل ، وصمموا على الصمود أمام المسلمين إذا قدموا إليهم وحاصروهم .

وفر مع ثقيف مالك بن عوف زعيم ذلك الجمع والمحرض الأول عليه ورئيس هوازن . .

والطائف بلد كبير على ثلاث مراحل من مكة ومن جهة المشرق . ويتميز بجمال طبيعته وكثرة زروعه وجودة أعنابه ، وكانوا ومايزالون يقولون . . . هو متنزه الحجاز .

وتسميته بالطائف يعللها بعضهم - كما جاء فى القاموس - بأن نوحا عليه السلام طاف بها على الماء أثناء الطوفان . . أو لأن جبريل طاف بها على البيت . .

ولعل أقرب التعليلات فى ذلك أن رجلا من الصَّدف أصاب دما بحضر موت - ففر الى ذلك المكان وكان المكان يسمى « وج » باسم شخص من العماليق نزل به ، فقال ذلك الحضرمى الذى حالف مسعود بن معتب وكان ذا مال عظيم : هل لكم فى أن أبنى لكم طوفا عليكم يكون لكم ردءا من العرب ؟

قالوا : نعم

فبناه وهو الحائط المطيف به .

وأغرب هذه التعليلات ماذكره بعضهم : أن جبريل ـ عليه السلام ـ اقتلع الجنة التي كانت بصوران على فرسخ من صنعاء .... فوضعها فى ذلك المكان ، وسميت بالطائف لما فى قوله ـ تعالى :

إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ (١٨٣)

أو لأنه طاف بها حول البيت قبل أن ينزلها فى هذا المكان .

وقد سبق أن تحدثنا عن قصة أصحاب الجنة . فيما مضى من هذه السلسلة(١٨٤) .

كيف عمرت الطائف ؟

والاستطراد يدعونا إلى ذكر بعض الأخبار الطريفة حول تعمير الطائف بالثمر والبشر . ذكر أبوعبيد البكرى قال : إن قيس بن منبه أصاب دما فى قومه « إياد » ففر الى الحجاز ، فمر بيهودية فآوته ، وأقام عندها زمانا ، ثم انتقل ، فأعطته قضبا وأمرته بغرسها .

---

(١٨٣) القلم ١٧ : ١٩

(١٨٤) المجلد الخامس صـ ١٨٩

فأتى بلاد عدوان ـ وكانوا يسكنون فى ذلك المكان الذى سمى الطائف بعد فمر فى طريقه بجارية لعامر بن الظرب العدوانى اسمها « سخيلة » وكانت ترعى غنما فأراد سباءها وأخذ الغنم التى ترعاها ، فقالت له : ألا أدلك على ماهو خير من ذلك ؟

قال : بلى .

قالت : أقصد سيدى ، وجاوره ، فإنه أكرم الناس .

فأتاه قيس فأكرمه عامر ، وزوجته ابنته زينب .

وكانت هناك حروب ثائرة بين قبائل عدوان ، اضطرتها للجلاء عن الطائف . . . .

فأقام قيس مكانه وكان قد زرع القضب التى أعطتها له اليهودية ، فتناسل أهل الطائف من قيس ، ونما العنب الذى زرعه وأثمر .

وقيس هذا هو الذى أطلق عليه « ثقيف » .

وكان قد سمى قيسا لقساوة قلبه لأنه قتل أخا له وابن عم له .

وسمى ثقيفا لقولهم فيه : ماأثقفه حين ثقف عامر بن الطرب حتى أمنه وزوجه ابنته والتثقيف هو التقويم .

أما تسمية هذا المكان « وج » قبل أن يسمى الطائف فذلك لأن رجلا من العماليق اسمه وج بن عبدالحى كان أول من نزل فى هذا المكان وأقام فيه ، قال الشاعر :

أتهدى لى الوعيد ببطن وج كأنى لا أراك ولا ترانى[١٨٥] .

---

(١٨٥) شرح المواهب اللدنية للزرقانى حـ٣ صـ ٢٩

مسير المسلمين الى الطائف

وكان النبى ﷺ عقب علمه بإصابة خالد فى حنين سأل عنه وتفقد جرحه الذى أصيب به ، ثم مسح عليه فقام خالد وكأن لم يصب بشيء ..... واستمر فى جهاده ، فلما عزم النبى ﷺ على المسير إلى الطائف استدعى خالدا وجعله على مقدمة الجيش ، وكان له فى ذلك موقف مشهود .

وسار النبى ﷺ بجيشه كله الذى كان معه فى حنين الى الطائف ..... وكان ذلك فى شوال من العام الثامن ، وقيل : وصل إلى الطائف فى أول ذى القعدة .

وتهيأت ثقيف للقاء النبى ﷺ من وراء حصونها وقد أعدت سهامها وجمعت قضبا من حديد وحجارة كبيرة ، وأغلقوا أبواب الحصون وكانت شديدة منيعة .

وفى الطريق إلى الطائف مر المسلمون بقبر يعرفه العرب بأنه قبر « أبى رغال » .

وكثير من الناس فى ذلك الوقت كانوا يعرفون عن ـ أبى رغال ـ أنه الرجل الذى أرسلته ثقيف مع أبرهة الحبشى حين أراد غزو مكة ، ليدله على الطريق إليها ، فمات ودفن فى هذا الموضع ، فكان الناس يرجمون قبره لذلك .... وفى ذلك يقول شاعرهم :

« كما يرمون قبر أبى رغال »

ولكن النبى ﷺ يصحح هذه المعلومة للناس فيقول فيما أخرجه ابن إسحاق وأبو داود والبيهقى ـ عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال : سمعت رسول الله ﷺ ـ يقول ـ حين خرجنا معه الى الطائف فمررنا بقبر ، فقال :

هذا قبر أبي رغال ، وهو أبو ثقيف ، وكان من ثمود ، كان بهذا الحرم يدفع عنه ، فلما خرج أصابته النقمة التي أصابت قومه بهذا المكان فدفن فيه ، وآية ذلك أن دفن معه غصن من ذهب ، إن أنتم نبشتم أصبتموه .

قال : فابتدره الناس فاستخرجوا الغصن[186] .

قال الزرقاني : ويخطىء من قال : إن أبا رغال هذا هو دليل أبرهة حين مر على الطائف إلى مكة ، فان بين مولده ﷺ - الذى كان عام الفيل - وبين هلاك ثمود ألوفا من السنين ، وإنما دليل أبرهة شاركه فى الاسم .

وسلك النبى - ﷺ - طريقاً كانوا يقولون لها : الضَّيْقَة ، فلما توجه فيها سأل عن اسمها فقال : ما اسم هذه الطريق ؟

فقيل له : الضيقة

فقال : بل هى اليُسْرَى - أى السهلة .

كان النبى - ﷺ - يتفاءل بالأسماء ، ويغير منها ما لايعجبه .

ثم خرج منها حتى نزل تحت سدرة يقال لها : الصادرة - . . . قريبا من مال رجل من ثقيف .

فأرسل النبى - ﷺ - يقول له : « اخرج إلينا من حائطك » .

فأبى الرجل أن يخرج فأمر النبى بالهجوم على حائطه . .

كان الهدف من ذلك إرهاب العدو وإنزال الرعب فى قلبه ، وقطع المعونة والمدد عنه .

---

(١٨٦) شرح المواهب اللدنية جـ٣ صـ٢٩

نزول النبى بالطائف

وعسكر النبى - ﷺ - حول حصون الطائف ، وكان معه من زوجاته أم سلمة وزينب - رضى الله عنهما - فضرب لكل منهما قبة ، وكان يصلى بين القبتين - وأصبح مكان مصلاه فيها بعد مسجداً عظيماً ، أنشأته ثقيف بعد أن أسلمت وهداها الله الى الإيمان .

والذى أنشأ هذا المسجد عمرو بن أمية بن وهب بن معتب . . . . وتلقى الثقفيون المسلمين بوابل من النبل ، وكانوا قد أعدوا زهاء مائة رام حول أبراج الحصن ، وانطلقت سهامهم دفعة واحدة كأنها الجراد المنتشر .

وكان عمرو بن أمية الذى أنشأ المسجد - فيها بعد - ما زال على شركه ، وقد نصح قومه قائلا : إياكم والخروج إلى محمد وأصحابه ، وإن دعاكم أحد الى المبارزة فلا تجيبوا . .

خالد يدعو للمبارزة ويحذرهم :

ودعا خالد أهل ثقيف فعلا إلى المبارزة فرفضوا . ونادى مرة أخرى فلم يستجيبوا . .

وكان عبد يا ليل بن عمرو الثقفى قد رد على خالد قائلا : يا خالد ، لن ينزل إليك أحد ، ونحن مقيمون فى حصننا ، وقد أعددنا فيه ما يصلحنا سنين ، فإن أقمت حتى يذهب ذلك الطعام الذى جمعناه خرجنا إليك بأسيافنا حتى نموت عن آخرنا . .

كان هذا الرد من عبد يا ليل - يعنى أن ثقيفا قد قررت المقاومة ، والقتال بطريقتها هى لا بالطريقة التى يريدها خالد .

كان الثقفيون أهل عناد ، وقد جربهم النبى - ﷺ - قبل ذلك فى محاولته - بعد موت أبى طالب - الاستنجاد بهم كى يناصروه فى تبليغ رسالة ربه ، ولكنهم قابلوه أسوأ مقابلة ، وأغروا به سفهاءهم وولدانهم يرجمونه بالأحجار ويسمعونه قوارص الكلام .

ولم تلفح الأيام فى تخفيف حدة هذا الكفر ، بل ازدادوا عتوا واستكبارا . وكانوا إلى جانب ذلك فيهم غرور ، فقد قالوا فيما قالوا لخالد حين أراد محادثتهم قبل أن يقاتلهم ، وقال لهم : إما أن ينزل أحدكم أكلمه وهو آمن حتى يرجع ، أو أن تجعلوا لى مثل ذلك وأدخل عليكم أكلمكم . قالوا له : لا ينزل إليك رجل منا ولا تصل إلينا يا خالد . إن صاحبكم لم يلق قوما يحسنون قتاله غيرنا .

فقال لهم خالد : تذكروا أن رسول الله - ﷺ - نزل بأهل الحصون والقوة بيثرب وخيبر ، فهزمهم . . . وبعث رجلا واحدا الى فدك ، فنزلوا على حكمه ، وأنا أحذركم مثل يوم قريظة ويوم خيبر - حوصروا أياما ثم نزلوا على حكمه ، فقتل مقاتلهم فى صعيد واحد ، ثم فتح مكة ، وأوطأ هوازن فى جمعها ، وإنما أنتم فى حصن فى ناحية من الأرض لو ترككم لقتلكم من حولكم ممن أسلم .

قالوا - فى إصرار وعناد - لا نفارق ديننا .

كان هذا إصرارا منهم على المقاومة وتهديدا فى الوقت نفسه .

رميهم بالمنجنيق :

وكان لابد من استعمال طريقة غير تقليدية فى القتال - قال سلمان الفارسى : المنجنيق يا رسول الله . .

وكان سلمان هو صاحب فكرة الخندق يوم الأحزاب كما عرفنا ، وكان رأيه ميمونا .

وها هو ذا يخرج اليوم بفكرة جديدة أيضا - قال : يا رسول الله إنا كنا بأرضنا ننصب المنجنيق على الحصون ، وتنصب علينا ، فنصيب من عدونا ويصيب منا ، وإن لم يكن منجنيق طال الثواء - أى الإقامة -
قالوا : وعمل سلمان منجنيقا بيده . وكان أول منجنيق رمى به فى الاسلام . هكذا يقول البعض . . ولكننا إذا التفتنا الى الوراء قليلا تذكرنا أن الطفيل الدوسى حين أرسله النبى - ﷺ - لاحراق الصنم المعروف بذى الكفين عاد بقومه ومعهم دبابة ومنجنيق .

إلا أن هذا لا يمنع أن يكون سلمان قد صنع منجنيقا أيضا ، وأن الطفيل قد أتى بآخر .

ولعلنا نتذكر أيضاً أن النبى - ﷺ - حين حاصر خيبر ، عثر فى أحد حصونها على آلات حرب منها المنجنيق . . . ولكن هذه الآلات لم يصحبها المسلمون معهم الى مكة .

ونصب المسلمون المنجنيق حول حصون الطائف ، ولكنه لم يحقق الهدف المطلوب . فقد ضاعفت ثقيف من رميها بالنبال فوق المسلمين فأصابت منهم عددا .

وفكر المسلمون فى ثقب أحد الحصون عن طريق دبابة صنعوها ، ولكن ثقيفا أرسلت عليهم قضب الحديد المحماة فأحرقت الدبابة ، وأصابت من فيها .

الأمر بقطع النخيل .

وأراد بعض المسلمين أن يغيظ أهل ثقيف بقطع ثمارهم . . . وشرعوا فى ذلك ، ولكن ثقيفا ناشدوا النبى أن يترك ذلك للرحم .

وكانت الرحم التى ناشدوه بها تتمثل فى أن أمة آمنة بنت وهب كانت أمها وهى برة بنت عبد العزى لها قرابة تربطها بثقيف من جهة أمها .

وهو نسب بعيد ، ولكن النبى ـ ﷺ ـ راعاه ولم يقطعه ـ فى الوقت الذى لم يراع هؤلاء الثقفيون يوم لجأ اليهم ـ نسبا ولا مروءة ولا إنسانية . ولكنه الأدب العالى الذى يتميز به النبى ـ ﷺ ـ والرحمة الشاملة التى طبع عليها .

تحريض العبيد على الفرار .

ونادي النبى ـ ﷺ ـ عبيد أهل ثقيف قائلا : أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر .

وكانت هذه فرصة أغرت العبيد بالحرية والتخلص من حياة الذل والعبودية . فخرج بضعة عشر رجلا أو أكثر فارين بأنفسهم الى رسول الله ـ ﷺ ـ فأعتقهم . فأسلموا .

ودفع النبى - ﷺ - كل رجل من هؤلاء إلى رجل من أصحابه يمونه ، فغاظ ذلك ثقيفا .

محاولة لأبي سفيان والمغيرة

وتقدم أبو سفيان بن حرب والمغيرة بن شُعْبة إلى الطائف وناديا ثقيفا أن أمنونا حتى نكلمكم .

فأمنوهما ، فدعوا نساءً من نساء قريش وبنى كنانة ليخرجن إليهما . وكانا يخافان عليهن السباء لو تمكن المسلمون من فتح الحصن . وكان منهم آمنة بنت أبي سفيان ، وكانت عند عروة بن مسعود الثقفى وله منها ولد اسمه داود بن عروة . . . .

ولكن هؤلاء النسوة أبين على أبي سفيان والمغيرة الخروج من الحصن .

فلما أبيْن ذلك قال ابن الأسود بن مسعود لأبي سفيان والمغيرة : ألا أدلكما على خير مما جئتما لأجله ؟

قالا : بلى .

قال : إن مال بني الأسود بن مسعود حيث قد علمتما ، وليس بالطائف مال أبعد رشاءً ولا أشد مئونة ولا أبعد عمارة من مال بنى الأسود . . . فكلما محمداً ، فليأخذه لنفسه ، أو ليدعه لله والرحم - فإن بيننا وبينه من القرابة مالا يجهل .

لقد خشى ابن الأسود على هذا المال أن يتلفه المسلمون إغاظة لبنى ثقيف . فأراد أن يبقى هذا المال بدون إتلاف ، وهو إما لـمحمد - ﷺ - أو لأصحاب المال إن أراد ذلك .

وكلم أبو سفيان والمغيرة النبى - ﷺ - فى ذلك فتركه ولم يتعرض له . .

رؤيا النبى

وطال الحصار ورأى - ﷺ - رؤيا قصها على أبى بكر رضى الله عنه - قال له : ياأبا بكر إنى رأيت أنى أُهْدِيتَ إلىّ قعبة - قدح - مملوءة زبداً - فنقرها ديك فهراق - أراق - مافيها . .

فقال أبو بكر - رضى الله عنه - : ما أظن أن تدرك منهم يومك هذا ماتريد .

فقال النبى - ﷺ - وأنا أيضا لا أرى ذلك - أى لا أرى أنى أدرك ماأريد .

النبى يستشير

وأراد النبى - ﷺ - أن يستشير أهل الخبرة عن ثقيف ، فاستدعى نوفل ابن معاوية الديلى . فقال له : يانوفل ، ماترى فى المقام عليهم ؟

فقال : يارسول الله ، هم ثعلب فى جحر إن أقمت عليه أخذته ، وان تركته لم يضرك .

وكانت الرؤيا التى رآها النبى - ﷺ - مع موافقة الاستشارة لها إيذانا بفض الحصار والعودة إلى المدينة .

لقد رجا النبى - ﷺ - أن تأتى ثقيف مذعنة بدون قتال ، وأن تسلم لله رب العالمين دون أن يتكلف المسلمون مئونة الحصار والانتظار . فلم يبق إلا التهيؤ للرحيل .

وقالت له خوله بنت حكيم السلمية ـ وهى زوجة عثمان بن مظعون : يارسول الله ـ أعطنى إن فتح الله عليك الطائف حُلِيّ بادية بنت غيلان الثقفى أو حلى الفارعة بنت عقيل ، وكانت من أحلى نساء ثقيف .

فقال النبى ـ ﷺ ـ وإن كان لم يؤذن لنا فى ثقيف ياخولة ؟

فذكرت خولة هذا الحديث لعمر ـ رضى الله عنه ـ

فجاء عمر إلى رسول الله ـ ﷺ ـ يقول له : ماحديث حدثتنيه خولة بنت حكيم زعمت أنك قلته ؟

قال النبى ـ ﷺ ـ : قلته .

قال عمر : أو ماأذنت فيهم ؟

فقال : لا

قال عمر : أفلا أؤذن بالرحيل ؟

قال : بلى .

فأذن عمر بالرحيل بين الناس . فضجوا وقالوا : نرحل ولم يفتح علينا الطائف ؟

فقال النبى ـ ﷺ ـ فاغدوا إلى القتال .

فغدوا ، فأصابتهم جراحات كثيرة ، وهرعوا إلى النبى ـ ﷺ ـ يقولون : يارسول الله ، أصابتنا نبال ثقيف ، فادع الله عليهم .

فرفع النبى ـ ﷺ ـ يديه وجعل يقول : اللهم اهد ثقيفا وائت بهم مسلمين .

ثم قال النبي - ﷺ - : إنا قافلون إلى المدينة غدا إن شاء الله - تعالى - .

فسروا بذلك ، وأذعنوا ، وجعلوا يجهزون رحالهم ، والنبى - ﷺ - يضحك تعجبا من سرعة تغير رأيهم .

ولما أصبحوا ارتحل النبى - ﷺ - ودعا حين ركب قائلا : اللهم اهدهم واكفنا مئونتهم . .

وقد حَدَث حين طلب المسلمون الاستمرار فى الحصار بعد أن أذن عمر بالرحيل - وتهيأوا للقتال ورمتهم ثقيف بالسهام - حديث أن أصيبت عين أبى سفيان بن حرب ، فذهب إلى النبى - ﷺ - فقال : يارسول الله - هذه عينى أصيبت فى سبيل الله .

فقال له النبى - ﷺ - أيهما أحب إليك - عين فى الجنة ، أو أدعو الله أن يردها عليك ؟

فقال أبو سفيان : بل عين فى الجنة .

وصبر واحتسب ، وكأنه قد أراد أن يكفر بذلك عن سابق ماصنعه فى عداوته مع رسول الله - ﷺ -

وأصيبت عينه الأخرى يوم اليرموك ، وهو يجاهد فى سبيل الله تحت راية ابنه يزيد ، وتحت إمرة خالد بن الوليد ، وكان يدعو الله قائلا فى ضراعة :

الله الله عباد الله ، انصروا الله ينصركم ، اللهم هذا يوم من أيامك اللهم أنزل نصرك على عبادك .

مأشد ماتغيرت أحوال أبى سفيان ، لقد هداه الله بعد طول عناد للنبى

- ﷺ - وعداء للاسلام - ويشاء الله أن يجعل أعتى الأعداء من أصدق الأولياء بمنه وكرمه .

وكثير من مسلمة الفتح صاروا بعد ذلك هداة مهديين وجنودا مخلصين ومجاهدين ناجحين .

ومما يؤثر فى توقع بعض الناس إسلام أبى سفيان أيام أن كان يعادى الاسلام بكل ماأوتى من قوة - مايرويه القزوينى فى تاريخ قزوين عن ابن عباس رضى الله عنهما - قال : لطم أبو جهل - فى مكة قبل الهجرة - فاطمة - رضى الله عنها - فشكت ذلك لأبيها - ﷺ -

فقال لها : ائت أبا سفيان فأخبريه فأتته فأخبرته ، فأخذ بيدها حتى وقف على أبى جهل ، وقال لها : الطميه كما لطمك . ففعلت .

فجاءت إلى النبى - ﷺ - فأخبرته .

فرفع يديه - ﷺ - وقال : اللهم لا تنسها لأبى سفيان .

قال ابن عباس : ماشككت أن إسلامه إلا لدعوة النبى - ﷺ - .

خبر عيينة بن حصن

وذكر بعضهم أن عيينة بن حصن الفزارى استأذن النبى - ﷺ - أن يأتى ثقيفا ناصحا لهم - فأذن له . واستقبله الثقفيون استقبالا حسنا ، ولم يرفضوا لقاءه كما رفضوا لقاء غيره .

وربما أذن الثقفيون له دون غيره ، لما يعرفونه عنه من موقفه المعاند فترة طويلة للإسلام ، أو لما يعرفونه من طويته التى لم تصف بعد للمسلمين ،

وقد كان أحد المؤلبين على النبى - ﷺ - يوم الأحزاب ، ومازال موقفه متقلبا .

وانطلق عيينة إلى الطائف والتقى بأهلها ، ولكنه بدلا من أن يدعوهم إلى الاستسلام والدخول فى دعوة الاسلام قال لهم : تمسكوا بحصنكم فو الله لنحن أذل من العبيد ، وزاد بعضهم أنه قال : ولا تعطوا بأيديكم ولا تتأثروا بما قطع من شجركم وثماركم .

وعاد إلى النبى - ﷺ - فقال له : ماقلت ياعيينة ؟

قال : أمرتهم بالإسلام ودعوتهم إليه ، وحذرتهم من النار ، ودللتهم على الجنة .

فقال له رسول الله - ﷺ - كذبت ياعيينة ، إنما قلت لهم كذا . . وقص عليه ماقال . فقال : صدقت يارسول الله ، أتوب إلى الله وإليك من ذلك(١٨٨)

ويحك ياعيينة ، اتظن أن الله يخفى عليه ختلك ونفاقك ؟ ألم تأخذ عظة من كل الأحداث التى مرت أمامك طول حياتك ؟ . . . وقد فضحه النبى - ﷺ - الآن فهل أقلع عن نفاقه ؟

أبدا . فقد ظهر نفاق عيينة واضحاً حين أذن عمر بالرحيل بين الناس . فلما استقل الناس - نادى سعيد بن عبيد بن أسيد بن أبى عمرو بن

---

(١٨٨) السيرة الحلبية جـ٣ صـ٨١

علاج : ألا إن الحى مقيم .

فقال عيينة بن حص : أجل والله مجدة كراما .

فقال له رجل من المسلمين : قاتلك الله ياعيينة - أتمدح المشركين بالامتناع من رسول الله - ﷺ - وقد جئت تنصره ؟

فقال : إنى والله ماجئت لأقاتل ثقيفا معكم ، ولكنى أردت أن يفتح محمد الطائف ، فأصيب جارية تلد لى رجلاً ، فإن ثقيفا قوم مناكير[١٨٩] .

لقد ظهر من هذا الحوار موقف عيينة - من الاسلام ، وهو يشير إلى أنه لم يكن صادقاً فى إسلامه ، ولكنه كان منافقا - يظهر الدين ويبطن غير ذلك ، وقد كان النبى - ﷺ - يتألفه لمكانه من قومه ، فقد كان أحد الحمقى المطاعين ، كان يطيعه على الرغم من حمقه - عشرة آلاف رجل . .

من طرائف ماحدث

ومن طرائف ماحدث فى تلك الغزوة أنه كان مع المسلمين أثناء حصار الطائف مولىً كانوا يظنون أنه معتوه أبله . . قيل : إن اسمه ماتع .

فسمعه النبى - ﷺ - وهو يقول لخالد بن الوليد ، أو لعبد الله بن أبى أمية ؛ إن فتح الله عليكم الطائف غدا - فعليك ببادية بنت غيلان ، فإنها تقبل بأربع وتدبر بثهان ، إذا قامت ثنت ، وإن جلست تبنت ، واذا تكلمت تغنت . .

---

(١٨٩) سيرة ابن هشام حـ ٤ صـ ١٠٠ وقوم مناكير - أى أصحاب أجسام وقوة

فقال له - ﷺ - ؟ قاتلك الله - ماكنت أظن هذا الخبيث يعرف شيئاً من أمر النساء .

وأمر ألا يدخل هذا المولى الخبيث وأمثاله بيوت المسلمين ، ونفاه إلى الحِمَى ، فقيل له : يارسول الله إنه يموت جوعا ، فأذن له أن يدخل المدينة كل جمعة يأخذ قوته .

وقد أشار القرطبى إلى قصة هذا المولى عند تفسيره لقوله - تعالى -

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ (١٩٠)

وذكر أن اسمه « هيت » قال : وقد ذكر محاسن المرأة - التى ذكرناها سابقا - ثم قال : وهى كما قال قيس بن الخطيم : -

تغترق الطرف وهى لاهية كأنما شف وجهها نزف(١٩١)
بين شكول النساء خلقتها قصد فلا جبلة ولا قضف(١٩٢)
تنام عن كبر شأنها فإذا قامت رويدا تكاد تنقصف(١٩٣)

---

(١٩٠) النور ٣١

(١٩١) النزف - بضم فسكون - وحرك لضرورة الشعر : خروج الدم . أراد أن فى لونها بياض مع صفرة

(١٩٢) الشكول : الضروب والأنواع ، قصد : متوسطة ، جَبْلَة : غليظة وقضف : دقيقة قليلة اللحم

(١٩٣) كبرشأنها : شئونها المهمة - كانوا يمتدحون المرأة بكثرة نومها لأن هناك من يقوم بأمرها ، ورويدا : متمهله

فقال له النبى - ﷺ - : لقد غلغلت النظر إليها ياعدو الله . وأجلاه عن المدينة .

وكان هيت أو مانع هذا مولى لعبدالله بن أمية المخزومى ، وكان له مولى آخر اسمه طويس - اشتهر بالغناء ، وأول من غنى بالمدينة .

وظل هيت منفيا فى عهد النبى وأبى بكر وعمر ، حتى جاء عثمان فقيل له : كبر وضعف ، فأذن له . وسيأتى الحديث عن طرائف أخرى بعد ذلك .

الذين أصيبوا من المسلمين فى الطائف

وأصيب من المسلمين فى الطائف اثنا عشر رجلا من قريش هم : سعيد بن سعيد بن العاص بن أمية ، وعرفطة بن جناب ، وعبدالله ابن أبى بكر الصديق - رضى الله عنهما - أصيب بسهم فمات منه بالمدينة بعد وفاة رسول الله - ﷺ .

وعبدالله بن أبى أمية بن المغيرة - شقيق أم سلمة - رضى الله عنه - وعبدالله بن عامر بن ربيعة من بنى عدى ، والسائب بن الحارث بن قيس بن عدى ، وأخوه عبدالله بن الحارث وهما من بنى سهم ، وجليحة بن عبدالله وهو من بنى سعد بن ليث .

واستشهد من الأنصار : ثابت بن الجذع ، والحارث بن سهل بن أبى صعصعة ، والمنذر بن عبدالله ، ووقيم بن ثابت بن ثعلبة . .

وعاد النبى - ﷺ - الى الجعرانة التى كان قد ترك فيها غنائم هوازن ، وقد

غاب فى حصار الطائف ثمانية عشر يوما فى بعض الأقوال - وهو المشهور -

وكان يردد والمسلمون يرددون فى أثناء الإقامة : لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده .

فلما ارتحلوا واستقبلوا قال لهم قولوا: آيبون ، تائبون ، عابدون ، لربنا حامدون .

تقسيم الغنائم

وقفل النبى - ﷺ - عائداً إلى الجعرانة حيث ترك غنائم هوازن بها .

والجعرانة : بكسر الجيم وسكون العين المهملة وتخفيف الراء وبكسر العين وتشديد الراء أيضاً .

وأصحاب الحديث يكسرون عينه ويشددون راءه .

وأهل الأدب يخطئونهم ويسكنون العين ويخففون الراء .

وهى ماء بين مكة والطائف ، وهى إلى مكة أقرب .

وفيها مسجد للنبى - ﷺ - أنشىء بعد ذلك ، تيمنا بإقامة النبى - ﷺ - فى المكان - وهى من مكة على بريد من طريق العراق - وبها بعض الآبار المتقاربة . . (١٩٤)

وكان النبى - ﷺ - قد جعل على الغنائم مسعود بن عمرو الغفارى . . وقيل جعل عليها أكثر من واحد .

---

(١٩٤) دلائل النبوة للبيهقى حـ ٥ صـ ١٩٠ نقلا عن الزرقانى

وحرص النبى - ﷺ - على أن يعلم الناس الأمانة والقناعة معا . ويحذرهم من الغلول ، فأمر مناديه أن ينادى قائلا : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يغل .

لقد أراد أن يحذرهم مما حدث فى بدر ، حيث فقدت قطيفة حمراء فأنزل الله - تعالى -

﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦١) ﴾ (١٩٥)

ونزلت هذه الآية مشيرة إلى أن النبى - ﷺ - الذى من حقه أن يأخذ ما يشاء لا ينبغى له أن يأخذ شيئا من الغنيمة بغير حق - فما بالك بسواه ؟

وروى أحمد وابن ماجة والحاكم بسند صحيح عن ابن عمر - رضى الله عنهما - أن النبى - ﷺ - أخذ يوم حنين وبرة من سنام بعير من الغنائم ، فجعلها بين إصبعيه ثم قال :

« يأيها الناس إنه لا يحل لى مما أفاء الله عليكم قدر هذه إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم ، فأدوا الخياط والمخيط ، وإياكم والغلول فإن الغلول عار ونار وشنار على أهله فى الدنيا والآخرة - فجاء أنصارى بكبة من خيوط شعر فقال : يارسول الله ، هذه الوبرة لأخيط بها بردعة بعير لى دبر (١٩٦)

---

(١٩٥) آل عمران ١٦١

(١٩٦) دبر : جرح ظهره

فقال - ﷺ - أما ما كان لى ولبنى عبدالمطلب فهو لك .

فقال الرجل : أما إذا بلغ الأمر فيها ذلك فلا حاجة لى بها . فرمى بها من يده .

قالوا : وكان عقيل بن أبي طالب قد دخل على زوجته فاطمة بنت شيبة يوم حنين ، وسيفه ملطخ دما فقال : دونك هذه الإبرة وهذا الشعر تخيطين بها ثيابك . ودفعها إليها . فسمع المنادى يقول : من أخذ شيئا فليرده حتى الخياط والمخيط ، فرجع عقيل فأخذها فألقاها فى الغنائم[١٩٧]

ولعل هذا الخبر - إن صح - وإن كان العقل يستبعده - يرد على من يقول عن عقيل بن أبي طالب : إنه شهد غزوة ، مؤته ثم رجع فعرض له مرض فلم يسمع له بذكر فى غزوة الفتح ولا حنين ولا الطائف[١٩٨] .

كثرة الغنائم

وكانت الغنائم شيئاً كثيراً لا يكاد يحصر ويقال : إنه بلغ أربعة وعشرين ألفا من الإبل الغنم أكثر من أربعين ألفا ، وأربعة آلاف أوقية من الفضة .

وأخذ النبى - ﷺ - يعطى المؤلفة قلوبهم من أهل مكة وغيرهم من الأعراب .

فأعطى أبا سفيان بن حرب أربعين أوقية ومائة من الإبل ، وقال : ابنى يزيد فأعطاه النبى كذلك ، فقال : ابنى معاوية فأعطاه كذلك .

---

(١٩٧) المواهب اللدنية حـ٣ صـ٣٦ سيرة ابن هشام حـ٤ صـ١٠٧

(١٩٨) أسد الغابة حـ٤ صـ٦٤

وقد ولد فى الكعبة المشرفة ، دخلت أمه الكعبة فى نسوة من قريش وهى حامل به فأخذها الطلق فولدته بها .

فقال أبوسفيان : بأبى أنت وأمى يارسول الله ، لأنت كريم فى الحرب وفى السلم .

وأعطى حكيم بن حزام مائة من الإبل ، ثم سأله فأعطاه ، ثم سأله فأعطاه ثم قال له : « ياحكيم - إن هذا المال خضرة حلوة ، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه ، وكان كالذى يأكل ولا يشبع ، واليد العليا خير من اليد السفلى »

فقال حكيم : يارسول الله والذى بعثك بالحق لا آخذ من أحد بعدك شيئاً ، فكان أبوبكر - رضى الله عنه - يدعو حكيما ليأخذ عطاءه فيأبى ، ثم إن عمر - رضى الله عنه - دعاه ليأخذ عطاءه فأبى ، فقال عمر : يامعشر المسلمين إنى أعرض على حكيم حقه فيأبى أن يأخذه .

لقد أراد عمر أن يشهد عليه حتى لا يخاصمه أمام الله يوم القيامة . . وكان النبى - ﷺ - حكيما فى هديه ، يعطى ويرشد ، وقد استجاب حكيم ابن حزام - رضى الله عنه للإرشاد .

ولم يكتف - فيما يقال - عن الامتناع عن الأخذ ، بل تصدق بما أخذ . وهذا هو الزهد والإيثار بعينه .

وحكيم بن حزام هو ابن أخى خديجة بنت خويلد زوج النبى - ﷺ - وابن عم الزبير بن العوام .

وكان مولده قبل الفيل بثلاث عشرة سنة ، وعاش مائة وعشرين عاما وتوفى سنة أربع وخمسين من الهجرة .

ويشاركه فى طول العمر هذا حسان بن ثابت الأنصارى - رضى الله عنه - وحسن إسلام حكيم . . . وقد حج ومعه مائة بدنة قد جللها بالحبرة[199] أهداها ، ووقف بمائة - عبد - بعرفة فى عنق كل منهم طوق من فضة منقوش عليه - عتيق الله عن حكيم بن حزام ، وأهدى كذلك ألف شاة .[200]

عطاؤه لصفوان بن أمية

وأعطى النبى - ﷺ - صفوان بن أمية قطيعا من الإبل والغنم جعل صفوان ينظر إليه فقال له النبى - ﷺ - : أيعجبك هذا يا أبا وهب ؟

قال : نعـــم .

قال : هو لك

فقال صفوان : ما طابت بذلك إلا نفس نبى - وقال : مازال يعطينى - ﷺ - من غنائم حنين وهو أبغض الخلق إلىّ ، حتى أصبح وما خَلقَ الله - تعالى - شيئاً أحب إلىّ منه -

عطاءه للعباس بن مرداس

كان هناك رجال أخذ كل منهم مائة من الإبل

---

(١٩٩) الحبرة بزنة عتبة - ثوب يمان من قطن أو كتان مخطط

(٢٠٠) أسد الغابة حـ٢ صـ٤٥

وهناك رجال أخذوا دون ذلك .

ومن الذين أخذوا مائة من الإبل عيينة بن حصن ، والأقرع بن حابس ، وأخذ العباس بن مرداس دون المائة فقال :

كانت نهاباً تلافيتها ... بكرى على المهر فى الإجرع[201]
وإيقاظى القوم أن يرقدوا ... إذا هجع الناس لم أهجع
فأصبح نهبى ونهب العبيد ... بين عيينه والأقرع[202]
وقد كنت فى الحرب ذا تدرأ ... فلم أعط شيئا ولم أمنع[203]
إلا أفَائل أعطيتها ... عديد قوائمه الأربع[203]
وما كان حصن ولا حابس ... يفوقان مرادس فى المجمع
وما كنت دون امرىء منهما ... ومن تضع اليوم لا يرفع

فقال رسول الله - ﷺ - : اقطعوا لسانه ، فأعطوه حتى رضى - وقطع اللسان كناية عن إسكاته عن السخط بالعطاء .

---

(٢٠١) الأجرع : المكان الواسع

(٢٠٢) العبيد : تصغير عبد وهو اسم فرسه

(٢٠٣) ذو تدرأ : ذو هجوم عنيف

من هم المؤلفة قلوبهم

لم يرد للمؤلفة قلوبهم ذكر فى القرآن إلا فى آية الصدقة وهى قوله ـ تعالى ـ

﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ [٢٠٥]

فقد جعل الله ـ تعالى ـ المؤلفة قلوبهم أحد مصارف الزكاة ، فأصبحوا قسما بذاته من الأقسام الثمانية التى تصرف فيها أموال الزكاة .

وأصبح ذلك حقا مقرراً لفئة من الناس .

والمؤلفة قلوبهم كما يقول ابن كثير أقسام :

منهم من يعطى ليسلم ، كما أعطى النبى ـ ﷺ ـ صفوان بن أمية من غنائم حنين ـ وقد كان شهدها مشركا ـ قال : فلم يزل يعطينى النبى حتى صار أحب الناس إلىّ بعد أن كان أبغض الناس إلىّ [٢٠٦]

ومنهم من يعطى ليحسن إسلامه ويثبت قلبه ، كما أعطى النبى ـ ﷺ ـ يوم حنين جماعة من صناديد الطلقاء ورؤسائهم مائة من الإبل .

وقال :

---

(٢٠٤) أفائل : صغار الابل

(٢٠٥) التوبة ٦٠

(٢٠٦) رواه الامام أحمد

« إنى لأعطى الرجل وغيره أحب إلىَّ منه مخافة أن يكبه الله على وجهه فى نار جهنم[٢٠٧] »

وفى الصحيحين عن أبى سعيد أن عليا بعث إلى النبى - ﷺ - بذهبية فى تربتها من اليمن ، فقسمها بين أربعة نفر : الأقرع حابس وعيينه بن بدر ، وعلقمة بن علاثة ، وزيد الخير ، وقال : أتألفهم[٢٠٨] »

ومنهم من يعطى لما يرجى من إسلام نظرائه .

ومنهم من يعطى ليدفع عن حوزة المسلمين الضرر من أطراف البلاد[٢٠٩] .

وقال القرطبى : المؤلفة قلوبهم - قوم كانوا فى صدر الإسلام ممن يظهر الاسلام - يتألفون بدفع سهم من الصدقة إليهم لضعف يقينهم .

وقال الزهرى : المؤلفة قلوبهم - من أسلم من يهودى أو نصرانى وإن كان غنيا .

وبعض المتأخرين يقولون : لقد اختلف فى صفة المؤلفة قلوبهم .. فبعضهم يرى أنهم صنف من الكفار يعطون ليتألفوا على الإسلام ، وكانوا لا يسلمون بالقهر والسيف ، ولكن يسلمون بالعطاء والاحسان .

وبعضهم يقول : هم قوم أسلموا فى الظاهر ولم تستيقن قلوبهم ، فيعطون ليتمكن الإسلام فى صدورهم .

---

(٢٠٧) أخرجه البخارى : أبواب الزكاة ، ومسلم : كتاب الزكاة

(٢٠٨) البخارى كتاب الأنبياء ٤ / ١٦٦ ، ومسلم كتاب الزكاة ، باب ذكر الخوارج ٣ / ١٨

(٢٠٩) تفسير ابن كثير حـ ٤ صـ ١٠٨ - أية الصدقات

وبعضهم يرى أنهم قوم من المشركين لهم أتباع يعطون ليتألفوا أتباعهم على الإسلام .

وهى أقوال متقاربة ، والقصد بجميعها الإعطاء لمن لا يتمكن إسلامه حقيقة إلا بالعطاء ، فكأنه ضرب من الجهاد .

قال القرطبى : والمشركون ثلاثة أصناف : صنف يرجع بإقامة البرهان ، وصنف لا يفهم إلا لغة القتال ، وصنف يرجع بالإحسان .

والإمام الناظر للمسلمين يستعمل مع كل صنف ما يراه سببا لنجاته وتخليصه من الكفر[٢١٠] .

أسماء المؤلفة قلوبهم

يرى بعض العلماء أن من المؤلفة قلوبهم حكيم بن حزام ، والحارث بن هشام ، وسهيل بن عمرو ، وحويطب بن عبدالعزى ، وصفوان بن أمية ، والعلاء بن جارية ، ومالك بن عوف ـ وهؤلاء أخذ الواحد منهم مائة من الإبل .

ومن الذين أعطوا دون المائة ـ مخرمة بن نوفل الزهرى ، وعمير بن وهب الجمحى ، وهشام بن عمرو العامرى ، وسعيد بن يربوع ـ أعطى خمسين بعيراً ، وعباس بن مرداس السلمى الذى غضب بسبب قلة ما أخذه .

وأنشد أبياتا فى ذلك سبق أن ذكرناها ـ

---

(٢١٠) تفسير القرطبى جـ ٨ صـ ١٧٩

ومن المؤلفة قلوبهم : النضير بن الحارث بن علقمة ـ وهو أخوا النضر بن الحارث الذى قتل ببدر ، لأنه طالما آذى المسلمين بشعره . وهو الذى رثته قتيلة ابنته وقالت مخاطبة النبى ـ ﷺ ـ :

يا راكبا إن الأثيل مظنة ... من صبح خامسة وأنت موفق[211]

أبلغ بها ميتا بأن تحية ... ما إن تزال بها النجائب تعنق[212]

منى إليه وعبرة مسفوحة ... جاءت لمائحها وأخرى تخنق[213]

ظلت سيوف بنى أبيه تنوشه ... لله أرحام هناك تشقق[214]

أمحمد ولدتك خير كريمة ... من قومها والفحل فحل معرق[215] ؟

ما كان ضرك لو مننت وربما ... مَنَّ الفتى وهو المغيظ المحنق

فالنضر أقرب من قلت قرابة ... وأحقهم إن كان عتق يعتق[216]

فلما بلغت الأبيات رسول الله ـ ﷺ ـ بكى حتى اخضلت لحيته ، وقال : لو بلغنى شعرها قبل قتله لمننت عليه . . . وقوله ـ ﷺ ـ لمننت عليه ـ يدل على أن قتل النضر كان حقا ، وأن عدم قتله لو حدث ـ يكون من قبيل المن عليه . .

---

(٢١١) الأثيل ـ مصغرة ـ ماء قرب بدر ،

(٢١٢) النجائب : جمع نجيبة وهى الناقة ، وتُعْنق : العناق نوع من السير

(٢١٣) مائحها : المائح المستقى

(٢١٤) تنوشه : تتناوله

(٢١٥)تقول : إنك كريم الأبوين

(٢١٦) الأبيات من أسد الغابة جـ ٧ صـ ٢٤١

ويقال : إن النضير أخا النضر حين أمر النبى - ﷺ - باعطائه مائة من الإبل أسرع رجل من بنى الديل يبشره بذلك . وقال له : أحذنى منها .(٢١٧)

فقال له النضير : ما أريد أخذها ، لأنى أحسب أن رسول الله - ﷺ - لم يعطنى ذلك إلا تألفا على الإسلام ، وما أريد أن آخذ شيئا من عرض الدنيا من أجل الإسلام ، لأن الإسلام أعظم من كل شىء يؤخذ من عرض الدنيا . .

ثم قال : والله ما طلبتها ولا سألتها ، وهى عطية من رسول الله - ﷺ - فأخذها ، وأعطى الديلى منها عشرة -

ثم خرج إلى رسول الله - ﷺ - فجلس معه فى مجلسه ، وسأله عن فروض الصلاة ومواقيتها .

قال : فوالله لقد كان أحب إلىّ من نفسى . . . . . وقال له : يارسول الله ، أى الأعمال أحب إلى الله ؟

قال : الجهاد والنفقة فى سبيل الله .

وقال بعضهم : إن النضير بن الحارث لم يكن من مسلمة الفتح ، لأنه أسلم قبل فتح مكة .

بل يقول البعض إنه من السابقين الذين رسخ الإيمان فى قلوبهم .

ولكن الواقدى يؤكد لنا أن النضير بن الحارث لم يكن من السابقين إلى الإسلام كما أشار الخبر السابق ،

---

(٢١٧) أحذنى : أعطنى

ويذكر فيما رواه البيهقى عنه فى دلائل النبوة قوله : « كان النضير بن الحارث من أحلم الناس ، فكان يقول : الحمدلله الذى أكرمنا بالإسلام ، ومنَّ علينا بمحمد - ﷺ - ، ولم نمت على مامات عليه الآباء وقتل عليه الإخوة وبنو العم . . . ثم ذكر عداوته للنبى - ﷺ - وأنه خرج مع قومه من قريش إلى حنين . وهم على دينهم بعد .

قال : ونحن نريد إن كانت دبرة على محمد أن نغير عليه ، فلم يمكننا ذلك ، فلما صار بالجعرانة فوالله إنى لعلى ما أنا عليه . . . فما شعرت إلا برسول الله - ﷺ - تلقانى ، فقال : النضير ؟

فقلت ؛ لبيك .

قال : هذا خير مما أردت يوم حنين ، مما حال الله بينك وبينه .

قال : فأقبلت إليه سريعا .

فقال : قد آن لك أن تبصر ما أنت فيه - تجد وتعمل .

قلت : قد أرى أنه لو كان مع الله غيره لقد أغنى شيئا ، وإنى أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له .

فقال رسول الله - ﷺ - : اللهم زده ثباتا .

قال النضير : فوالذى بعثه بالحق لقد أصبحت من أشد الناس ثباتاً فى الدين وبصيرة بالحق .

فقال رسول الله - ﷺ - : الحمد لله الذى هداك[٢١٨]

---

(٢١٨) دلائل النبوة للبيهقى حـ ٥ صـ ٢٠٥

هل العباس بن مرداس من المؤلفة قلوبهم

ومن المؤلفة قلوبهم ولكنهم أسلموا قبل الفتح ـ العباس بن مرداس السلمى . فإنه قد أسلم قبل الفتح بقليل . وهو ممن حسن إسلامه ، وكان قد قدم على النبى ـ ﷺ ـ فى ثلاثمائة راكب من قومه ، فأسلموا وأسلم قومه ، وله شعر جيد دافع فيه عن الإسلام وأذاع محامده ومن ذلك قوله يوم حنين : ـ

يا خاتم النّبآء إنك مرسل بالحق ، كل هدى السبيل هداكا
إن الإله بنى عليك محبة فى خلقه ومحمداً سماكا
ثم الذين وفوا بما عاهدتهم جند بعثت عليهم الضحاكا

وقوله :

ولكن دين الله دين محمد رضينا به فيه الهدى والشرائع
أقام به بعد الضلالة أمرنا وليس لأمر حمّه الله دافع(٢١٩)

ويقصد العباس بن مرداس ، بالضحاك فى أبياته الأولى ـ الضحاك بن سفيان العامرى .

أسلم وصحب النبى ـ ﷺ ـ وكان ينزل فى بادية المدينة ، وولاه رسول الله ـ ﷺ ـ على من أسلم من قومه .

وكان يقوم على رأس رسول الله ـ ﷺ ـ متوشحا سيفه ، وهو من الشجعان الأبطال ـ يعد وحده بمائة فارس .

---

(٢١٩) سيرة ابن هشام حـ ٤ صـ ٨٤

ولما سار النبى - ﷺ - إلى فتح مكة أمَّره على بنى سليم ، لأنهم كانوا تسعمائة ، فقال لهم رسول الله - ﷺ - : هل لكم فى رجل يعدل مائة يوفيكم ألفا ؟ - أى فتصبحون به ألفا . .

قالوا : نعـم .

فوفاهم بالضحاك وكان رئيسهم . وإنما جعله عليهم ، لأنهم جميعهم من قيس عيلان ولذلك قال العباس بن مرداس :

إن الذيـن وفـوا بمـا عاهدتهـم   جيش بعثت عليهم الضحاكـا .

ثم وصفه بقوله :

أمَّرتــه ذرب الســنان كأنــه   لمـا تكنفـه العـدو يراكـا[٢٢٠]

طــورا يعانـق باليـدين وتـارة   يفرى الجماجـم حازمـا فتاكـا[٢٢١]

وكان العباس شاعراً شجاعاً - قال عنه عن الملك بن مروان أشجع الناس فى شعره عباس بن مرداس حيث يقول :

أقاتل فى الكتيبة لا أبالى   أفيها كان حتفى أم سواها

وفى الحقيقة انه لم يكن شجاع الشعر فقط ، بل كان شجاع القول والعمل ، وله بلاء فى الجهاد لا ينكر .

وهو من القليلين الذين حرَّموا الخمر فى الجاهلية .

قيل له : ألا تأخذ من الشراب ، فإنه يزيد فى قوتك وجراءتك ؟

---

(٢٢٠) ذرب السنان : حاد السنان صارم - وتكنفه : أحاط به

(٢٢١) أسد الغابة جـ٣ صـ٤٨

فقال : لا أصبح سيد قومي وأمسى سفيهها ، لا والله لا يدخل جوفى شيء يحول بيني وبين عقلي أبداً .

وكان ممن حرم الخمر فى الجاهلية أيضا - أبوبكر الصديق ، وعثمان بن مظعون ، وعثمان بن عفان . وعبدالرحمن بن عوف ، وقيس بن عاصم ، وحرمها قبل هؤلاء عبدالمطلب بن هاشم جد الرسول - ﷺ - وعبدالله بن جدعان .

وعباس بن مرداس هو راوى الحديث الآتى الذى يبشر المسلمين بالعفو والمغفرة من الله .

قال : إن رسول الله - ﷺ - دعا عشية عرفة لأمته بالمغفرة والرحمة وأكثر الدعاء ، فأجابه الله - عز وجل - أنى قد فعلت وغفرت لأمتك إلا ظلم بعضها بعضا . فأعاد فقال : يارب ، إنك قادر أن تغفر للظالم . وتثيب المظلوم خيراً من مظلمته ، فلم يكن تلك العشية إلا ذا .

فلما كان من الغد دعا غداة المزدلفة ، فصار يدعو لأمته ، فلم يلبث النبى - ﷺ - أن تبسم ، فقال بعض أصحابه : بأبى أنت وأمى تبسمت فى ساعة لم تكن تضحك فيها ، فما أضحكك ؟

قال : تبسمت من عدو الله إبليس ، حين علم أن الله أجابنى فى أمتى وغفر للظالم ، أهوى يدعو بالثبور والويل ، ويحثوا التراب على رأسه . . . . وقال مرة : ضحكت من جزعه .(٢٢٢)

---

(٢٢٢) أسد الغابة حـ٣ صـ١٦٩ ، والحديث روداه أحمد فى مسنده ٤ / ١٤ من طريق ابراهيم بن الحجاج

الأقرع بن حابس

ذكر الرواة أن من المؤلفة قلوبهم الأقرع بن حابس بن عقال وهو من بنى تميم ، وكان قد شهد مع النبى - ﷺ - فتح مكة ، وحنينا والطائف . . . . هو وعيينة بن حصن الفزارى .

ولما قدم وفد تميم على النبى - ﷺ - بعد ذلك وفد معهم ، وفى هذا الوفد نزل قوله - تعالى -

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥ ﴾(٢٢٣)

قال الرواة : كان من عادة النبى - ﷺ - أن ينام القائلة ، فجاء من أعراب بنى تميم وفد - فيهم عطارد بن حاجب بن زرارة ، والزبرقان بن بدر ، وقيس بن عاصم ، والأقرع بن حابس وغيرهم من أشراف بنى تميم ، يريدون فداء أسرى لهم . . . . . فجعلوا ينادونه من وراء الحجرات أن يخرج إليهم ، دون أن ينتظروه حتى يخرج من حجرته ، قائلين : اخرج إلينا يامحمد ، إن مدحنا لزين ، وإن ذمنا لشين(٢٢٤) وقيل : إن الأقرع هو الذى قال هذه العبارة

وقال النبى - ﷺ - يرد عليهم : بل الله سبحانه - الذى مدحه زين وذمه شين . وحين خرج عليهم قال لهم : ما تريدون ؟

---

(٢٢٣) الحجرات ٤ ، ٥

(٢٢٤) التفسير الوسيط المجلد الثالث الحزب الثانى والخمسون - مجمع البحوث الاسلامية - صـ ١٠٣١

قالوا : نحن ناس من تميم ، جئنا بشاعرنا وخطيبنا لنشاعرك ونفاخرك .

فقال النبى - ﷺ - : ما بالشعر بعثنا ولا بالفخار أمرنا ، ولكن هاتوا .

فقال الأقرع بن حابس لشاب منهم : قم يافلان - كان هذا الشاب هو عطارد بن الحاجب -

فقام عطارد فقال : الحمد لله الذى جعلنا خير خلقه ، وأتانا أموالا نفعل بها ما نشاء ، فنحن خير أهل الأرض ، أكثرها عدداً ، وأكثرها سلاحاً ، فمن أنكر علينا قولنا ، فليأت بقول هو أحسن من قولنا وبفعال هو أفضل من فعالنا .

فقال النبى - ﷺ - لثابت بن قيس الأنصارى - وكان خطيب النبى - ﷺ - قم فأجبه .

فقام ثابت فقال : الحمد لله أحمده وأستعينه ، وأومن به وأتوكل عليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، دعا المهاجرين من بنى عمه أحسن الناس وجوها ، وأعظم الناس أحلاما ، فأجابوه والحمد لله الذى جعلنا أنصاره ووزراء رسوله ، وعزًّا لدينه ، فنحن نقاتل الناس حتى يشهدوا ألا إله إلا الله ، فمن قالها منع منا نفسه وماله ، ومن أباها قاتلناه ، وكان رغمه فى الله - تعالى - علينا هيِّنا ، أقول قولى هذا وأستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات .

فقال الزبرقان بن بدر لرجل منهم : قم فقل أبياتا تذكر فيها فضلك وفضل قومك ، ويقال : إنه هو الذى قام فقال :

نحـن الكـرام فـلا حَـيٌّ يعـادلنا نحن الرءوس وفينا يُقسَمُ الرُّبُع[225]
ونطعـم النـاس عنـد المحل كلهـم من السـديف إذا لم يؤنس القـزع[226]
إذا أبينـا فـلا يأبى لنا أحـد إنا كـذلك عند الفخـر نرتفـع

فقام حسان فأجابه بقوله :

إن الذوائـب من فهـر وإخـوتهم قد بينـوا سننا للنـاس تتبـع
يرضـى لها كـل من كـانت سريرته تقـوى الإله وبالأمـر الذى شـرعوا
قـوم إذا حاربـوا ضروا عـدوهم أو حـاولوا النفـع فى أشياعهم نفعوا
سـجية تلك فيهـم غيـر محدثـة إن الخلائق فاعلـم شـرها البدع
إن كان فى الناس سباقون بعدهم فكل سـبق لأدنى سـبقهم تبـع
لا يفخـرون إذا نالـوا عدوهـم وإن أصيبـوا فلا خـور ولا جـزع[228]
أكـرم بقـوم رسـول الله قائدهم اذا تفرقـت الأهـواء والشيـع[229]

وكان الأقرع قد أحس بأن حسان قد أفحمهم كما أفحمهم الخطيب .
فقام وقال : إنى والله يامحمد ـ لقد جئت لأمر ماجاء له هؤلاء ، قد قلت شعراً فاسمعه .

فقال النبى ـ ﷺ ـ هات .

---

(٢٢٥) الربع : ربع الغنيمة
(٢٢٦) السديف : شحم السنام ، والقزع : السحاب
(٢٢٧) الذوائب : جمع ذؤابة وهى أعلى شيء ـ وفهر ـ يقصد به قريشا ـ واخوتهم : الأنصار
(٢٢٨) خور : جمع خوار وهو الضعيف الجبان ـ وجزع : جمع جزوع وهو شديد الفزع
(٢٢٩) الأهواء : جمع هوى وهو الميل مع العاطفة بدون تعقل

فقال :

أتينـاك كيمـا يعـرف النـاس فضـلنا إذا خالفونا عند ذكـر المكـارم
وأنا رءوس الناس فى كل معشـر وأن ليس فى أرض الحجـاز كـدارم

فقال النبى - ﷺ - لحسان : أجبه .

فقال حسان :

بنى دارم لا تفخـروا إن فخـركم يعـود وَبَالاً عند ذكـر المكـارم
هبلتـم علينـا ؟ تفخـرون وأنتـم لنـا خـدم من بين ظئر وخـادم(٢٣٠)

فقال رسول الله - ﷺ - : لقد كنت غنيا ياأخا بنى دارم أن يُذكر ماكنت ترى أن الناس قد نسوه .

فكان قول النبى - ﷺ - أشد عليهم من قول حسان .

فقام الأقرع فقال : ياهؤلاء ، ماأدرى ما هذا الأمر ؟ تكلم خطيبنا ، فكان خطيبهم أرفع صوتا . وتكلم شاعرنا فكان شاعرهم أرفع صوتاً ، وأحسن قولا ثم دنا إلى النبى - ﷺ - فقال : أشهد ألا إله الله وأنك رسول الله . . . . . فقال رسول الله - ﷺ - : لا يضرك ماكان قبل هذا(٢٣١)

وقد أعطاه النبى - ﷺ - يوم حنين لتأليف قلبه على الاسلام . وشاركه فى الأخذ عيينة بن حصن . وكان عطاؤهما أكثر من عطاء العباس بن مرداس ،

---

(٢٣٠) هبلتم : فقدتم وثكلتم ، والظئر : المرضع

(٢٣١) أسد الغابة جـ ١ صـ ١٣٠ - ما عدا أبيات حسان الأولى فهى من الأدب العربى وتاريخه

ولذلك ذكرهما العباس فى احتجاجه حين قال :

أتجعل نهبى ونهب العُبَيْد دون عيينة والأقرع ؟

ويقول الرواة : إن كل المؤلفة قلوبهم حسن إسلامهم بعد ذلك ـ فيما عدا عيينة بن حصن الذى ظل مغموزا عليه . وسائر المؤلفة متفاضلون ، منهم الخير الفاضل المجمع على فضله كالحارث بن هشام ، وحكيم بن حزام وعكرمة بن أبى جهل ، وسهيل بن عمرو ، ومنهم دون هؤلاء . . . وقد فضل الله بعض المؤمنين على بعض ـ والله أعلم بالجميع[٢٣٢]

هل بقى حكم المؤلفة قلوبهم بعد استقرار الاسلام ؟

حين ولى عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ ألغى سهم المؤلفة قلوبهم ، وقال : كنا نعطيهم والاسلام فى حاجة إلى قوة تسانده ، أما الآن فالإسلام ليس فى حاجة الى هؤلاء .

وربما تم ذلك قبل عهد عمر . . . . . فقد جاء فى القرطبى : اختلف العلماء فى بقائهم ، فقال عمر والحسن والشعبى وغيرهم : انقطع هذا الصنف بعز الاسلام وظهوره . وهذا مشهور من مذهب مالك وأصحاب الرأى . . وقال بعض علماء الحنفية : لما أعز الله الاسلام وأهله وقطع دابر الكافرين ـ لعنهم الله ـ أجمع الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ فى خلافة أبى بكر على سقوط سهمهم .

---

(٢٣٢) تفسير القرطبى حـ ٨ صـ ١٨٠

إلا أن المحقق لكتاب القرطبي صوَّب ذلك بقوله : وصوابه خلافة عمر . . وهذا هو الأصح . . لأن سياسة أبي بكر كانت قائمة على الاتباع .

وفي الواقع : ليس هناك اختلاف لأن عمر أبطله في عهد أبي بكر . . . . وقصة ذلك أن عيينة بن حصن ، والأقرع بن حابس ، والعباس بن مرداس ـ وهم من المؤلفة قلوبهم ـ جاءوا إلى أبي بكر الصديق وطلبوا منه نصيبهم من الصدقة .

فكتب أبو بكر لهم به وقال لهم : اذهبوا بالكتاب إلى عمر . . . فذهبوا إلى عمر وأعطوه الكتاب ، فأبى عليهم عمر ، ومزق الكتاب ، وقال : هذا شيء كان يفعله النبي ـ ﷺ ـ يعطيكموه تأليفاً لكم على الاسلام ، والآن قد أعز الله الاسلام وأغنى عنكم ، فإن ثبتم على الاسلام والا فالسيف بيننا وبينكم . . . . « الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر »[٢٣٣]

فرجعوا إلى أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ فقالوا : الخليفة أنت أم عمر ؟
فقال : هو إن شاء الله .
ووافقه أبو بكر ولم ينكر عليه أحد من الصحابة ، فصار إجماعا .
ولكن جماعة من العلماء مع ذلك قالوا :
المؤلفة قلوبهم باقون وبالطبع ليسوا بأشخاصهم بل هم باقون بنوعهم ـ لأن الامام ربما احتاج أن يتألف بعض الناس على الاسلام ، وإنما قطعهم عمر لِمَا رأى من إعزاز الدين .

---

(٢٣٣) الكهف ٥٩

قال يونس : سألت الزهرى عنهم ، فقال : لا أعرف نسخا فى ذلك .

وقال أبو جعفر النحاس فى كتابه الناسخ والمنسوخ : فعلى هذا يكون الحكم ثابتا فيهم . .

فإن كان أحد يحتاج إلى تألفه ويخاف أن تلحق المسلمين منه آفة ، أو يرجى حسن إسلامه بعد ـ دفع اليه .

وقال القاضى عبد الوهاب : إن احتيج إليهم فى بعض الأوقات أعطوا من الصدقة .

وقال القاضى ابن العربى : الذى عندى انه إن قوى الاسلام زالوا ، وان احتيج اليهم أعطوا سهمهم كما كان رسول الله ـ ﷺ ـ يعطيهم . . . . فإن فى الصحيح « بدأ الإسلام غريبا وسيعود كما بدأ » .

والخلاصة : أن العطاء وإن أبطل فإن الحكم الشرعى مازال باقيا ومن الممكن توجيه نصيب هؤلاء الآن فى خدمة الذين يعلنون إسلامهم فى البلاد المختلفة وبخاصة آسيا وأفريقيا ، حيث يتعرضون لحملات ضارية من المبشرين ومن يقف وراءهم .

فهؤلاء فى حاجة إلى معونات متعددة الجوانب وفى حاجة إلى بعثات وكتب ورسائل ونشرات ومساعدات ومراكز تعليمية وتثقيفية .

وفى البلاد الغربية كثير من الذين يعلنون إسلامهم عن بحث ودراسة وعقيدة ، فلماذا لا تهدى اليهم الكتب والمؤلفات التى تزيد من استبصارهم

فى الدين وتعينهم على مواصلة البحث والدراسة ليقتدى بهم غيرهم ؟ ولماذا لا يكافأون على مايقدمون من جهود بمكافآت رمزية ترمز إلى التقدير وتحفز إلى المزيد من الجهد والنشاط ؟[٢٣٤]

واذا بطل سهمهم لأن الحاجة لا تدعو اليه بسبب عزة الاسلام ، فإن رصيد هذا السهم يعود الى بقية مصارف الزكاة أو مايراه الامام .

وقال الزهرى : يعطى نصف هذا السهم لعمار المساجد .

ومن الملاحظ أن سهم المؤلفة قلوبهم فى الغنائم لم يظهر إلا فى فتح مكة لا غير ، وأن أغلب المنتفعين به كانوا من قريش ، ولم تراع فى قسمته المساواة الأصلية بين المقاتلين ، وهذا العمل من النبى - ﷺ - من أهم الأدلة التى استند اليها الفقهاء فى أنه يجوز للإمام أن يزيد فى عطاء من يتألف قلوبهم على الاسلام بالقدر الذى تدعو اليه مصلحة من تؤلف قلوبهم .

بل يجب عليه ذلك عندما تدعو إليه الحاجة . . ولا مانع أن يكون هذا العطاء من أصل الغنائم[٢٣٥]

أثر العطاء فى تأليف القلوب :

لقد أحسن النبى - ﷺ - فى إعطاء المؤلفة قلوبهم . . . . فقد استأصل بالاحسان مافى نفوسهم من حقد وكراهية له وللدين الاسلامى ، والشاعر الحكيم يقول :

---

(٢٣٤) الزكاة وحاجة العصر صـ ١١٨ عبد الحفيظ فرغلى دار الصحوة

(٢٣٥) فقه السيرة للبوطى صـ ٣٠٦

أحســن إلى النــاس تســتعبد قلوبهــم   فطالما اســتعبد الانســان إحســانُ

والنبى - ﷺ - أبلغ من وَعَى ذلك جيدا قبل أن يصوغه هذا الشاعر حكمة تجرى عبر الأزمان على كل لسان .

ولقد كان - ﷺ - طبيبا بالقلوب ، نافذاً ببصيرته إلى أعماق النفوس ، عارفا بما يعتمل فى دواخلهم من أحاسيس ومشاعر ، فلقد رأى صفوان ينظر إلى إبل وشاء فى شِعب ، فأدرك أنه يتطلع إلى ذلك .

فقال له : أيعجبك هذا ؟ قال : أجل - فأعطاه إياه .

فى الوقت الذى ترك غيره دون أن يعطيه ، مع أن حالته فى ظاهرها تستحق الإعطاء والمنح .

فقد حدث الرواة . أن بعضهم قال للنبى - ﷺ - : يارسول الله ، أعطيت الأقرع بن حابس ، وعيينة بن حصن مائة من الابل ، وتركت جعيلا ؟

فقال النبى - ﷺ - : والذى نفسى بيده لجعيل خير من طلاع[٢٣٦] الأرض مثل عيينة والأقرع ، ولكنى أعطيتهما تألفاً لهما ليسلما ، ووكلته إلى إسلامه[٢٣٧] .

---

(٢٣٦) طلاع : أى خير مايطلع منها ويسيل عنها

(٢٣٧) أسد الغابة حـ ١ صـ ٣٣٨ - سنن أبى داود . كتاب الجهاد ٣ / ٤٨ ، ومسند احمد ٤ / ٣٣٦

وفى هذا المعنى ورد قوله - ﷺ - : « إن من الناس ناسا نكلهم إلى إيمانهم منهم فرات بن حَبَّان »(٢٣٨) .

وهو فرات بن حَبَّان بن ثعلبة بن عبد العزى البكرى .

وروى مثل هذا فى عمرو بن تغلب العبدى . فقد قال : لقد قال رسول الله - ﷺ - فى شأنى كلمة ماأحب أن لى بها حمر النعم ، أتى رسول الله - ﷺ - شيء فأعطى قوما ومنع قوماً ، فقال رسول الله - ﷺ - : إنا نعطى قوما نخشى هلعهم وجزعهم ، ونَكِلُ قوما إلى ماجعل الله فى قلوبهم من الإيمان ، منهم عمرو بن تغلب ، وإن من أشراط الساعة أن تكثر التجار ويظهر القلم » .

يعنى أن التجار يكثرون لكثرة المال ، ويكثر الذين يكتبون ويحصون فى جمع تلك الأموال .

وقد أسلم من المؤلفة قلوبهم قوم حسن إسلامهم فخرجوا بذلك عن حد المؤلفة ، وذكرهم فى المؤلفة باعتبار ما كانوا عليه أولاً ، كحكيم بن حزام مثلاً الذى أشرنا الى قصته آنفاً .

ولا يمكن أن يفرق بين من حسن إسلامه وبين من لم يحسن إسلامه لجواز أن يكون من ظننا به شراً على خلاف ذلك . إلا من أجمع العلماء على وصفه بناء على ما ينجم عنه من تصرفات .

---

(٢٣٨) أسد الغابة جـ ٤ صـ ٢٠١

وعلى كل فالإسلام يأمرنا بحسن الظن ، ويقول الله لنا فى محكم كتابه .

﴿ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ (٢٣٩)

ولا عبرة بقول من يقول « سوء الظن عصمة » إلا من باب الاحتياط لا أكثر ولا أقل .

ومن الناس من جاءوا إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - يُسلمون رغْبَةً فى العطاء - فما هى إلا عشية وضحاها حتى يصبح الواحد منهم أزهد أهل الأرض وأغناهم بالقناعة التى وهبها الله إياه بفضل الإسلام والتخلق بأخلاقه .

قال أنس - رضى الله عنه -: كان الرجل يأتى للنبى - صلى الله عليه وسلم - فيسلم لشيء يعطاه من الدنيا ، فلا يمسى حتى يكون الاسلام أحب إليه من الدنيا وما فيها .

توزيع العطاء على المستحقين

هذا العطاء الذى أعطى بإغداق كان من الخمس . أما الأربعة أخماس فهى حق المقاتلين بنص القرآن الكريم

﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ ﴾ (٢٤٠)

---

(٢٣٩) الحجرات ١٢

(٢٤٠) الأنفال ٤١

وقد أمر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ زيد بن ثابت بإحصاء الناس والغنائم .

وكان الناس قد ألحوا على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى القسمة بينهم ، حتى أنه لكثرة ما ألحوا عليه قال :

أيها الناس والله إن كان لى مثل شجر تهامة نعما لقسمته عليكم ، ثم ما ألفيتمونى بخيلاً ولا جباناً ولا كدوداً . ثم قام ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى جنب بعيره فأخذ وبرة من سنامه ثم رفعها ، ثم قال : أيها الناس ، والله ما لى من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم ، فأدوا الخيط والمخيط . .

وقد أمر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما سبق أن قلنا بعدم الغلول ، وكان قد كلف قوماً بالمحافظة على الغنائم . . قيل : إن أبا جَهْم بن حذيفة كان واحداً منهم ، فجاء رجل اسمه خالد بن البرصاء ، وأخذ من الأنفال زمام شعر ، فمانعه أبو جهم . فلما تمانعا ضربه أبو جهم بالقوس فشجه .

فاستعدى خالد عليه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال : اقتص لى منه فاسترضاه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يقتص له ، قال له : لا أقيدك من وَالٍ عليك .

وقسم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الفىء بين الناس فخص كل رجل أربعاً من الإبل وأربعين شاة ، فإن كان فارساً أخذ اثنى عشر بعيراً ، ومائة وعشرين شاة . .

وجاء رجل من المنافقين قيل : هو معتب بن قشير ـ فقال : هذه القسمة ما عُدِل فيها ، ولا أريد بها وجه الله ، فأُخْبِر بذلك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتغير وجهه الشريف ، وغضب حتى أحمر وجهه وقال : من يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله ؟ رحمة الله على أخي موسى لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر .

وقال بعض الرواة : إن اسم الرجل هو ذو الخويصرة التميمى فقد روى ابن هشام عن مِقْسَم مولى عبد الله بن الحارث بن نوفل قال : خرجت أنا وتليد بن كلاب الليثى حتى أتينا عبد الله بن عمرو بن العاص ، وهو يطوف بالبيت معلقاً نعله بيده ، فقلنا له : هل حضرت رسول الله حين كلمه التميمى يوم حنين ؟

قال : نعم ـ جاء رجل من بنى تميم يقال له ذو الخويصرة ، فوقف عليه وهو يعطى الناس فقال : يا محمد ، قد رأيت ما صنعت فى هذا اليوم .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أجل فكيف رأيت ؟

قال : لم أرك عدلت .

قال : فغضب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم قال : ويحك ، إذا لم يكن العدل عندى فعند من يكون ؟

فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ، ألا أقتله ؟

فقال النبيِّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا ، دعه ، فإنه سيكون له شيعة يتعمقون فى الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية ، ينظر فى

النصل فلا يوجد شيء ، ثم في القِدْح فلا يوجد شيء ، ثم في الفُوق فلا يوجد شيء ، سبق الفرث الدم[٢٤١] .

وفي رواية أخرى : يخرجون على حين فرقة من الناس آيتهم رجل احدى ثدييه مثل ثدي المرأة . قال أبو سعيد : أشهد لقد سمعته من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأشهد أني كنت مع علي ـ رضي الله عنه ـ حين قاتلهم ، ثم التمس في القتلى فأتى به على النعت الذي نَعتَ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم[٢٤٢] .

قال السهيلي : وصدق الحديث في الخوارج . وذكر الحديث برواية : يخرج من ضئضئه قوم تحقرون صلاتكم إلى صلاتهم وصيامكم إلى صيامهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية . ـ والضئضيء : النسل ـ فكان بدؤهم من ذي الخويصرة ، وكان آيتهم ذو الثُّدَيَّة ، واسمه فيما يقول البعض : حرقوص السعدي[٢٤٣] .

ويعد هذا الحديث من آيات الإعجاز في كلام المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد صدَّق الواقع ما قال . فجاء الخوارج في عهد علي ـ رضي الله

---

(٢٤١) سيرة ابن هشام حـ ٤ صـ ١١١ . والقِدْح ـ بكسر القاف وسكون الدال ـ السهم قبل أن يراش ، والفوق ـ بضم الفاء وسكون الواو ـ بزنة قفل ـ موضع الوتر من السهم وهو مثل يضرب لسرعة نفاذ السهم وخروجه ليس عليه شيء من الدم ، فهم ليس عندهم شيء من الدين وإن دخلوا فيه .

(٢٤٢) أسد الغابة حـ ٢ صـ ١٧٢

(٢٤٣) الروض الأنف للسهيلي حـ ٤ صـ ١٩٨

عنه ـ فكانت صفتهم كما قال الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ « يقرأون القرآن لا تفقهه قلوبهم ، ليس لهم حظ منه إلا تلاوة الفم ، وإنهم يقتلون أهل الاسلام ويَدَعُون أهل الأوثان ، لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد وثمود »

وقد سئل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عنهم : أكفارٌ هُمْ ؟

فقال : من الكفر فروا

فقيل : أمنافقون ؟

فقال : إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً ، وهؤلاء يذكرون الله كثيراً . .

فقيل : ما هم ؟

فقال : أصابتهم فتنة فعموا وصموا .

وهذا يدعونا إلى التدبر جيداً فى تعاليم الدين ، فلا نفارق جماعة المسلمين ، ولا نغالى كما غالى هؤلاء الخوارج فحكموا بتكفير مرتكب الكبيرة ، وحبوط عمله وتخليده فى النار ، وبذلك جحدوا رحمة الله التى وسعت كل شيء . ومن أحكامهم أن دار الاسلام تصير بظهور الكبائر فيها دار كفر ، ولا يصلون جماعة[٢٤٤] . يعنى لا يأتمون بجماعة المسلمين لرأيهم فيهم .

---

(٢٤٤) السيرة الحلبية حـ٣ صـ٨٩

موقف الأنصار من الغنائم والعطايا

وحين أعطى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذه العطايا الكثيرة للمؤلفة قلوبهم ، وأغلبهم من قريش ـ كما أسلفنا ـ لم يعط الأنصار شيئاً . .

وقد وجد الأنصار فى أنفسهم شيئاً من ذلك ـ حتى قال قائلهم : لقد لقى محمد أهله . .

ويعنى بهذه العبارة أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجد فى أهله غناء عن غيرهم فهو يعطيهم ويترك من سواهم من الذين آووه ونصروه . .

ولبى الشعر نداء ما حدَّث به الأنصار أنفسهم ، فأسرع حسان بن ثابت يقول :

زاد الهمومُ فماء العين منحدر سَحًّا إذا حفلته عبرة دِرَرُ[٢٤٥]

وجدا بشماء إذ شماءُ بهنكةٌ هيفاء لا دنس فيها ولا خور[٢٤٦]

دع عنك شماء إذ كانت مودتها نزرا وشر وصال الواصل النُزِر[٢٤٧]

وائت الرسول فقل : يا خير مؤتمن للمؤمنين إذا ما عُدِّد البشر

علام تدعى سُلَيْمٌ وهى نازحةٌ قُدَّامَ قوم هُم آووا وهم نصروا[٢٤٨]

سماهم الله أنصاراً بنصرهم دين الهدى وعَوان الحرب تستعر[٢٤٩]

---

(٢٤٥) سحًّا : غزيرا ، ودمعة دِرر : سائله ـ

(٢٤٦) شماء : اسم فتاة ، بهنكة : كثيرة اللحم

(٢٤٧) نزر : قليل

(٢٤٨) نازحة : بعيدة ، وسليم : قبيلة سليم .

(٢٤٩) عوان الحرب : الحرب العوان المستمرة التى قوتل فيها مرة بعد مرة ، وتستعر : تشتعل

وسارعوا فى سبيل الله واعترفوا | للنائبات وما خافوا وما ضجروا[250]
والناس إلب علينا فيك ليس لنا | إلا السيوف وأطراف القنا وَزَر[251]
نجالد الناس لا نبقى على أحد | ولا نضيع ما توحى به السور[252]

إلى آخر ما قال .

لقد بدأ حسان قصيدته كما كان الشعراء القدامى يبدأون قصائدهم بالغزل ، ثم تخلص من الغزل إلى موضوع قصيدته ، وهو الشكوى لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من إغفاله الأنصار فى القسمة من هذه الغنائم لقد تركهم وقدم بنى سُليم عليهم ، مع أن بنى سليم قوم نازحون ويعيدون وتاركون المدينة . والأنصار مقيمون مدافعون . .

والأنصار هم الذين آووا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونصروه ، وقد سماهم القرآن الكريم بذلك .

وقد تحمل الأنصار عبء الدفاع عن الدعوة ، ووضعوا أنفسهم فداء لها ، دون مَنٍّ أو تأخر ، وقد اجتمع الناس عليهم من كل فج ، ومع ذلك لم يضجروا ولم يجبنوا .

ويقول : ونحن ما زلنا ندافع عن ديننا ونحرص على ما يدعو إليه القرآن الكريم من مبادىء وتعاليم . .

---

(٢٥٠) حاموا : جبنوا
(٢٥١) إلب : متألبون علينا ، ووزر : ملجأ
(٢٥٢) نجالد : نجاهد ونقاتل

ومازلنا جندك يا رسول الله ، لن نتخلى عنك . . كما أننا لم نتخل عنك في مختلف الوقائع التي حدثت من لدن بدر فأُحد فالأحزاب حتى الآن . . لقد أبرز حسان في هذا الشعر شكاته للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وظاهَرَه في هذه الشكاة غيره من زعماء الأنصار .

فعن أبي سعيد الخدري قال : لما أعطى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما أعطى من تلك العطايا في قريش وفي قبائل العرب ، ولم يكن في الأنصار منها شيء وَجِد هذا الحي في أنفسهم حتى كثرت فيهم القالة ، حتى قال قائلهم : لقي والله رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قومه .

فدخل عليه سعد بن عبادة فقال : يا رسول الله ، إن هذا الحيّ من الأنصار قد وَجِدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت ، قسمت في قومك وأعطيت عطايا عظاما في قبائل العرب ، ولم يك في هذا الحي من الأنصار منها شيء .

قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأين أنت من ذلك يا سعد ؟
قال : يا رسول الله ما أنا إلا من قومي .

قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاجمع لي قومك في مكان كذا .
فخرج سعد فجمع الأنصار في المكان الذي حدده رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فجاء رجال من المهاجرين فتركهم فدخلوا . وجاء آخرون فردهم .

فلما اجتمعوا له أتاه سعد ، فقال : قد اجتمع لك هذا الحى من الأنصار . فأتاهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : يا معشر الأنصار ، مقالة بلغتنى عنكم وجِدَةٌ(٢٥٣) وجدتموها علىّ فى أنفسكم .

ألم آتكم ضُلَّالاً فهداكم الله ، وعالة(٢٥٤) فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟

قالوا : بلى . . . الله ورسوله أَمَنُّ وأفضل .

ثم قال : ألا تجيبوننى يا معشر الأنصار ؟

قالوا : بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ورسوله المَنُّ والفضل .

قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ أما والله لو شئتم لقلتم فلَصَدَقْتم ولصُدِّقْتم : أتيتنا مُكَذَّباً فصدقْناك ، ومخذولاً فنصرناك ، وطريداً فآويناك ، وعائلاً فآسيناك(٢٥٥) .

أوجدتم يا معشر الأنصار فى أنفسكم فى لَعَاعة(٢٥٦) من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم ؟

---

(٢٥٣) جدة : الموجدة والغضب

(٢٥٤) عالة : فقراء

(٢٥٥) آسيناك : أعطيناك ووقفنا معك

(٢٥٦) لعاعة : بقلة خضراء ناعمة ، شبه بها زهرة الدنيا ونعيمها

أَلَا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟

فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس شِعبا وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار .

قال : فبكى القوم حتى اخضلت لحاهم .

وقالوا : رضينا برسول الله قسماً وحظا .

ثم انصرف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتفرق القوم .

أى روعة وأى بيان ؟ وأى قوة يحملها هذا المنطق العربى الفصيح ؟

إنه الصدق الرائع الذى تحمله هذه العاطفة الصادقة التى يفيض بها هذا البيان الذى يأخذ بمجامع القلوب . .

ولا يمكن أن يعاب على الأنصار موقفهم من توزيع الغنائم ، فإن النفس البشرية لها أن تتطلع . . . . ومن قبل ذلك تطلعت نساء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهن أقرب الناس إليه وأحقهن بالإقتداء به والتعلم من أدبه وسلوكه ـ تطلعن لنعيم الدنيا وزينتها حين فرق النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أموال بنى قريظة . . حتى نزل قوله ـ تعالى ـ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا

عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ (٢٥٧)

فقلن جميعاً: رضينا بالله ورسوله والدار الآخرة .

وتطلع النفس إلى متاع الدنيا ليس مما يعيب الانسان ، بل ربما لو لم تتطلع لكان ذلك عيباً فيها .. وإلا لما شرع للإنسان أن يجاهد نفسه ويقاوم تطلعاته التى تنأى به عن الطريق الأمثل والمثل الأعلى .

على أن للشيطان دوراً لابد أن يقوم به حتى مع أماثل الناس ، ولقد استطاع أن يقوم به مع نبى الله آدم وهو فى جنة الخلد ..

والنفس الأمارة قد تراود الصديقين ... وبعض المفسرين يرى أن قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾ (٢٥٨)

من حكاية كلام يوسف ـ عليه السلام ـ وصدق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذ يقول « إن الشيطان ليجرى من ابن آدم مجرى الدم فى العروق » وقد أراد الشيطان أن يبث فى نفوس جماعة من الأنصار الشك والتردد فى شأن السياسة التى اتبعها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى توزيع الغنائم ، وربما أراد الشيطان لهم أن يتصوروا أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد أدركته محبة قومه وبنى وطنه فنسى فى خضم ذلك حق الأنصار .

---

(٢٥٧) الأحزاب ٢٨ ، ٢٩

(٢٥٨) يوسف ٥٣

ولكن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ استطاع بخطابه الذى ألقاه عليهم أن ينزع من نفوسهم هذه الخواطر ، وأن يوضح لهم أن مكانتهم فى نفسه لا يمكن أن تتغير أو تتزحزح .

وفى الوقت نفسه أوضح لهم أن هذه الدنيا مهما كبرت فى أعين بعض الناس فهى هينة حقيرة أمام رضوان الله ، والفوز بحب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

ولقد لمس الأنصار مقدار حب رسول الله لهم ، وحرصه على رضاهم . وثقته فى إيمانهم ، حتى أصبحت كل غنائم هوزان فى نظرهم لا قيمة لها على الاطلاق أمام هذا العطف البالغ من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عليهم ورقته لهم .

حقاً .. فماذا يساوى المال والشياه والإبل وتلك العروض الزائلة إذا قيست بحب حبيبهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذ يعودون به ويعود بهم إلى ديارهم ليكون المحيا محياهم والمات مماتهم ؟ ؟ ... إنها لا تساوى شيئاً على الاطلاق .. ومع ذلك .. فما أكثر ما أعطى قريشاً ، ولكن ماذا أخذ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لنفسه من ذلك ؟ إنه لم يأخذ شيئاً . فهو القدوة التى ينبغى أن يقتدى بها هؤلاء الأنصار ، وهو الدرس الذى يجب أن يعيه المؤمن الصادق من سيرة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصدق الله العظيم إذ يقول

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ (٢٥٩)

لقد كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحب الأنصار ، ويعرف لهم فضلهم ، ولذلك كانت وصاته بهم وهو فى مرض موته . . . .

فقد ذكر ابن سعد فى طبقاته قال : عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : أمرنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن نصب عليه من سبع قرب من سبعة آبار ففعلنا ، فلما اغتسل وجد الراحة ، فصلى بالناس ثم خطبهم ، واستغفر للشهداء من أصحاب أحد ودعا لهم ، ثم أوصى بالأنصار فقال : يا معشر المهاجرين ، إنكم أصبحتم تزيدون وأصبحت الأنصار لا تزيد على هيئتها التى هى عليها اليوم ، هم عيبتى التى أويت إليها ، أكرموا كريمهم وتجاوزوا عن مسيئهم (٢٦٠) »

وإنهم لجديرون بهذا الحب . . . . ولم لا وقد أثنى الله عليهم ثناء جميلاً مستمراً إلى أن تقوم الساعة قال تعالى :

---

(٢٥٩) الأحزاب ٢١

(٢٦٠) الطبقات الكبرى حـ ١ قسم ٢ صـ ٤٢

﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (٢٦١)

وقد ذكَرَهم النبى - صلى الله عليه وسلم - كثيراً ، وأثنى عليهم فى أكثر من موضع وموقف .



---

(٢٦١) الحشر ٩

النبى يرد سبى هوازن

- قصة الشيماء
- إسلام ثقيف
- عمرة الجعرانة
- ماذا كانت تعبد ثقيف
- هدم اللات
- هدم صنم طيىء
- موضع العبرة فى غزوتى حنين والطائف

النبي يرد سبي هوازن

وجاء وفد هوازن للنبي - ﷺ - مسلمين طائعين بعد أن قسم الغنائم والسبي .

وكان السبي كثيرا قدره الرواة بستة آلاف رأس .

وكان يرأس الوفد زهير بن صُرَر - ويكنى بأبي صرد

وقالوا : يارسول الله ، إنَّا أهل وعشيرة فامنن علينا . . وكان في الوفد عم النبي - ﷺ - من الرضاعة واسمه أبوثروان . فقال : يارسول الله ، انما في الحظائر من كان يكفلك من عماتك وخالاتك وحواضنك ، وقد حضناك في حجورنا ، وأرضعناك بثُدينا ، ولقد رأيتك مرضعا فما رأيت مرضَعاً خيرا منك ، ورأيتك فطيماً فما رأيت فطيما خيرا منك ، ثم رأيتك شابا فما رأيت شابا خيرا منك ، وقد تكاملت فيك خلال الخير ، ونحن مع ذلك أهلك وعشيرتك ، فامنن علينا منَّ الله عليك[٢٦١] .

وقام زهير بن صرد فقال : يارسول الله إنما سبيت منا عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كفلنك ، ولو أنا ملحنا[٢٦٢] للحارث بن أبي شمر ، والنعمان بن المنذر ، ثم نزل منا أحدهما بمثل مانزلت به لرجونا عطفه وعادته وأنت خير المكفولين . .

ثم أنشده أبياتا قالها :

امنن علينا رسول الله في كرم   فإنك المرء نرجوه وندخر

---

(٢٦١) الطبقات الكبرى جـ ١ قسم ١ صـ ٧٢

(٢٦٢) ملحنا - المقصود أرضعنا

امنن على بيضة إعتاقها قدر ممزق شملها فى دهرها غير
إن لم تداركها نعماء تنشرها يا أرجح الناس حلما حين يختبر
امنن على نسوة قد كنت تَرْضَعُهَا إذ فوك يملؤه من محضها درر
إذ كنت طفلا صغيرا كنت تَرْضَعهاَ وإذ يزينك ما تأتى وما تذر
لاتجعلنا كمن شالت نعامته واستبق منا فإنا معشر زهر (٢٦٣)
يا خير من مرحت كمت الجياد به عند الهياج إذا ما استوقد الشرر
إنا لنشكر آلاء وان كفرت وعندنا بعد هذا اليوم مدخر
إنا نؤمل عفوا منك تلبسه هذى البرية إذ تعفو وتنتصر (٢٦٤)

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : قد استأنيت بكم حتى ظننت أنكم لاتقدمون ، وقد قسمنا السبى وجرت فيه السهمان .

وفى رواية : إن أحسن الحديث أصدقه ، وعندى من ترون من المسلمين أفأبناؤكم ونساؤكم أحب اليكم أم أموالكم ؟

فقالوا : يارسول الله ، خيرتنا بين أحسابنا وأموالنا ، وماكنا نعدل بالأحساب شيئا ، فرد علينا أبناءنا ونساءنا .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ماكان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم ، وأسأل لكم الناس ، فإذا صليت بالناس الظهر فقولوا : نستشفع برسول الله إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله ، فإنى سأقول لكم : ماكان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم ، وسأطلب لكم الناس .

---

(٢٦٣)شالت نعامته ـ يقصد ماتوا وتفرقوا

(٢٦٤) أسد الغابة جـ ٢ ، ص ٢٦٢ والروض الألف جـ ٤ ، ص ١٦٦

فلما صلى النبى - صلى الله عليه وسلم - بالناس الظهر ، قاموا فتكلموا كما أمرهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ماكان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم ، فقال المهاجرون : ماكان لنا فهو لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

وقالت الأنصار : ما كان لنا فهو لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

فقال الأقرع بن جابس : أما أنا وبنو تميم فلا ، وقال عباس بن مرداس السلمى : أما أنا وبنو سليم فلا ، فقالت بنو سليم : بلى ، ما كان لنا فهو لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

وقال عيينة بن حصن أما أنا وبنو فزارة فلا - فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : من تنازل عن حقه منكم فله بكل إنسان ست فرائض (٢٦٥) من أول فىء نصيبه فرد الناس ما فى أيديهم (٢٦٦) .

وفى إحدى الروايات قال النبى - صلى الله عليه وسلم - وهو يريد ترقيق قلوب الناس وحثهم على مراعاة حق الأخوة فى الاسلام - : إن هؤلاء القوم جاءوا مسلمين ، وقد خيرتهم فلم يعدلوا بالأبناء والنساء شيئا ، فمن كان عنده لهم سبى فطابت نفسه أن يرده فليرده ، ومن أبى فليرد عليهم ذلك قرضا علينا بكل إنسان ست فرائض من أول مايفىء الله علينا .

---

(٢٦٥) الفريضة : البعير المأخوذ فى الزكاة

(٢٦٦) أسد الغابة جـ٢ ، ص٢٦٣ - والطبقات الكبرى

لقد راعى النبى - صلى الله عليه وسلم - حق التربية ، وهو أكرم الناس وأحقهم بالبر والوفاء .

ولقد كان المسلمون عند حسن ظن نبيهم - صلى الله عليه وسلم - حين أجابوه طائعين راضين ، فيما عدا أولئك النفر الذين عرفوا بكزازة الطبع وقسوة القلب ، فلم يحسنوا الاستجابة لأمر الرسول ، ولم يؤثروا رضاء الله ورسوله على رضاء أنفسهم وشهواتهم .

ومازال وفد هوازن يفتدى من وقع تحت هؤلاء النفر من قساة القلوب ، حتى افتدوهم جميعا ، فيما عدا عجوزا ظلت تحت يد عيينة بن حصن ، فجاء ابنها يحاول افتداءها منه ، وهى أم زهير بن صرد .

وكان ابنها قد عرض أن يدفع فيها مائة من الأبل فرفض عيينة وأراد أن يأخذ من ابنها زهير ضعف ذلك .

فتركه زهير ، ثم عاد إليه بعد مدة وعرض عليه خمسين فرفض عيينة .

فقال له زهير : والله إنها لعجوز لايرجى لك من ورائها نفع ولا كسب .

فرفض أيضا عيينة . فتركه زهير وغاب عنه ، ثم مر معرضا عنه ، فقال له عيينة : خذها بالخمسين .

فأخذ زهير ينقص من الإبل حتى افتداها من عيينة بأقل من ذلك بكثير . . . قيل : بستة من الإبل[٢٦٧] .

---

(٢٦٧) انظر السير الحلبية حـ٣ ، ص٩٧

لقد تحققت دعوة النبى - صلى الله عليه وسلم - فى عيينة ، لأنه كان قد دعا على من أبى من يرد السبى بالبخس والكساد .

ابن عمر بن الخطاب يرد أسيرته

أين تصرف عيينة من تصرف ابن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما ؟ . . . . لقد رد عبد الله بن عمر بن الخطاب - رضى اللع عنهما - ما كان عنده من سبى وكان ضمن ذلك فتاة أسيرة . . ردها قرير العين بذلك . دون ضن أو بخل أو تردد .

وكذلك فعل كل الصادقين من المؤمنين ، بمجرد أن طلب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ذلك .

أما عيينة فرفض أن يرد تلك العجوز وأراد أن يساوم بها ، وقال - حين رآها عجوزا - : إنى لأحسب لها فى الحى نسبا وعسى أن يعظم فداؤها . فلن فاته الشباب والجمال فلن يفوته - فيما ظن - المال . .

ولم يقبل مافرضه النبى - صلى الله عليه وسلم - من فداء لمن أراد أن يمسك من فى يده ، بل طمع فى المزيد ، وحدث منه ما أشرنا إليه من مساومة بينه وبين ابن هذه العجوز ، وقد أبى الله إلا أن يصدق رسوله فيما قال . . فلم تكن إلا هذه الفرائض الست التى أداها زهير فداء لأمه من عيينة . .

إسلام مالك بن عوف

وسأل النبى - صلى الله عليه وسلم - وفد هوازن عن مالك بن عوف بن سعد قائد هوازن وسيدها ، وهو الذى جيش الجيوش وأعدَّ الجموع لقتال

المسلمين . فقالوا : إنه فى الطائف مع ثقيف .

لقد فوجىء مالك بالهزيمة التى لم يكن يتوقعها أبدا . . بل لقد كان يتوقع أن يحقق مافشلت فيه قريش والأحزاب معها من نصر على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولقد قال : إن محمداً لقى أغمارا من الناس لاعهد لهم بالحروب فانتصر عليهم ، يعنى بذلك قريشا واليهود .

وفى الحق لقد وضع مالك خطة بارعة ولكن فاته أن النصر بيد الله يؤتيه من يشاء ، وفاته أنه يحارب الحق ونور الله . . وعجز عقله عن أن يستوعب المبادىء الجديدة التى جاء بها الإسلام لنشر العدل والمساواة والنصفة بين الناس .

لقد كان مالك يدين بعنجهية بدوية متسلطة ، تسيطر عليه روح القبيلة والاعتداء بالباطل ، والغلبة بدون وجه حق . . ومن أجل ذلك لم يصغ لرأى عاقل مجرب أراد أن ينصحه ويشير عليه بما هو أصوب ، وذاك هو دريد ابن الصمة .

وحين بدأ الهجوم من جانب هوازن على مقدمة المسلمين فى عماية الصبح وأدت هذه الهجمة المباغتة إلى جفلة الخيول وردتها التى أشاعت الفوضى والاضطراب فى صفوف المسلمين فانهزموا فى غير نظام ، وتبعهم الأعراب ، وأقبل مالك بن عوف على فرسه فى محاولة له يحمل فيها على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يرتجز على فرسه وكان يسميه « مُجَاج » قائلا :

أقـدم مجـاجُ إنـه يـوم نُكـُر مثلى على مثلك يحمـى ويكـر

إذا أُضِيعَ الصفُّ يوما والدُّبر ثم اجْزَأَلّت زمرٌ بعد زُمَر[268]

كتائب يكل فيهن البصر قد أطعن الطعنة تقذى بالسبر[269]

حين يذم المستكين المنجحر وأطعن النجلاء تعوى وتهر[270]

لها من الجوف رشاش منهمر تفهق تارات وحينا تنفجر[271]

وثعلب العامل فيها منكسر يازيد يابن همهم أين تفر[272]

قد نفد الضرس وقد طال العمر قد علم البيض الطويلات الخُمر[273]

أنى في أمثالها غير غَمِر إذ تخرج الحاضن من تحت السُّتُر[274]

وقال ايضا :

أقدم مجاجُ إنها الأساوره ولا تغرنك رِجْل نادرة[275]

ولكن إقدامه على الرسول - ﷺ - لم يغن عنه شيئا ، فقد كانت الدائرة قد دارت على هوازن ، وتحول هجومهم الى دفاع فارتداد فهزيمة ساحقة .

وولّى مالك مع من ولّى ووقف في الطريق على ثَنِيَّة يحاول أن يحمى

---

(268) اجزألت : ارتفعت ، والزمر : جمع زمرة وهى الجماعة .

(269) يكل : يعيا ويتعب ، والسُّبر - بزنة كتب ، جمع سبار - بزنة كتاب وهو مايسبر به غور الجرح ليعرف أغائر هو أم لا .

(270) المستكين : الذليل - والمنجحر : المتباعد المتخذ لنفسه موئلا بعيدا ، النجلاء : الطعنة الواسعة - تعوى - يسمع لها صوت كالعواء والهرير .

(271) تفهق : تنفتح .

(272) الثعلب : مادخل فى السنان من عصا الرمح ، والعامل : أعلى الرمح

(273) الخمر : جمع خمار ، ماتستر به المرأة وجهها

(274) غَمْر : غير مجرب ، والحاضن : المرأة الحاضنة

(275) الأساورة : جمع إسوار : الرامى بالقوس ، والرَّجْل النادرة : المقطوعة .

انسحاب قومه ، قائلا لأصحابه : قفوا حتى تمضى ضعفاؤكم ويلحق بكم أخراكم ، وقد دخل فى نفسه من الروع مالم يكن قبل ذلك ، ولكنه مع ذلك ظنَّ أنه فعل بوقفته هذه شيئا ، ولذلك قال :

ولولا كرتان على مُجَاجٍ لضاق على العضاريط الطريقُ[٢٧٦]
ولو كر دهان بن نصر لدى النخلات مُنْدَفَعَ الشديق[٢٧٧]
لآبت جعفر وبنو هلال خزايا مُحْقِبين على شُقُوق[٢٧٨]

وربما كانت هذه الأبيات قد قالها فى غير هذه المرة ، ولكن على أى حال فقد كان شاعرا ينفس بشعره عما فى نفسه .

ولقد قال أبياتا يعتذر فيها عن فراره فى ذلك اليوم أمام خليل الله . . . يقول فيها :

منع الرقاد فما أغَمّض ساعة نَعَمٌ بأجزاع الطريق مخضرم[٢٧٩]
سائل هوازن هل أضر عدوها وأعين غارمها إذا مايغرم
وكتيبة لبَّستها بكتيبة فئتين منها جاسر ومُلأم[٢٨٠]

---

(٢٧٦) العضاريط : الأتباع : ، ومجاج : اسم فرسه

(٢٧٧) دهمان بن نصر : ابن عم مالك ، والشديق : اسم موضع

(٢٧٨) محقبين : مردفين لمن انهزم منهم ، ورويت : محمقين من الحمق إذا أحمقت الخيل فلم تنجب ، وشقوق : أراد مشقة .

(٢٧٩) نَعَم : الإبل والماشية التى اكثرها الابل ، وأجزاع الطريق : ما انعطف منه ، ومخضرم : مقطع الآذان

(٢٨٠) حاسر : لا درع له ـ وملأم : يلبس اللأمة وهى الدرع

ومُقَدَّمٍ تعيا النفوس لضيقة قدمته وشهود قومى أعلم[٢٨١]
فوردته وتركت إخوانا له يردون غمرته وغمرتُه الدم[٢٨٢]
فإذا انجلت غمراته أورثنى مجد الحياة ومجد غنم يقسم
كلفتمونى ذنب آل محمد والله أعلم من أعق وأظلم
وخذلتمونى إذ أقاتل واحداً وخذلتمونى إذ تقاتل خثعم
وإذا بنيت المجد يهدم بعضكم لايستوى بانٍ وآخر يهدم
وأقَبَّ مخماصَ الشتاء مُسَارع فى المجد يُنْمى للعلا مُتَكَرِّمُ[٢٨٣]
أكْرَهْتُ فيه ألَّةً يزَنِيَّةً سَمْحاءَ يقْدمُها سِنان سَلْجَمُ[٢٨٤]
وتركت حَنَّتهُ تردُّ وَلِيَّةُ وتقول : ليس على فلانة مُقْدَم[٢٨٥]
ونصبت نفسى للرماح مُدَجَّجاً مثلَ الدريَّةِ تُسْتَحل وتُشْرَمُ[٢٨٦]

إنه يعتب على قومه أنهم خذلوه وتركوه وحيدا فى المعركة ، مع انه كان يعمل على بناء مجدهم ، فكأنه يبنى وهم يهدمون .

وقد ركب فرساً قوية يصارع عليها الأعداء ، وكم وجه الى خصومه رماحه . . . إلى الفرسان الذين رأت زوجاتهم ماسوف يصيبهم فحاولن أن

---

(٢٨١) مقدم : الموضع لايتقدم فيه الا الشجعان .
(٢٨٢) غمرته : معظمه
(٢٨٣) أقب : ضامر الخصر ـ ومخماص : ضامر البطن ـ يصف فارساً
(٢٨٤) ألة : بتشديد اللام المفتوحة بعد الهمزة المفتوحة ـ حربة ، ويزنية : منسوبة إلى ذى يزن ، ملك من ملوك حمير ، وسحماء : سوداء العصا ـ سنان سلجم : طويل
(٢٨٥) حنّته : زوجته التى تحن إليه ـ فلانة : كناية عن الفرس
(٢٨٦) الدرية : الدريئة ـ وهى الحلقة تنصب ليتعلم فيها الطعن ، تُشْرَم : تقطع

يردوهم عن لقائى ، فى الوقت الذى نصبت فيه منفردا نفسى وجعلتها هدفا للرماح من كل جانب .

إنه تعليل لفراره فى ذلك اليوم الذى تخلى فيه عنه أنصاره وأصحابه ، فلا سبيل الى بقائه وحده فى ميدان المعركة التى ظهرت نتائجها واضحة أمامه . .

أين هو من الرسول - ﷺ - الذى ثبت وحده فى الوقت الذى انهزم عنه أنصاره ، ومع ذلك لم يتزحزح قيد شعرة إلى الوراء ، بل كان متقدما وهو فوق بغلة شهباء لامجال لها فى الحرب - لايأبه بمن أمامه من أبطال ، ولا بما حوله من فزع واضطراب ، وهو ينادى بأعلى صوته منبها الى مكانه . . انا النبى لاكذب أنا ابن عبدالمطلب . . ؟ . .

قال على بن أبى طالب - رضى الله عنه - : كنا إذا اشتد البأس اتقينا برسول الله - ﷺ - .

لقد سأل النبى - ﷺ - وفد هوازن عن هذا الرجل الذى كان سببا فى هذه المعركة كلها من أولها إلى آخرها . .

لم يسأل عنه ليقتص منه أو ليوقع به ، ولكن ليتيح له فرصة يحقق فيها وجوده ، ويثبت فيها ذاته ، ويصنع لنفسه المجد الحقيقى الباقى الذى لايفنى ، والذكر الخالد الذى لاينساه الناس . .

وكان النبى - ﷺ - قد أمر بحبس أهل مالك بمكة عند عمتهم أم عبدالله بن أبى أمية . وكلمه وفد هوزان فيهم قائلين : يارسول الله أولئك سادتنا . فقال رسول الله : إنما أريد بهم الخير .

وتساءل : مافعل مالك بن عوف ؟

قالوا : هو لاجىء طريد بين ثقيف .. بعد أن كان سيدا مطاعا بين قومه .. قال النبى صاحب القلب الرحيم : « أخبروا مالكا أنه إن أتانى مسلما رددت اليه أهله وماله وأعطيته مائة من الابل »

وفى سرعة البرق نما هذا الخبر الى مالك ، حمله إليه سرا من يهتم بأمره .

ولم يتردد مالك فى اغتنام هذه الفرصة السانحة ، وهو لم ينجح فى اتخاذ قرار مثلما نجح فى اتخاذه قرار القدوم الى رسول الله - ﷺ - .

فجاء مسرعا الى رسول الله - ﷺ -

ولكنه حين قرر العودة خشى أن تحس به ثقيف فتحبسه لتحول بينه وبين تنفيذ مايريد ، فأمر براحلته فهيئت له بعيدا عن الطائف ، وأمر بفرس فأتى به الى الطائف ، فخرج ليلا - دون أن يراه أحد - فجلس على فرسه ، وركضه ، حتى أتى الدهناء - مكان راحلته التى هيئت له - فنزل عن الفرس وامتطاها . وسار الى النبى - ﷺ - وهو يقلب فى نفسه ماسيقوله له .

لقد تيقن أنه يقصد نبيا - لاشك فى ذلك - وهو مؤيد من الله بما لاقبل له به - وقد أخطأ حين حاول محاربته .. وهاهو الآن فى طريقه اليه ، وقد تفضل هو فدعاه . فكيف يجزى هذا العمل العظيم ؟

ولكنه شاعر ، والشعر خير وسيلة تذلل الصعاب ، وتزيل الحجاب .. ووقف مالك بين يدى الرسول - صلى الله عليه وسلم - فلم يجد أمامه إلا الرحمة الشاملة ، والرقة البالغة ، والقلب الواسع والوجه المشرق الذى يشع نوره فيملأ ماحوله بهجة وانطلاقا .

وأسعفه شعره فقال : بين يدى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى تهزه الكلمة الطيبة الصادرة من وجدان صادق :

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله في الناس كلهم بمثل محمد
أوفى وأعطى للجزيل إذا اجتدى متى تشأ يخبرك عما فى غد(٢٨٧)
وإذا الكتيبة عَرَّدت انيابها بالسمهرى وضرب كل مهند(٢٨٨)
فكأنه ليث على أشباله وسط المباءة خادر فى مرصد(٢٨٩)

وأسلم مالك بن عوف ، ورد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عليه ماله وأهله ، وأعطاه مائة من الإبل ، واستعمله على من أسلم من قومه ومن قبائل قيس عيلان ، وأمره بمغاورة (٢٩٠) ثقيف ، ففعل ذلك وضيق عليهم ، وسبحان مقلب القلوب ومغير الأحوال .

فكان لايخرج سرح من ثقيف إلا أغار عليه ، حتى ضيق عليهم المسالك ، فقال أبو محجن الثقفى يشكو ذلك :

هابت الأعداء جانبنا ثم تغزونا بنو سلمة ؟
وأتانا مالك بهم ناقضا للعهد والحرمة
وأتونا فى منازلنا ولقد كنا أولى نقمة(٢٩١)

---

(٢٨٧) اجتُدِى : طلبت منه الجدوى وهى العطية
(٢٨٨) عردت : مالت ، والسمهرى : الرمح
(٢٨٩) الاشبال : جمع شبل ، ولد الاسد ، والمباءة : الغَبَرة ، وخادر : داخل خدره ، والمرصد : الذى يرصد منه ويرقب
(٢٩٠) مغاورة : الإغارة عليهم
(٢٩١) سيرة ابن هشام حـ ٤ ، ص ١٠٧ ـ أسد الغابة حـ ٥ ، ص ٤٢

قصـــة الشـــيماء

من الشيماء ؟

هى الشيماء بنت الحارث السعدية أخت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الرضاعة أبوها هو الحارث بن عبد العزى بن رفاعة بن ناصرة ، من بنى سعد بن بكر .

وأمها هى حليمة بنت أبى ذؤيب ، وأبو ذؤيب هو عبد الله بن الحارث بن شِجنةَ بن جابر بن رزام بن ناصرة من بنى سعد بن بكر .

ويقال : إن الشيماء اسمهاُ حذافة ولكن لقب الشيماء غلب عليها فعرفت به . . . . وللنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخوان من الرضاعة غيرها ، هما : عبد الله بن الحارث ، وأنيسه بنت الحارث .

وكانت الشيماء ضمن الوفد الذى جاء للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من هوزان . . . جاءت هى وأمها حليمة .

وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد أصدر أمرا قال فيه : إن قدرتم على ـ بجاد ـ فاقتلوه .

وكان بجاد وهو رجل من بنى سعد قد أحدث حدثا عظيما استوجب ذلك الطلب الملح من النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك أنه أتاه رجل من المسلمين فقتله . . . وقيل : إنه قطعه عضوا عضوا ثم أحرقه بالنار . إنها الوحشية بعينها .

وشاء القدر أن يظفر به المسلمون ومعه أهله ، فساقوهم الى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكانت معهم الشيماء ، وأتعبوها فى السير . نظرا لوجودها ضمن حاشية هذا الرجل الظالم الأثيم .

فقالت الشيماء فى محاولة لتخفيف ما ألم بها من تعب : تعلموا والله أنى أخت صاحبكم من الرضاعة . .

ولكن أحدا لم يصدقها . . فما أكثر الادعاء فى مثل هذه الظروف . وماترك عدوان هوزان وجمعها للأعاريب من كل مكان فرصة لتصديق أحد .

فلما انتهوا الى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ انبرت تقول : يارسول الله ، انى أختك . أنا حذافة بنت الحارث بن عبد العزى ، ابنة حليمة . . ولاشك أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ اهتدى الى معرفتها بنور الله ، ولكنه أمام موقف يستدعى التثبت والأناة . وهذه دعوى فى ميدان حرب ، تحتاج الى دليل وبرهان ، فقال لها : ماعلامة ذلك ؟

فقالت الشيماء : عضة عضضتنيها فى ظهرى . . وأنت طفل . . لقد علمنا أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد استرضع فى بادية بنى سعد ، وحين جاءت حليمة السعدية لأخذه ، كانت ترغب عنه ، ولكنها لم تجد غيره ، فقد سبقتها صويحباتها الى بيوت أهل الغنى وأخذن منها الغلمان من ذوى الآباء الأحياء طمعا فيما يغدقه والد الصبى على المرضع من

نعمة .... ولم يبق سوى هذا اليتيم الذى مات أبوه قبل أن يولد ، فاضطرت إلى أخذه راغمة ... حذرا من أن تعود بغير شيء .

وكان فى أخذه الخير والبركة لها ولأهلها .

وكان الطفل الذى ولدته حليمة هو عبد الله ، بن الحارث وهو الذى رضع مع النبى - صلى الله عليه وسلم - أما الشيماء فقد كانت مولودة قبل ذلك ، وقد تولت حضانة النبى - صلى الله عليه وسلم - مع أمها .

كانت حليمة تُجْلس النبى - صلى الله عليه وسلم - فى حجر الشيماء ، ريثما تفرغ من شئون البيت .

وشب وهو معها ومع أختها أنيسة وأخيها عبد الله ، وكانوا يلعبون معا كما يلعب الصبيان .

وفى يوم كانوا يلعبون فحدثت هذه العضة التى أشارت إليها الشيماء فى حديثها .

وتذكر النبى - صلى الله عليه وسلم - ذلك .

فبسط لها رداءه فأجلسها عليه ، ورحب بها ودمعت عيناه رقة لها . ولما أصاب قومها بسبب مطاوعتهم لدعوة الجهل والشقاق .

وعرض النبى - صلى الله عليه وسلم - عليها أن تبقى معه ، فتسير معه إلى المدينة ، وخيرها فى ذلك فقال لها : إن أحببت فعندى محببة مكرمة ، وإن أحببت أن ترجعى إلى قومك فارجعى .

فقالت : بل تردنى إلى قومى يارسول الله .
وأسلمت الشيماء وحسن إسلامها .

وقال ابن إسحاق : أعطى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الشيماء جارية وغلاما اسمه مكحول ـ فزوجته من الجارية ، فلم يزل فيهم من نسلهما بقية .

وأمر لها ببعير أو بعيرين ، وقال لها : ارجعى الى الجعرانة تكونين بها مع قومك فإنى أمضى إلى الطائف .

لقد حدث كل ذلك فى أوطاس قبل ذهاب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى حصار الطائف وعاد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد ذلك الى الجعرانة فوجدها ، كما قال لها .

وأعطاها نعما وشاءً لمن بقى من أهل بيتها .
وكلمته فى العفو عن بجاد ، فعفا عنه .

قال بعض الرواة : إنه سألها عن أبويها فقالت : إنهما ماتا : إلا أن هذه الرواية معارَضة برواية أخرى تناقضها .

فقد أورد أبو الطفيل أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان بالجعرانة يقسم لحما ، فأقبلت امرأة بدوية ، فلما دنت منه بسط لها رداءه فجلست عليه .

فقلت : من هذه يارسول الله ؟

فقال : إنها أمه التى أرضعته .

وبعضهم قال : إنه هش لها وقال : أمه أمه . .

وروى ابن سعد فى طبقاته قال : جاءت ظئر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فبسط لها رداءه وأكرمها وأعطاها ، وقضى حاجتها . . وبقيت بعده ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى جاءت أبا بكر فأكرمها ، وبسط لها رداءه كما فعل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقضى لها حاجتها .

وبقيت بعده حتى زمان عمر رضى الله عنه ـ فجاءت إليه فأكرمها وقضى لها حاجتها[292] ، وكانت حليمة تفد الى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى أيام خديجة ـ رضى الله عنها ـ وهو فى مكة . فكانت خديجة تكرمها ، وقد جاءت مرة تشكو للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ جدب البلاد وهلاك الماشية فكلم خديجة لها فأعطتها أربعين شاة وبعيرا للظعينة وانصرفت إلى أهلها .

وكما وردت هذه الأخبار مؤكدة لحياة حليمة إلى مابعد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإن هناك أخبارا تشير الى إسلام الحارث ـ أبيه من الرضاعة ذكر ابن الأثير قال : قدم الحارث بن عبد العزى أبو الرسول ـ

---

(٢٩٢) الطبقات الكبرى حـ ١ قسم١ ، ص ٧١

صلى الله عليه وسلم ـ من الرضاع على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مكة فقالت له قريش : ألا تسمع مايقول ابنك هذا ؟

قال : مايقول ؟

قالوا : يزعم أن الله يبعثنا بعد الموت ، وأن للناس حينئذ دارين يعذب فى الأولى من عصاه ، ويكرم فى الثانية من أطاعه ، وقد شتت أمرنا وفرق جماعتنا .

فأتاه فقال : أى بنى ، مالك وقومك يشكونك ويزعمون أنك تقول : إن الناس يبعثون بعد الموت ، ثم يصيرون الى جنة أونار ؟

فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : نعم ، أنا أزعم ذلك ، وفى هذا اليوم ياأبه آخذ بيدك حتى أعرفك حديثك اليوم .

وأسلم الحارث بعد ذلك فحسن إسلامه ، وكان يقول حين أسلم ؛ لو قد أخذ بيدى ابنى فعرفنى ماقال لم يرسلنى حتى يدخلنى الجنة[٢٩٣] .

وذكر مثل ذلك ابن سعد فى الطبقات الكبرى .

ولم يرد شيء بخصوص عبدالله بن الحارث ـ أخيه من الرضاعة ، ويبدو

---

(٢٩٣) أسد الغابة حـ ١ ، ص ٤٠٤

أنه هلك على كفره ، أو هلك قبل البعثة .

كما لم يرد شىء أيضا عن أنيسة أخته .

ولكنه ورد خبر عن مكحول ، ذلك الخادم الذى وهبه النبى - ﷺ - للشيماء هو وجارية معه .

فقد ذكره ابن الأثير فى كتابه - وأسند اليه الخبر الذى ذكرناه فى إكرام النبى - ﷺ - للشيماء وأنه أعطاها وردها الى قومها(٢٩٤) ولكنهم لم يذكروا اسم الجارية التى وهبت لها .

شيماء أخرى

ولا يفوتنا - والحديث ذو شجون - أن نشير الى شيماء أخرى .... والحديث عنها يدخل فى معجزات النبى - ﷺ - وإخباره عن بعض الغيبيات التى صدقها الواقع فيما بعد .

فقد حدث ابن كثير قال : فى أثناء رجوع النبى - ﷺ - من تبوك إذا به يقول : « رفعت لى الحيرة البيضاء وهذه الشيماء بنت نفيلة الأزدية على بغلة شهباء معتجرة بخمار أسود .

قال خريم بن أوس بن حارثة : فقلت يارسول الله ان نحن دخلنا الحيرة فوجدتها كما تصف فهى لى ؟

---

(٢٩٤) أسد الغابة حـ ٥ ، ص ٢٥٧

قال : هى لك .

قال : ثم كانت الردة ، فما ارتد أحد من طيىء ، وكنا نقاتل من يلينا من العرب على الاسلام ، فقاتلنا قيسا وفيها عينية بن حصن ، وقاتلنا بنى أسد وفيهم طليحة بن خويلد . وكان خالد بن الوليد يمدحنا بهذا الشعر :

جزى الله عنا طيئا فى ديارها بمعترك الأبطال خير جزاء
هم أهل رايات السماحة والندى إذا ماالصبا ألوت بكل خباء
هم ضربوا قيسا على الدين بعدما أجابوا منادى ظلمة وعماء

قال : ثم سار خالد الى مسيلمة الكذاب فسرنا معه ، فلما فرغنا من مسيلمة أقبلنا ناحية البصرة فلقينا ـ هرمز ـ فى جيش هو أكبر من جمعنا ، ولم يكن أحد من العجم أعدى للعرب والإسلام من هرمز .

فخرج إليه خالد ، ودعاه إلى المبارزة ، فقتله خالد ، وباع قلنسوته فبلغت مائة ألف درهم . وكانت الفرس إذا شرف الرجل جعلت قلنسوته بمائة ألف درهم .

قال : ثم قفلنا على طريق الطف إلى الحيرة ، فأول من تلقانا حين دخلناها الشيماء بنت نفيلة ـ كما قال رسول الله ـ ﷺ ـ على بغلة شهباء معتجرة بخمار أسود .

قال خريم : فتعلقت بها وقلت : هذه وهبها لى رسول الله ـ ﷺ ـ فدعانى خالد وقال : البيِّنة .

فأتيت بمحمد بن مسلمة ، ومحمد بن بشير الأنصارى فشهدا لى ، فسلمها إلىّ . . . فنزل إلىّ أخوها عبدالمسيح يريد الصلح ، فقال : بعنيها ، فقلت : لاأنقصها والله عن عشر مائة ، فأعطانى ألف درهم وسلمتها إليه .

فقيل لى : لو قلت مائة ألف لدفعها اليك .

فقال : ماكنت أحسب أن عددا أكثر من عشر مائة .

طرائف حدثت فى غزوتى حنين والطائف

ولم تخل غزوة حنين على ضراوة ماحدث فيها من طرائف أشار اليها الرواة ، وقد تحدثنا قبل ذلك عن طرف منها . ونضيف اليها مايأتى :

يذكر الرواة أن راية الأحلاف ـ أحلاف هوازن ـ من ثقيف وغيرها ـ كانت مع قارب بن الأسود .

فلما انهزم الناس أسند الراية إلى شجرة وهرب هو وبنو عمه وقومه من الأحلاف . فلم يقتل من الأحلاف غير رجلين ـ أحدهما يقال له وهب ، والآخر هو الجُلَاح .

فلما سمع النبى ـ ﷺ ـ بقتل الجلاح قال : قتل اليوم سيد شباب ثقيف إلا ماكان من ابن هنيدة ، يعنى بابن هنيدة الحارث بن أويس .. وقال العباس بن مرداس يذكر قارب بن الأسود وفراره من المعركة . .

ألا من مبلغ غَيْلان عنى وسوف إخال يأتيه الخبير
وعروة انما أهدى جوابا وقولا غير قولكما يسير
بأن محمدا عبد رسول لرب لايضل ولا يجور
وجدناه نبيا مثل موسى فكل فتى يخايره مخير(٢٩٥)

ثم قال عن قارب وقومه :

فإن يُهْدَوْا إلى الاسلام يُلْقَوا أنوفَ الناس ماسمر السمير(٢٩٦)
وإن لم يسلموا فهم أذان بحرب الله ليس لهم نصير

أما غيلان وعروة فهما سيدان من سادات ثقيف أسلما وحسن إسلامهما كما أسلم قارب بن الأسود أيضا .

ونذكر قصة قارب بن الأسود الثقفى هنا ، لأنه أسلم قبل قدوم وفد ثقيف .

ذلك أن عروة بن مسعود الثقفى كان قد أسلم وقتله قومه حين أذَّن فوق بيته لصلاة الفجر . وكان ذلك بعد حصار الطائف .

---

(٢٩٥) يخايره : يغالبه فى الخير ـ مخير : مغلوب فى الخير
(٢٩٦) السمير : جماعة السمار يتحدثون ليلا .

وغضب لقتله ابنه أبومليح بن عروة بن مسعود ، وقارب بن الأسود وهو ابن أخيه وفارقا قومهما ، وأقسما على ألا يجتمعا معهم على شىء أبدا ، وقَدِمَا على رسول الله ـ ﷺ ـ وأعلنا إسلامهما .

وأسلمت ثقيف بعد إسلامهما . . وسنذكر قصة ذلك ان شاء الله . وأرسل النبى ـ ﷺ ـ أبا سفيان والمغيرة بن شعبة لهدم صنم ثقيف .

فسأل أبوالمليح بن عروة ـ النبى ـ ﷺ ـ أن يقضى دينا على عروة ـ أبيه .
فقال النبى ـ ﷺ ـ : نعم

فقال قارب : وأنا أبى ـ الأسود ـ عليه دين فاقضه ـ والأسود هو أخو عروة .

فقال النبى ـ ﷺ ـ إن الأسود مات كافرا . أما عروة فقد مات مسلما . ولكن قاربا كان لبقا فقال ؛ يارسول الله ، لكنك تصل مسلما ذا قرابة ـ يعنى بذلك نفسه ـ إنما الدين علىَّ وأنا الذى أطالب به .

فأمر النبى ـ ﷺ ـ أبا سفيان أن يقضى دين كل من عروة والأسود(٢٩٧) .

ومن الطرائف أيضا : أن رجلا جاء للنبى ـ ﷺ ـ فوقف على رأسه الشريف ، فقال : يارسول الله ، إن لى عندك موعدا .

---

(٢٩٧) أسد الغابة حـ ٤ ، ص ٣٧٥

فقال - ﷺ - : صدقت فاحتكم

فقال : أحتكم ثمانين ضائنة وراعيها .

فقال - ﷺ - : هى لك وقد احتكمت يسيرا ، ولصاحبة موسى - عليه السلام - التى دلته على عظام يوسف - على السلام - كانت أحزم وأجزل حكما منك - حين حكمها موسى - عليه السلام - فقالت : ان أدخل معك الجنة .

وجاء للنبى - ﷺ - أعرابى وهو فى الجعرانة ، وعليه جبة ، وهو متخلق بخَلوق - أى متطيب بالطيب - وقد أحرم بعمرة فقال : يارسول الله ، كيف ترى فى رجل أحرم فى جبة بعدما تطيب بطيب ؟

فقال - ﷺ - بعد أن سكت فترة ونزل عليه الوحى :

أين السائل عن العمرة ؟

فجاء الرجل ، فقال له رسول الله : اخلع عنك الجبة واغسل عنك أثر الخلوق . . . وفى رواية - قال له النبى - ﷺ - ماكنت تصنع فى حجك ؟ قال : كنت أنزع هذه الجبة وأغسل هذا الخلوق . . .

فقال - ﷺ - : اصنع فى عمرتك ماكنت تصنع فى حجك[٢٩٨] .

---

(٢٩٨) السيرة الحلبية حـ ٣ ، ص ٩٨

إسلام ثقيف

رأينا أن نتحدث عن إسلام ثقيف ووفود هم على رسول الله - ﷺ - قبل موعده قليلا - لأننا نرى أن وصل الحديث بعضه ببعض أولى من اتباع السرد التقليدى الوارد فى كتب السيرة . . وقد رأينا كيف ظاهرت ثقيف هوازن فى عدوانها ووقفت معها صفا واحدا أمام النبى - ﷺ - وتجرد النبى - ﷺ - لحربها بعد فراغه من هوازن ، وحاصرها ولكنها تحصنت بحصونها ، ورمت المسلمين بسهامها ولم يجد رميها بالمنجنيق شيئا .

وقد أخبر الله نبيه - ﷺ - عن طريق الرؤيا التى قصصناها فيما سبق أنه لن ينال منها الآن . فانصرف عنها وهو يدعو قائلا : اللهم اهد ثقيفا وائت بهم مسلمين .

وفك النبى - ﷺ - الحصار ، وعاد إلى الجعرانة ، وقسم الغنائم ، وأنعم على هوازن ، واعتمر النبى - ﷺ - من الجعرانة - وعن هذه العمرة نقول :

عمرة الجعرانة

عن ابن عباس - رضى الله عنهما - فيما يرويه ابن سعد فى طبقاته قال : اعتمر النبى - ﷺ - أربع عُمَر : عمرة الحديبية - وهى عمرة الحصر - وعمرة القضاء من قابل ، وعمرة الجعرانة ، والرابعة مع حجته .

وقد تحدثنا عن الحديبية وعمرة القضاء ، وسيأتى الحديث عن حجه إن شاء الله ـ تعالى .

ونتحدث هنا عن عمرته التى اعتمرها من الجعرانة

فبعد أن فرغ ـ ﷺ ـ من تقسيم الغنائم ، والمنَّ على أهل هوازن أحرم بالعمرة من الجعرانة وذلك لليلتين بقيتا من شوال فى العام الثامن الهجرى .

ذهب ليلا ثم رجع . . . . . وقد خفيت هذه العمرة على كثير من الناس فلم يذكروها لقصر مدتها .

وقد أورد الرواة فى هذه العمرة بعض آثار . . . فقد حدث ابن لهيعة عن عياض بن عبد الرحمن عن محمد بن جعفر أن النبى ـ ﷺ ـ اعتمر من الجعرانة وقال : اعتمر منها سبعون نبيا .

وقد أنكر بعض الرواة ان النبى ـ ﷺ ـ اعتمر من الجعرانة ـ فقد أخرج البخاري من طريق أيوب عن نافع قال : « لم يعتمر رسول الله ـ ﷺ ـ من الجعرانة ، ولو اعتمر لم يخف على على عبد الله .

وأخرج مسلم من هذا الوجه عن نافع قال : « ذكر عند ابن عمر ـ رضى الله عنه ـ عمرة رسول الله ـ ﷺ ـ من الجعرانة فقال : لم يعتمر منها .

ولكن هذا الذى نفياه قد أثبته غيرهما ، والمثبت مقدم على النفى.

قال النووى : كلام عبد الله هذا محمول على نفى علمه ، أى أنه لم يعلم ذلك ، وقد ثبت أن النبى - ﷺ - اعتمر من الجعرانة ، والإثبات مقدم على النفى لما فيه من زيادة العلم . وقد ذكر مسلم فى كتاب الحج اعتمار النبى - ﷺ - من الجعرانة عام حنين - من رواية أنس - رضى الله عنه -

وحديث أنس هذا أخرجه أحمد والشيخان وأبو داود والترمذى ، وقد ورد من حديث ابن عباس - أخرجه أبو داود والترمذى وابن ماجة - وحسنه الترمذى . (٢٩٩)

ومن حديث جابر رواه البزار والطبرانى فى الأوسط ، ورجاله رجال الصحيح كما قاله الهيثمى .

قال الحافظ ابن كثير : قد أطبق النقلة على رواية ذلك من أصحاب الصحاح والسنن والمسانيد ، وذكر ذلك أصحاب المغازى والسير كلهم .

ووجه الخفاء ما ذكره الرواة من أن النبى - ﷺ - خرج ليلا معتمرا فدخل مكة ليلا ، فقضى عمرته ثم خرج من ليلته فأصبح فى الجعرانة كبائت .

ومن أجل ذلك خفيت عمرته على الناس .

---

(٢٩٩) الطبقات الكبرى جـ ١ قسم ٢ ص ٨٢٣

قال العينى : ليس فى قول نافع حجة ، لأن ابن عمر ليس كل ما علمه حدَّث به نافعا ، وليس كل ما حدث به حفظه نافع ، ولا كل ما علمه ابن عمر لا ينساه ، والعمرة من الجعرانة أشهر وأظهر من أن يشك فيها[٣٠٠] .

بل إن هناك من شاركوا النبى ـ ﷺ ـ فى هذه الرحلة من أصحابه ، فقد روى سعيد بن جبير عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ وأصحابه اعتمروا من الجعرانة فرملوا بالبيت ثلاثا ومشوا أربعا ، وجعلوا أرديتهم تحت آباطهم ، ثم قذفوها على عواتقهم اليسرى[٣٠١] .

عود الى بنى ثقيف .

وعاد النبى ـ ﷺ ـ بعد عمرته الى الجعرانة . وقد حلق ولم ينحر ، وكان الحالق لرأسه الشريف أبا هند الحجام ، وقيل : أبو خراش بن أمية . وأقام بالجعرانة ثلاث عشرة ليلة ثم أذن بالرحيل الى المدينة من موضعه ذاك .

وفى طريقه إلى المدينة اتبع أثره عروة بن مسعود الثقفى ، وكان زعيما فى قومه فأدركه قبل أن يصل إليها فأسلم ، وسأله أن يرجع إلى قومه بالإسلام فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ إنهم قاتلوك .

---

(٣٠٠) هامش دلائل النبوة حـ ٥ ، ص ٢٠١
(٣٠١) دلائل النبوة حـ ٥ ، ص ٢٠٤

لقد عرف النبى - ﷺ - فيهم طبيعة الامتناع ، ولذلك رفضوا الاستجابة له حين حاصرهم .

فقال له عروة : يا رسول الله ، أنا أحب إليهم من أبصارهم - وكان مُحببا فيهم مطاعا عندهم .

فأذن له النبى - ﷺ - بعد أن حذَّره مرارا .

فخرج عروة إلى قومه يدعوهم إلى الاسلام ، وهو يرجو ألا يخالفوه لمنزلته فيهم وحين وصل الى أرضه لم يذهب إلى اللات ويطوف بها ويحلق عندها كما كان يفعل سابقا ، وكما يفعل كل قادم الى الطائف .

وحينما أنكروا عليه ذلك أخبرهم أنه أسلم ودعاهم الى الإسلام . . فانصرفوا عنه منكرين ولم يجيبوه .

وحين طلع الفجر صعد إلى مكان عال وجهر بالأذان فرموه بالنبل من كل وجه ، فأصابه سهم فقتله . فمات شهيدا .

وقال له أهله قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة : ما ترى فى دمك ؟
فقال : كرامة أكرمنى الله بها وشهادة ساقها الله إلىَّ ، فليس فىَّ إلا ما فى الشهداء الذين قتلوا فى سبيل الله مع رسول الله - ﷺ - قبل أن يرحل عنكم فادفنونى معهم . فدفنوه معهم .

فيقولون : إن رسول الله ـ ﷺ ـ قال فيه : إن مثله فى قومه كمثل صاحب يسن فى قومه[٣٠٢] . وصاحب يسن هو الذى نزل فيه قوله ـ تعالى :

﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾[٣٠٣]

وقد سبق أن ذكرنا قصته مع قومه .

وقال قتادة فى قوله ـ تعالى « لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم[٣٠٤] » قالها الوليد بن المغيرة . . قال : لو كان ما يقول محمد حقا

---

(٣٠٢) سيرة ابن هشام ٢ / ٥٣٧

(٣٠٣) يس ٢٠ : ٢٧

(٣٠٤) الزخرف ٣١

لنزل القرآن عليَّ أو على عروة بن مسعود الثقفى . . . . والقريتان هما مكة والطائف[٣٠٥] .

وقد سبق أن ذكرنا قصة إسلام عروة بالتفصيل فى دلائل النبوة .

وقد أشرنا منذ قليل إلى أن ولده أبا مليح وابن أخيه قارب بن الأسود قدما على رسول الله ـ ﷺ ـ عقب قتل عروة يريدان فراق قومهما فأسلما ، وقال لهما رسول الله ـ ﷺ ـ من وليكما ؟

قالا : ولينا الله ورسوله .

ثم قال لهما : وخالكما أبو سفيان بن حرب ؟

فقالا : وخالنا أبو سفيان .

لقد أراد النبى ـ ﷺ ـ أن يجعل لهما إمام الثقفيين ولياً مرهوبا من البشر لأن ثقيفا لم تعرف ولاية الله والرسول بعد ـ ولاتؤمن إلا بما تراه ماثلا أمامها . ولو كان صنما .

معبود ثقيف :

وكانت ثقيف تعبد اللات من دون الله . ويقولون فى سبب تسميتها بذلك أقوالا منها :

أن اللات هذا كان رجلا ـ قيل إنه يهودى ـ بالطائف يقوم على آلهتهم ويلت لهم السويق . فلما مات عبدوه .

---

(٣٠٥) أسد الغابة حـ ٤ ، ص ٣٢

ومنها أنه كان رجلا فى رأس جبل له غنم يسلى منها السمن ويأخذ منها الأقط ، ثم يتخذ منها حيسا فيطعم الحجيج ، وكان ببطن نخلة ، فلما مات عبدوه وهو اللات .

وقال الكلبى . كان اللات رجلا من ثقيف يقال له : صرمة بن غنم ، وقيل : إنه عامر بن ظرب العدوانى . قال الشاعر :

لا تنصروا اللات إن الله مهلكها وكيف ينصركم من ليس منتصر ؟

وعلى هذه الروايات فان اللات تقرأ بتشديد التاء على أنها اسم فاعل من لتَّ . ولكنها وردت بالتخفيف كثيراً ، وقراءتها فى القرآن بالتخفيف أشهر . وحين يقف القارىء عليها يقف بالتاء . جاء فى الصحاح : اللات اسم صنم كان لثقيف بالطائف . وبعض العرب يقف عليها بالتاء وبعضهم بالهاء ، وبعضهم يلزمها الكسر مثل أمسِ »[٣٠٦] .

وقيل إن سدنتها وحجابها كانوا ـ بنى معتب من ثقيف ، وقد أقاموا حولها بيتا يعظمونه كتعظيم الكعبة .

---

(٣٠٦) تفسير القرطبى حـ ١٧ ، ص ١٠٠ سورة النجم

وانتهى العام الثامن الهجرى ، وجاء العام التاسع الذى يسمى عام الوفود - وبعد رجوع النبى - ﷺ - من تبوك - أقبل بنو ثقيف على النبى - ﷺ -

ولم يأت بنو ثقيف طائعين ، ولكنهم جاءوا مكرهين ، ذلك أنه بعد أن أسلم مالك بن عوف قال للنبى - ﷺ - أنا أكفيك ثقيفا ، أُغِير على سرحهم حتى يأتوك مسلمين .

فلم يزل مالك يغير عليهم ، ويقاتلهم حتى ضجوا ، ووجدوا أنهم لا طاقة لهم بالبقاء على هذه الحالة .

فمشوا الى عبد يا ليل بن عمرو ، وفوضوه فى أمر الذهاب إلى النبى - ﷺ . والذى تقدم إلى عبد ياليل هو عمرو بن أمية - وكان من أدهى العرب . ذهب إليه حتى دخل داره . فرحب به عبد يا ليل .

وقال له عمرو : إنه قد نزل بنا أمر ليست معه هجرة ، وقد كان من أمر هذا الرجل ما قد رأيت - يعنى النبى - ﷺ - وقد أسلمت العرب كلها ، وليست لكم بحربهم طاقة ، فانظروا فى أمركم . فتشاورت ثقيف عند ذلك ، وأجمعت على تفويض عبد يا ليل فى شأن القدوم على النبى - ﷺ -

فأقبل على المدينة ومعه خمسة رجال من وجوه ثقيف ، وكانت ثقيف تريد أن ترسله وحده ، ولكنه امتنع وخاف أن يحدث له ما حدث لعروة بن

مسعود ـ قبله .

وكان هؤلاء الخمسة هم : عثمان بن أبي العاص ، وأوس بن عوف ، ونمير بن خرشة ، والحكم بن عمرو ، وشرحبيل بن غيلان بن سلمة .

ولما جاءوا المدينة أحسن النبى ـ ﷺ ـ استقبالهم وضرب لهم قبة فى ناحية المسجد لكى يسمعوا القرآن ، ويروا الناس وهم يصلون .

وكان خالد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس ، وهو من السابقين الى الاسلام ، يتنقل بينهم وبين رسول الله ـ ﷺ .

وكانوا لا يأكلون طعاما يأتيهم حتى يأكل منه خالد .
وربما كان ذلك إكراما منهم لخالد وحبا فيه .

وظلوا فى المدينة فترة حتى أقبلوا على الاسلام ودخلوا فيه وحسن إسلامهم فيما بعد ، وكتب النبى ـ ﷺ ـ كتابا لهم ، وأمَّر عليهم عثمان بن أبى العاص .

وكانوا قد طلبوا من النبى ـ ﷺ ـ أن يؤخر هدم صنمهم ـ اللات ثلاث سنين ، فأبى عليهم النبى ـ ﷺ : ذلك .

فطلبوا أن يوخرها سنة ، فأبى .

وما زالوا ينزلون حتى سألوه أن يتركها لهم شهرا واحدا فأبى كذلك .

لقد طلبوا ذلك حتى يَسْلَمُوا من سفائهم ونسائهم وذراريهم ، وخوفا من أن يبطشوا بهم كما بطشوا من قبل بسيدهم عروة بن مسعود .

ورجوا أن يؤخر النبى هدمها حتى يدخل الإسلام قلوب قومهم ولكن النبى - ﷺ - لا يقبل المراءاة فى الدين .

وسألوه أن يُعْفوا من الصلاة . فقال لهم : لا دين بدون صلاة ، ولا خير فى دين لا صلاة فيه .

إنهم لم يذوقوا لذة الصلاة بعد ، ولو عرفوا أنها الصلة بين العبد وربه ما سألوا النبى - ﷺ - ذلك ولو أدركوا أن لها لذة لا تعد لها لذة - ولكن لا يعرفها إلا الخاشع - ما طلبوا الإعفاء منها .

وطلبوا أيضا ألا يكسروا أوثانهم بأيديهم . فأرسل النبى معهم أبا سفيان ابن حرب والمغيرة بن شعبة ليقوما بهذه المهمة التى رأوها ثقيلة ، على نفوسهم .

إن الاسلام لم يستبطن قلوبهم بعد .. ولم تخالطها بشاشته .

ولو أن الإسلام استبطن قلوبهم ما ترددوا لحظة فى أن يجعلوا هذه الأصنام رفاتا .

ورجع هذا الوفد الصغير إلى الطائف وبصحبته أبو سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة ـ وهو من بنى ثقيف أصلا .

أما سر اختيار هذين ، فلأن أبا سفيان له مكانته فى نفوس أهل ثقيف ـ فهو زعيم قريش ، وهو جد أولاد عروة بن مسعود الثقفى سيد ثقيف ، لأن عروة كان متزوجا من ابنته .

وأما المغيرة بن شعبة فهو منهم .. وخاله عروة بن مسعود .

هدم اللات

وحين قدموا الطائف أراد المغيرة بن شعبة أن يقدم أبا سفيان فى الدخول ، فأبى ، وقال له : ادخل أنت على قومك .

وأقام أبو سفيان بما معه من مال فى مكان بالطائف اسمه (ذو الهرم) وكانا قد قدَّما الوفد أمامهما .

ولما لقى القوم وفدهم وكان قد نزل عند اللات ، سألوهم عن سفارتهم . وقالوا لهم : ماذا جئتم به ؟

فلم يشاءوا أن يخبروهم بما حدث فى أول وهلة ، ولكنهم قالوا : لقد أتينا رجلا فظا غليظا قد ظهر بالسيف ودوخ العرب ، وعرض علينا أمورا

شدادا .... قال لنا : اهدموا اللات .

فثارت ثقيف قائلة : والله لا نقبل ذلك أبدا .
فقال لهم الوفد : أصلحوا السلاح وتهيأوا للقتال ...

لم يكن هدف أفراد الوفد من ذلك إلا إيقاع الرعب فى نفوس قومهم ، فان العرب كلها قد أسلمت فيما عداهم ، وجاءت الوفود تترى من كل مكان تعلن إسلامها وتبايع النبى - ﷺ - على الإيمان .

فما قيمة هؤلاء بين هذا البحر الطامى ؟ إن هم إلاّ ضب فى جحر - كما قال نوفل بن معاوية يوما للنبى - ﷺ : ما هم الا ضب فى حجر إن أقمت عليه أخذته وإن تركته لم يضرك .

وأعدت ثقيف فعلا للحرب عدتها ولكنها لم تقم على ذلك إلا يومين حتى دب الرعب فى قلبها ، فقالت : والله ما لنا به من طاقة - أعطوه ما سألكم .

عند ذلك قال الوفد : لقد جئنا الرجل ، وإنا قاضيناه وشرطنا ما أردنا - وقد وجدناه أتقى الناس وأوفاهم وأرحمهم وأصدقهم ، وقد بورك لنا ولكم فى مسيرنا إليه ، فاقبلوا عافية الله .

فقالت ثقيف لهم : فلم كتمتونا هذا الحديث ؟
قالوا : لقد أردنا أن ننزع نخوة الشيطان من قلوبكم .

فأسلم أهل ثقيف مكانهم . .

ولم يلبث بعد ذلك أن قدم أبو سفيان ، وتلقاه المغيرة وذهب الى اللات يهدمانها .

وقال المغيرة لأبي سفيان : ألا أضحكك من ثقيف ؟
قال : بلى .

فأخذ المعول وأقبل على اللات ، وضرب به اللات ضربة ـ ثم صاح وخر على وجهه .

فارتجت الطائف كلها فرحا وسرورا ، لأنهم ظنوا أن اللات قد صرعت المغيرة .

وأقبلوا إليه يقولون : كيف رأيتها يا مغيرة ؟ دونكها إن استطعت ألم تعلم أنها تهلك من عاداها ؟

والتفت سدتها للناس قائلين : انظروا . ألا ترون ما تصنع ؟
وسرعان ما قام المغيرة يضحك منهم ، ويهزأ بهم . ويقول لهم : يا خبثاء والله ما قصدت إلا اختباركم .

ثم أقبل بمعوله يهوى عليها حتى استأصلها .

وأقبلت عجائز ثقيف تبكى حولها وتنوح وتقول :

- لنبكين دفاع .. أسلمها الرضاع

... كرهوا المصاع ..

أى أسلمها هؤلاء القوم حين كرهوا القتال .

وطويت صفحة اللات الى الأبد كما طويت قبل ذلك صفحات هبل والعزى ومناة الثالثة الأخرى . وذهبت الى غير رجعة عبادة الأصنام فى هذه القرية المنيفة التى كانت تنافس مكة وتكاثرها .

جزع النساء على اللات

ويروى بعض الرواة أن المغيرة حين ضربها بالمعول خرجت نساء ثقيف حُسَّراً متكشفات يبكين عليها ، وفرحن حين أظهر المغيرة أنها صرعته ، ولكنه نهض يقول لهن ولغيرهم من الرجال : قبحكم الله ، إنما هى حجارة جامدة . فأقبلوا على الله واعبدوه . ثم ضرب بابها فكسره ، وعلا سورها ، وعلا رجال الوفد معه يهدمونها حجرا حجرا حتى سورها .

فقال البواب : ليغضبن الأساس فيخسف بهم .

فحفروا الأساس حتى أخرجوا التراب ..

وأخذ المغيرة ما لها وحليها وسلمه إلى أبى سفيان - فقضى منه الدين الذى كان على عروة والأسود . وعاد بالباقى إلى رسول الله - ﷺ - فقسمه بين الناس .

الكتاب الذى كتبه النبى لثقيف

وكان الكتاب الذى كتبه النبى - ﷺ - لثقيف هو :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله الى المؤمنين . إن عضاه[٣٠٧] - وج - وصيده حرام ، لا يعضد - من وُجد يفعل شيئا من ذلك ، فإنه يجلد وتنزع ثيابه ، فإن تعدى ذلك فإنه يؤخذ إلى النبى - ﷺ - ليرى فيه رأيه . وان هذا أمر النبى محمد رسول الله . .

وكتب خالد بن سعيد - بأمر محمد بن عبد الله - فلا يتعداه أحد فيظلم نفسه فيما أمر به محمد رسول الله . . . . هذه العبارة الاخيرة فيها تأكيد لمضمون الكتاب السابق وهذا الكتاب يجعلنا نتساءل : هل الطائف حَرَم ؟

يرى جمهور الفقهاء : أنه ليس فى البقاع حَرَم إلا حرم مكة ، والمدينة للأحاديث الصحيحة فى ذلك .

وقال بعضهم : إنها حرم للكتاب السابق ، ولحديث رواه الإمام أحمد فى مسنده : إن صيد « وج » وعضاهه حرم محرم لله »[٣٠٨] ويراد بوج - الطائف .

---

(٣٠٧) العضاه ؛ كل شجر ذى شوك جمعه عضهة .

(٣٠٨) ورواه أبو داود عن عروة عن أبيه

وضعف الجمهور الحديث الوارد فى تحريم الطائف وقالوا إنه وارد بدون اسناد . أما الحديث الذى رواه عروة فقالوا : لم يصح أن عروة روى عن أبيه وإن كان قد رآه ..

عدد وفد ثقيف

وقد ذكرنا أن هذا الوفد كان مكونا من ستة أفراد ـ خمسة خرجوا مع عبد ياليل بن عمرو ، وهو الذى اختارهم ، وقد ذكرنا أسماءهم .

ولكن ابن سعد فى طبقاته يذكر أن هؤلاء الستة كان معهم سبعون رجلا . وهؤلاء الستة كانوا رؤساءهم .

وقال بعضهم : كانوا جميعا بضعة عشر رجلا .

وكان الذى استقبلهم بالمدينة أول ماوصلوا هو المغيرة بن شعبة .

قال المغيرة : إنى لفى ركاب المسلمين بذى حُرض ، فاذا عثمان بن أبى العاص ـ أحد الوفد ـ تلقانى يستخبرنى .

فلما رأيتهم خرجت أشتد أبشر رسول الله ـ ﷺ ـ بقدومهم . فلقيت أبا بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ فأخبرته بقدومهم .

فقال : أقسمت عليك لا تسبقنى إلى رسول الله ـ ﷺ ـ بخبرهم فدخل فأخبر النبى ـ ﷺ ـ فسر بمقدمهم .

ونزل من كان منهم من الأحلاف على المغيرة بن شعبة فأكرمهم ، وضرب النبي - ﷺ - لمن كان فيهم من بنى مالك قبة فى المسجد .

فكان النبى - ﷺ - يأتيهم كل ليلة بعد العشاء فيقف عليهم ويحدثهم حتى يراوح بين قدميه ، ويشكو قريشاً ويذكر الحرب التى كانت بينه وبينهم .

قال المغيرة : فدخلوا الاسلام ، فلا أعلم قوما من العرب بنى أب ولا قبيلة كانوا أصح إسلاماً ولا أبعد أن يوجد فيهم غش لله ولكتابه منهم .

لقد استجاب الله دعاء نبيه - ﷺ - فى ثقيف حين قال : اللهم اهد ثقيفاً وائت بهم مسلمين . فجاءوا مسلمين بدون حرب وكفى الله المؤمنين القتال .

من الذى ولاه النبى أمر ثقيف؟

وقد سبقت الاشارة إلى أن الذى تولى أمر ثقيف - هو عثمان بن أبى العاص بن بشير الثقفى ، كان واحداً من الوفد الذى ذهب للنبى - ﷺ - .

وكان أحدث القوم سنا ، ولكنه كان أحرصهم على التفقه فى الاسلام وتعلم القرآن .

وحين رآه أبو بكر بهذه الصفة قال للنبى - ﷺ - : يارسول الله ، إنى

رأيت هذا الشاب أحرصهم على التفقه فى الاسلام وتعلم القرآن . فولاه النبى - ﷺ - لذلك .

وصية النبى له :

وأقبل النبى - ﷺ - يوصيه . قال عثمان : كان من آخر ماأوصانى به رسول الله - ﷺ - حين بعثنى إلى ثقيف فقال : ياعثمان تَجوَّز فى الصلاة ، واقدر الناس بأضعفهم ، فإن فيهم الكبير والضعيف وذا الحاجة والصغير .

ومعنى تجوز : خفف وأسرع .

وظل عثمان على الطائف حياة رسول الله - ﷺ - ، وخلافة أبى بكر ، وسنتين من خلافة عمر . ثم استعمله عمر على عمان والبحرين .

وكان له موقف مشكور فى الردة ، فقد منع أهل الطائف من الردة فأطاعوه(٣٠٩) .

هدم صنم طيىء

لقد تحطمت الأصنام فى الجزيرة العربية بانتشار الاسلام ، وفى ربيع الأول من العام التاسع الهجرى أرسل النبى - ﷺ - على بن أبى طالب إلى صنم لطيىء اسمه « الفُلْس » بضم الفاء وسكون اللام - ليهدمه ، وكان معه مائة وخمسون رجلا .

---

(٣٠٩) أسد الغابة حـ٣ ، ص ٥٨٠

فقدم على ومن معه إلى ديار طيىء ـ محلة حاتم الطائى ـ وهدم الصنم وحرقه ، ووجد فى خزائنه ثلاثة أسياف هى : رَسوب ، والمِخْذم ، واليمانى ، وثلاثة أدرع .

وغنم سبْياً ، فاستعمل على بن أبى طالب عليه ـ أبا قتادة كما غنم ـ نعما وشاءً وفضة فجعل عليها عبد الله بن عتيك .

وكان فى السبى سفانة بنت حاتم . . .
وحين قدمت على النبى ـ ﷺ ـ عرفته بنفسها فأعتقها النبى ـ ﷺ ـ .

كانوا حين قدموا بها جعلوها فى خيمة بباب المسجد ، فمر بها رسول الله ـ ﷺ ـ وكانت امرأة جزلة ـ فقامت وقالت : يارسول الله ، هلك الوالد ، وغاب الوافد ، فامنن علىَّ منَّ الله عليك .

قال النبى ـ ﷺ ـ من وافدك ؟
قالت : عدى بن حاتم
قال : الفارُّ من الله ورسوله ؟
ثم مضى رسول الله ـ ﷺ ـ عنها وتركها .

ثم كلمته بعد ثلاث مثل ماكلمته به أولا ، وقالت له : مُنَّ علىَّ منَّ الله عليك .

فقال لها : قد فعلت فلا تعجلى ، حتى تجدى ثقة يبلغك بلادك ثم آذنينى .

ثم قدم رهط من قومها ، فجاءت رسول الله ـ ﷺ ـ وقالت له : يارسول الله ، قدم رهط من قومى .

فكساها النبى ـ ﷺ ـ وأعطاها راحلة ، وأعطاها نفقة . .

ويذكر الرواة أنها قالت للنبى ـ ﷺ ـ :

يامحمد ، أرأيت أن تمنَّ علىَّ ، ولا تفضحنى فى قومى ، فإنى بنت سيدهم . . إن أبى كان يطعم الطعام ، ويحفظ الجوار ويرعى الذمار ، ويفك العانى ، ويشبع الجائع ، ويكسو العريان ، ولم يرد طالب حاجة قط . أنا بنت حاتم الطائى .

فقال لها ـ ﷺ ـ : هذه مكارم الأخلاق حقاً ، ولو كان أبوك مسلما لترحمت عليه . خلوا عنها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق ، وإن الله يحب مكارم الأخلاق(٣١٠) .

وانطلقت سفانة حتى قدمت الشام على أخيها عدى بن حاتم وكان قد فر إليها بأهله وماله . . ولذلك قال الرسول ـ ﷺ ـ لسفانة عنه : الفار من الله ورسوله . .

وأخبرته سفانة بما رأته من النبى ـ ﷺ ـ وما فعله معها ، وقال لها أخوها : ماترين ؟

قالت : إنى أرى أن تلحق به . .(٣١١)

---

(٣١٠) السيرة الحلبية حـ٣ ، ص ٢٢٤

(٣١١) أسد الغابة حـ٧ ، ص ١٤٣

فجاء عدى بعد ذلك للنبى - ﷺ - فى وفد وأكرم النبى - ﷺ - وفادته .
لقد أسلمت سفانة ، وحسن إسلامها .

وطُهِّرت أرض الجزيرة العربية من عبادة الأصنام بعد أن تحطمت جميعها بانتشار الاسلام ، وإقرار الناس بديانة الحق . واقتناعهم بأن هذه الأصنام لا تنفع ولا تضر .

وتحقق وعد الله الذى وعده لعباده المؤمنين :

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ (٣١٢)

وصدق الله رسوله الرؤيا بالحق ، وأصبحت كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى .. والله عزيز حكيم .

موضع العبرة من حنين والطائف

لقد سرنا مع الرسول - ﷺ - مصاحبين له فى مسيرته نحو حنين ، ثم الطائف .. ورأينا أن إعجاب المسلمين بكثرتهم يوم حنين قد تسبب فى هزيمتهم فى بداية المعركة ..

---

(٣١٢) النور ٥٥

ذلك أن الغرور قد يُغفل صاحبه عن التفطن لمفاجآت العدو . و
المسلمون قد أعجبتهم كثرتهم فلن تغن عنهم شيئاً . ولكن الله نبهـ
فتداركوا أمرهم واستجابوا لدعوة الرسول إذ ناداهم ، فاستعادوا ز
الموقف ونصرهم الله على عدوهم نصراً مؤزراً .

وقد عرفنا أن النبى - ﷺ - استعمل لأول مرة سلاحاً لم يكن يستعمله ،
قبل - هو سلاح المنجنيق والدبابة ، والذى نبه الى ذلك هو سلمان الفارسى
ومعنى ذلك أن على المسلمين أن يتنبهوا إلى استعمال كل سلاح متط
يمكن أن تتجه إليه الشعوب مصداقا لقوله - تعالى -

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾

وقد كانت ثقيف على أهبة الاستعداد لاستعمال بعض الأسلحة المتطورة
وقد أرسلت بعض رجالها للتدريب على هذا النوع من السلاح فقد أورد ابن
سعد فى طبقاته : لم يحضر عروة بن مسعود ولا غيلان بن سلمة حصار
الطائف ، فقد كانا بجرش يتعلمان صنعة العرادات والمنجنيق والدبابات ،
فقدما وقد انصرف رسول الله - ﷺ -[٣١٣]

وقد ألقى لنا اللواء الركن محمود شيت خطاب - الضوء - على كل من
المنجنيق والدبابة القديمة فقال :

---

(٣١٣) الطبقات جـ١ قسم٢ ، ص٥٢

يتألف المنجنيق بصورة عامة من عامود طويل قوى موضوع على عربة ذات عجلتين ، فى رأسها حلقة أو بكرة ، يمر بها حبل متين ، فى طرفه الأعلى شبكة فى هيئة كيس ، توضع فيه حجارة أو مواد محترقة فى الشبكة ، ثم تحرك بواسطة العامود والحبل ، فيندفع ما وضع فى الشبكة من القذائف ويسقط على الأسوار فيقتل أو يحرق ما يسقط عليه .

أما الدبابة القديمة فهى آلة من الخشب الثمين المغلف بالجلود تركب على عجلات مستديرة . فهى عبارة عن قلعة متحركة يستطيع المشاة الاحتماء بها من نبال الأعداء(٣١٤)

هذا السلاحان الجديدان باغت بهما الرسول ـ ﷺ ـ أعداءه فى الطائف . ولكن أهل الطائف استطاعوا إبطال هذين السلاحين وذلك بأنهم ألقوا سكك الحديد المحماة على الدبابة فأحرقتها .

●● براعة القيادة . . هى التى حمت جيش المسلمين من الهزيمة المحققة فى حنين . فأى كارثة كانت ستحل بالمسلمين بعد هزيمتهم فى أول المعركة لو لم يكن الرسول ـ ﷺ ـ هو القائد ؟؟

لقد ثبت النبى ـ ﷺ ـ ومعه عشرة فقط ، واستطاع أن يجمع حوله مائة بعد ذلك قام بهم بهجوم مضاد أدى إلى تراجع المشركين فعاد المسلمون بعد ذلك من ارتدادهم إلى الهجوم .

إن معركة حنين مثال واضح لأثر القائد الواثق من نفسه وقدرته على تغيير

---

(٣١٤) الرسول القائد

الموقف وصنع النصر واستثماره . .

وليس غريباً أن يقال : إن معركة حنين قد كسبها النبى - ﷺ - وحده ، لأن موقفه كان العامل الحاسم فى نصر المسلمين

●● ثبت من تاريخ حروب المسلمين أن هزيمتهم جاءتهم منْ قِبلَ غرورهم وانشغالهم بالدنيا . .

ففى-أحد-تركوا مواقفهم واشتغلوا بجمع الغنائم فارتد عليهمُ المشركون وحدث ما حدث .

وفى حنين أعجبتهم كثرتهم . فكان ما كان .

وقد حذر الإسلام من كلا الأمرين . حذر من فتنة الدنيا كما حذر من الغرور .

ولذلك لو اتبعت تعاليم الاسلام كاملة كما جاء بها دستوره الحكيم فى قرآنه الكريم وسنة رسوله - ﷺ - لاستعاد المسلمون مكانتهم العظيمة وحققوا النصر الذى وعد الله به من ينصره كما قال سبحانه « ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز[٣١٥] »

●● ويعتمد نجاح أى جيش على الدقة فى جمع المعلومات ، وقد أرسل النبى - ﷺ - من يجمع له المعلومات عن العدو .

ولكن المقدمة لم تقم بواجبها كما يجب ، فإنها لم تستطع معرفة المواقع التى

---

(٣١٥) سورة الحج ٤٠

احتلها المشركون ، ولذلك خُدِعَت ثم فوجئت بالهجوم غير المتوقع فحدث ما حدث .

●● وبالمقارنة بين معنويات المسلمين ومعنويات المشركين نجد الفرق شاسعاً

فقد كانت معنويات المشركين ضعيفة ...... فقد تخلفت بعض القبائل عن المعركة . وبسبب انخفاض معنويات المشركين اضطر مالك بن عوف أن يستصحب النساء والأموال ليدافع كل رجل عن حريمه وماله .

وهدد مالك قومه بالانتحار إن لم يطيعوه فيما يقول .

فهل هناك قائد يهدد بالانتحار إلا إذا كان غير واثق من نجاح خطته ، أو كان يريد أن يحرك دوافع الاستجابة إليه بهذه الحركة الانفعالية ؟

أما المسلمون فقد كانت معنوياتهم رائعة كانت فى القمة . ليسوا فى حاجة إلى إثارة ، بل وصلت معنوياتهم إلى حد الغرور والاعجاب بالنفس . ونقصد بالمسلمين أولئك الصادقين ، لا من اختلط بهم من طلقاء ، أو أعراب أو منتهزين .

●● أما عقيدة المسلمين فهى قوية ، وهم متمسكون بها ، ظهرت فى انعطافهم الشديد نحو الرسول ﷺ - حين أمر من ينادى :
يا أصحاب السمرة ، يا أصحاب سورة البقرة

وكان هناك بعض الطلقاء الذين لم يثبت الإيمان فى قلوبهم .

كما كان هناك بعض المشركين الذين لم يسلموا .

وقد ظهر من هؤلاء بوادر الفرحة حين انكشف المسلمون أولا . . ولكن الصادقين من المسلمين كانوا يعرفون تماما موضع أقدامهم ، ويعرفون أنهم يقاتلون لتكون كلمة الله هى العليا ، هؤلاء هم صناع النصر دائما لأنهم يقاتلون للفوز بإحدى الحسنيين الجنة أو النصر

أما المشركون يقاتلون فى سبيل مجد زائل ، إما دنيا يصيبونها ، أو شهرة زائفة يصلون إليها ، أو غلبة على مكان أو نيل سلطان . .

ولقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يبين للمسلمين أن الغلبة لا تتم بالكثرة ، ولكنها تتم بحول الله وقوته ، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين .

● وفى موقف مالك بن عوف عبرة وأى عبرة . لقد فر إلى الطائف مهزوما محصوراً . ولكنه ما إن علم أن النبى ـ ﷺ ـ قال : لو جاء مالك مسلما رد عليه ماله وأهله وأعطاه مائة من الإبل ـ حتى أسرع بالفرار تحت جنح الظلام متسللا من بين هؤلاء الذين نصروه وأووه ، ولجأ إلى النبى ـ ﷺ ـ

ولجوؤه للنبى محمد لا شك فيها . ولكنها تترجم مع ذلك عن دخيلة نفسه ، إنه ما حارب قبل ذلك إلا لغاية قريبة وهدف قصير ـ فما ان لاحت له الفرصة لاسترداد أهله وأمواله حتى تفتحت شهيته وألقى سلاح الحرب . فهل هذا هو قصارى جهد المحارب ؟

● مبادىء الإسلام تظهر دائماً فى حروبه . وللإسلام فى حروبه مبادىء عالية ، فقد بلغ النبى ـ ﷺ ـ أن خالداً قتل امرأة فى طريقه . فأرسل إليه

يقول له : إن رسول الله ينهاك أن تقتل امرأة أو وليدا أو عسيفا ـ أجيراً ـ

ومع ذلك فلم يكن قتل هذه المرأة عمداً من خالد ، ولكنها قتلت خطأ فى أثناء مطاردة المشركين .

ولكن هذا يذكرنا بسؤال : لماذا قطع نفر من المسلمين بعض الأشجار مع أن النبى كان ينهى عن ذلك ؟

والإجابة عن ذلك : أن هذا جائز إذا كان لتحقيق هدف حربى مثل الضغط على العدو أو حرمانه من إمداداته أو حمله على التسليم .

●● وقد رأينا أن النبى ـ ﷺ ـ قد استعار بعض الأسلحة من صفوان بن أميه ـ وكان مازال على كفره لم يسلم بعد .

وفى ذلك دليل على جواز الاستعانة بغير المسلمين عند الحرب إلا أن الاستعانة بهم تكون مقصورة على ما يؤخذ منهم من أدوات وأسلحة .

أما الاستعانة بهم فى القتال فقد مر فى غزوة أحد أن النبى ـ ﷺ ـ قال لا أستعين بالمشركين فى قتال المشركين . . وبعد فإن هذه الأحداث التى عرضنا لها حافلة بالعبر والعظات وقد ذكرنا بعض ذلك للذكرى ، والذكرى تنفع المؤمنين . .

وتنتقل الآن إلى صفحة جديدة من صفحات الجهاد الإسلامى . . . .

سرايا سبقت غزوة تبوك

مقدمة لابد منها

بغزوة الفتح وهزيمة هوازن ، استقر الأمر للإسلام فى الجزيرة العربية ، وأقبلت الوفود تترى إلى النبى - ﷺ - تعلن إسلامها وولاءها .

وكان هذا إيذانا بتحقيق قوله - تعالى -

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣ ﴾ (١)

وكان فتح مكة كما علمنا فى العام الثامن الهجرى فى شهر رمضان منه ، وتبعه التوجه إلى حنين فى شوال ، وفى منتصف شوال كان حصار الطائف ، واستمر الحصار أسبوعين أو يزيد ، حتى كانت عمرة الجعرانة فى ذى القعدة ، وبعدها عاد النبى - ﷺ - إلى المدينة المنورة . سالما غانما .. وبصحبته أصحابه وأنصاره ..

على أن استسلام قريش وهوازن للنبى - ﷺ - لا يعنى أن العرب جميعهم قد اطمأنوا إلى هذا الدين الحق ، فمازالت بقايا الجاهلية فى نفوس البعض لم تقتلع بعد ومازالت الصبابة بالأصنام متعلقة فى قلوب بعض الناس ، وبخاصة المتنفعون بذلك منهم ، ومازالت بعض القبائل البدوية تسيطر

---

(١) سورة النصر

عليها العنجهية الجاهلية وتأبى أن يسيطر عليها أحد أو تفرض عليها زكاة . .

لقد ظلت ثقيف على عنادها فترة ، ولديها اللات التى تسجد لها من دون الله ، وظلت تميم كذلك سادرة فى الكفر والضلال فترة . .

وظلت خثعم ، وبنو كلاب غير مقتنعين بالدين الجديد . .

ومن ثم فقد كان لابد من تسيير بعوث وسرايا تخضع هؤلاء المتمردين على الحق ، الواقفين فى طريق الإسلام ، الذين يحاولون أن يطفئوا نور الله والله يأبى إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرين . .

سرية عيينة بن حصن

واختار النبى - ﷺ - أعرابيا جافا ليؤمره على خمسين فارساً من الأعراب لتأديب بنى تميم حتى يلتزموا بقيم الإسلام وتعاليمه . وكانوا يقيمون بالسقيا وهى منطقة قريبة من الجحفة بينهما تسعة عشر ميلا تقريباً .

كان بنو تميم قد حرضوا ناساً من خزاعة على منع الزكاة ، حين بعث النبى - ﷺ - إليهم بشر بن أبى سفيان العدوى يأخذ منهم صدقاتهم وقد نهاه الرسول عن أخذ كرائم أموالهم ، فجمعوا ما طلب ، فاستكثر بنو تميم ذلك ، وقالوا - يحرضون خزاعة على العصيان - : ما لهذا يأخذ أموالكم منكم بالباطل ؟ وشهر بنو تميم السيوف يحاولون رد بشر ومن معه عن أخذ الصدقة . فقال الخزاعيون محتجين على بنى تميم : نحن مسلمون ، وهذا أمر ديننا . . ولكن بنى تميم أبوا عليهم ذلك، وقالوا : لن نسمح له بأخذ بعير

منها أبداً . . ولما رأى بشر أن الأمر قد استحفل ، وأن بنى تميم قد ركبت رأسها ، وخشى على حياته منهم ، هرب إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وأخبره الخبر . .

وحينئذ وثبت خزاعة على بنى تميم فأخرجوهم من بينهم ، قائلين لهم : أخرجوا من بيننا حتى لا يصيبنا الأذى بسببكم

فإن رسول الله ـ ﷺ ـ لن يسكت على ذلك حيث تعرضتم لرسوله تردونه عن صدقات أموالنا .

فخرجوا راجعين إلى بلادهم .

وعندما عاد بشر إلى رسول الله ، وأخبره بذلك قال ـ ﷺ ـ : من لهؤلاء القوم ؟

فكان أول مجيب لذلك هو عيينة بن حصن الفزارى .

كان أعرابيا فيه جفاء وغلظة ، وكان النبى ـ ﷺ ـ قد أعطاه عطاء المؤلفة قلوبهم من غنائم هوازن ، وقد تحدثنا عن ذلك .

وكان عيينة شديد الحب للمال ، يتتبعه فى كل مكان . . وقد استجاب لدعوة النبى ـ ﷺ ـ هذه لموافقتها لبوادر طبعه . .

وكان من الطبيعى ألا يرسل النبى ـ ﷺ ـ أحدا من المهاجرين والأنصار ، فقد خافه عليهم . .

وسار عيينة بن حصن إلى بنى تميم ـ يكمن بالنهار ويسير بالليل حتى هجم عليهم فى صحراء قد حلوا بها ، وسرحوا مواشيهم فيها .

وحين رأوا عيينة فزعوا وانطلقوا هاربين ، فأخذ عيينة منهم أحد عشر رجلا ، وإحدى عشرة امرأة وثلاثين صبيا ، وساق الجميع إلى المدينة ، حيث وضعهم النبى - ﷺ - فى دار رملة بنت الحارث - وهى امرأة من الأنصار من بنى النجار ، كانت لها دار واسعة ، وكان وضع فيها بنو قريظة حين نزلوا على حكم سعد بن معاذ[٢] » . .

وأقبل وفد من زعماء بنى تميم على النبى - ﷺ - لفداء هؤلاء الأسرى ، وقد سبقت الاشارة إلى هذا الوفد الذى نزل فى شأنه قوله - تعالى

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾[٣]

وقد أسلم هؤلاء الزعماء ، ورد النبى - ﷺ - أسراهم . تفضلا منه عليهم ومنا وترغيبا لهم فى الاسلام[٤]

كان هذا الوفد حين جاء - وكانوا عشرة رجال ، منهم ربيعة بن رفيع ، وسبرة بن عمرو ، والقعقاع بن معبد ، ووردان بن محرز ، والأقرع بن حابس ، وعطارد بن حاجب ، والزبرقان بن بدر - قد مروا على الأسرى ، فرأتهم النساء والأطفال فجعلوا يبكون . . فعجل الوفد بالذهاب إلى النبى

---

(٢) أسد الغابة جـ ٧ ص ١١٥
(٣) الحجرات ٤ ، ٥
(٤) شرح المواهب اللدنية جـ ٤ ص ٤٥

- ﷺ - وأخذوا ينادونه من وراء الحجرات . .

وقد افتخر الفرزدق الشاعر الأموى بفعل عمه الأقرع بن حابس الذى كلم النبى - ﷺ - فى إطلاق الأسارى فأطلقهم له ، فقال الفرزدق فى ذلك :

وعند رسول الله قام ابن حابس بخطة سوّار إلى المجد حازم
له أطلق الأسرى التي في قيودها مغللة أعناقها في الشكائم
كفى أمهات الخائفين عليهم غلاء المفادي أو سهام المقاسم

ولم يكتف النبى - ﷺ - بالمن على الأسرى وإطلاقهم ، بل أجاز الوفد وأكرمه وأعطاه .

قال ابن سعد فى طبقاته فى إسناد له : حدثنى ربيعة بن عثمان عن شيخ أخبره أن امرأة من بنى النجار قالت : أنا أنظر إلى الوفد يومئذ يأخذون العطايا عند بلال ثنتى عشرة أوقية . قالت : وقد رأيت غلاماً أعطاه يومئذ وهو أصغرهم ، خمس أواق - وهو عمرو بن الأهتم .[5] »

وأراد النبى - ﷺ - أن يولى عليهم واحداً منهم ، واستشار أصحابه فى ذلك .

فقال أبوبكر : أمرّ عليهم القعقاع بن معبد

وقال عمر : بل أمر عليهم الأقرع بن حابس .

---

(٥) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ١ قسم ٢ ص ٤٠

فقال أبوبكر لعمر : لماذا خالفتنى

فقال عمر : ما أردت خلافك . . . وأخذ كل منهما يبرهن على حسن رأيه ، وتكلم الناس وكثر الجدل وارتفع الصوت . فنزل قوله - تعالى -

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٣ ﴾ (٦)

لقد ذكر ذلك بعض الرواة - فقد روى الواحدى بسنده عن ابن جريج عن ابن أبى مليكه عن عبدالله بن الزبير فى سبب نزول الآية ما ذكرناه وروى بعض الرواة أسباباً أخرى لنزول هذه الآيات منها ما رواه الماوردى عن الضحاك عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن النبى - ﷺ - أنفذ أربعة وعشرين رجلا من أصحابه إلى بنى عامر ، فقتلوهم إلا ثلاثة تأخروا عنهم فسلموا ، ورجعوا الى المدينة فلقوا رجلين من بنى سليم ، فسألوهما عن نسبهما فقالا : من بنى عامر ، لأنهم أعز من بنى سليم فقتلوهما ، فجاء نفر

---

(٦) الحجرات ١ ، ٢ ، ٣ .

من بنى سليم إلى رسول الله - ﷺ - فقالوا : إن بيننا وبينك عهداً ، وقد قتل منا رجلان . . . فوداهما[7] النبى - ﷺ - بمائة بعير ، وتحدث الناس وتماريا فى ذلك فنزلت تلك الآيات .

ويقول بعض العلماء : لعلها نزلت فى غير سبب لتكون دستوراً للمسلمين فى أعمالهم وأقوالهم ، فلا يقدموا طاعة عن وقتها ولا يخالفوا عمل رسول الله - ﷺ - أو قوله فيها فهو إمام أمته وأسوتها - كما قال سبحانه

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾[8]

ويدخل فى عموم هذه الآية - كما قال ابن كثير - حديث معاذ قال : قال النبى - ﷺ - له حين بعثه إلى اليمن ؛ بم تحكم ؟

قال : بكتاب الله .

قال : فإن لم تجد ؟

قال : بسنة رسول الله - ﷺ -

قال : فإن لم تجد ؟

قال : أجتهد رأيى .

فضرب النبى - ﷺ - فى صدره ، وقال : « الحمد لله الذى وفق رسول

---

(٧) أدى ديتهما

(٨) الأحزاب ٢١

رسول الله لما يرضى رسول الله[٩] . »

ونحن نميل إلى هذا الرأى الأخير فى نزول الآيات ، ونكبر الصحابيين الجليلين أبى بكر وعمر - رضى الله عنهما - أن يكونا قد تجادلا أو ارتفع صوتهما أمام النبى - ﷺ - وهما اللذان يعرفان قدره تمام المعرفة . . وإن كان حدث شيء من ذلك فمن غير قصد . .

ولكن حين نزلت هذه الآيات قال أبو بكر - رضى الله عنه - : والله لا أرفع صوتى إلا كأخى السرار .

ومن التعليقات التى ذكرها المفسرون ، والتى تشير إلى إجلال الصحابة - رضوان الله عليهم - لمقام الرسول - ﷺ - واستجابتهم السريعة لما يأمر به القرآن الكريم ، ما قالوه حول موقف ثابت بن قيس الأنصارى - رضى الله عنه - فقد قالوا :

كان ثابت بن قيس جهير الصوت ، فحين نزلت هذه الآيات قال : أنا الذى كنت أرفع صوتى عند رسول الله - ﷺ - فقد أحبط عملى . فأنا من أهل النار .

وجلس ثابت فى بيته حزينا ، واعتزل الناس ، فتفقده النبى - صلى الله عليه وسلم - فانطلق بعض أصحابه إليه .

فقالوا له : تفقدك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وسأل عنك ،

---

(٩) التفسير الوسيط مجمع البحوث الاسلامية سورة الحجرات

فمالك ؟

قال ثابت : أنا الذى أرفع صوتى فوق صوت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأجهر له بالقول ، حبط عملى . ـ أنا من أهل النار . .

فأتوا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخبروه بما قال .

فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : لا ، بل هو من أهل الجنة .

قال أنس : فكنا نراه يمشى بين أظهرنا ونحن نعلم أنه من أهل الجنة ، فلما كان يوم اليمامة كان فينا بعض الانكشاف ، فجاء ثابت بن قيس وقد لبس كفنه وقال : بئسما تقودون أقرانكم ، فقاتلهم حتى قتل .

لقد كان ثابت رجلا رقيق الشعور شديد الخوف من الله ، وحين نزل قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ ﴾(١٠)

أغلق بابه وطفق يبكى فسأل عنه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأرسل اليه . .

وحين جاء قال : يارسول الله ، إنى أحب الجمال وأحب أن أسود قومى ،

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : لست منهم ، بل تعيش حميدا وتقتل شهيداً وتدخل الجنة »

---

(١٠) لقمان ١٨

فلما كان يوم اليمامة ، خرج خالد بن الوليد لقتال مسيلمة الكذاب ، فلما التقوا انكشف المسلمون أولا ، فقال ثابت وسالم مولى أبي حذيفة : ماهكذا كنا نقاتل مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم حفر كل واحد منهما حفرة لنفسه ، فثبتا وقاتلا حتى قتلا .

وكان على ثابت حينذاك درع له نفيسة ، فمر به رجل من المسلمين بعدما قتل فأخذها . فبينما رجل من المسلمين نائم أتاه ثابت فى المنام فقال له : أوصيك بوصية ، وإياك أن تقول : هذا حلم فتضيعه :

إنى لما قتلت أمس مر بى رجل من المسلمين فأخذ درعى ، ومنزله فى أقصى الناس ، وعند خبائه فرس يستن[11] فى طوله ، وقد كفأ على الدرع برمة وفوق البرمة رحل ، فائت خالد بن الوليد فمره أن يبعث إلى درعى فيأخذها ،

وإذا قدمت المدينة على خليفة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعنى أبابكر الصديق فقل له : إن علىّ من الدين كذا وكذا . . . .

فأتى الرجل خالدا فأخبره ، فبعث الى الدرع فأتى بها ـ وكانت على الصفة التى وصف ثابت . . .

وحين عاد هذا الرجل الى المدينة أخبر أبابكر ـ رضى الله عنه ـ بما رأى فأجاز أبو بكر وصيته .

---

(١١) فرس مربوط بحبل طويل يمرح فيه فى المرعى ، الطِوَل : الحبل الطويل

ولايعلم أحد أجيزت وصيته بعد موته غير ثابت بن قيس ـ رضى الله عنه ـ[12]

سرية قطبة بن عامر الى خثعم

وكان حى من خثعم يقيم بناحية بيشة[13] قريبا من تربة[14] أقاموا على كفرهم ورفضوا الاستجابة لدين الاسلام .

فأرسل إليهم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قطبة بن عامر بن حديدة بن عمرو الخزرجى على رأس عشرين رجلا ، وأمره أن يشن الغارة عليهم . . فتقدم قطبة اليهم وأنفذ وصيَّة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيهم . . كان القوم على عشرة أبعرة يعتقبونها . فوجدوا رجلا من خثعم فأخذوه ، وحاولوا أن يعرفوا منه خبر قومه ، ولكنه استعجم عليهم ، وأبى أن يصرح بشيء ، وأخذ يصيح فى محاولة لتحذير قومه ، فضربوا عنقه . .

ثم أقاموا حتى نام الخثعميون فشنوا عليهم الغارة . . ولكنهم تنبهوا فاقتتلوا قتالا شديداً .

وعلى الرغم من كثرة الجراحات فى الفريقين الا أن المسلمين انتصروا ، وساقوا النعم والشاء والأسرى إلى المدينة . .

---

(١٢) التفسير الوسيط ـ تفسير القرطبى جـ ١٦ ص ٣٠٥ ـ أسد الغابة لابن الأثير جـ ١ ص ٢٧٥

(١٣) بيشة : اسم قرية غناء فى واد كثير الأهل من بلاد اليمن ـ وبين بيشة وتبالة أربعة أميال من جهة اليمن ، وبيشة أيضا واد يصب سيله من الحجاز حجاز الطائف ثم ينصب فى نجد .

(١٤) تربة واد يأخذ من السراة ويفرغ فى نجران ، وتباله : موضع ببلاد اليمن . ويذكر الزرقانى أن تربة ـ بضم التاء وفتح الراء من أعمال مكة على يومين منها .

وحاول الخثعميون أن يستنقذوا المغانم والسبى من المسلمين ، فساروا خلفهم وقد جمعوا لذلك جموعا ، ولكن الله أرسل سيلا حال بينهم وبين المسلمين .

ووصل قطبة ومن معه إلى المدينة ، وسلم الغنائم للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقسمها بين المقاتلين . .

كانت هذه السرية فى صفر من العام التاسع الهجرى .

وإذا كان الشىء بالشىء يذكر ، وحديثنا يدور حول القصص القرآنى فإن قطبة بن عامر هذا نزلت فى شأنه آية ، هى قوله ـ تعالى : ـ

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ ﴾ (١٥)

ويجمل بنا أن نذكر قصة ذلك :

قال القرطبى : كان الأنصار إذا حجوا وعادوا لايدخلون من أبواب بيوتهم ، فإنهم كانوا إذا أهلوا بالحج أو العمرة يلتزمون شرعا ألا يحول بينهم وبين السماء حائل ، فإذا خرج الرجل منهم بعد إحرامه من بيته ، فرجع لحاجة لايدخل من باب الحجرة وذلك لأن سقف البيت يحول بينه وبين السماء ، فكان يتسنم ظهر بيته على الجدران ، ثم يقوم فى حجرته فيأمر بحاجته فتخرج اليه من بيته . وكانوا يرون ذلك من النسك والبر . .

---

(١٥) البقرة ١٨٩

بل إن بعضهم كان ينقب فى ظهر بيته نقبا فمنه يدخل ومنه يخرج ، أو يضع سلما فيصعد منه وينحدر عليه .

فحين أهل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالعمرة وقت الحديبية دخل حجرته ، فجاء قطبة بن عامر ودخل خلفه وخرق عادة قومه .

فقال له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : لم دخلت وأنت قد أحرمت ؟
فقال قطبة : دخلت أنت فدخلت بدخولك . لأن دينى هو دينك
فنزلت هذه الآية .
وفى رواية قال : يارسول الله ، رضيت بهديك ودينك وسنتك .

سرية الضحاك الى بنى كلاب

وفى ربيع الأول من العام التاسع بعث النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الضحاك بن سفيان الكلابى إلى جماعة من قومه بنى كلاب ، يطلق عليهم : القرطاء[17] ، وكان شجاعا يعدل مائة فارس . فالتقى بهم فى موضع بنجد اسمه : « زج لاده » .

وكان مع الضحاك رجل اسمه الأصيد بن سلمة بن قرط ، ورجال من المسلمين .. فدعوا القرطاء الى الاسلام فأبوا فقاتلوهم ..

---

(١٦) تفسير القرطبى جـ ٢ ص ٣٢٣ أسد الغابة جـ ٤ ص ٤٠٦
(١٧) القرطاء ـ بضم القاف وفتح الراء بطن من بنى بكر واسمه عبيد بن كلاب وهم ثلاثة : أخوة : قرط ، وقُرَيْط ، وقَرِيط .

والتقى الأصيد بأبيه سلمة ، وكان أبوه على فرس له ، فحاول أن يدعوه إلى الاسلام ، ولكن الأب نفر منه ، وسبّه وسبَّ دينه . فضرب الأصيد عرقوبى فرس أبيه ، فوقع الفرس على عرقوبيه وكان فى غدير ، فارتكز سلمة على رمحه فى الماء محاولا الاستمساك ، ولكنه لم ينج من القتل ، فقد جاءه أحد المسلمين وقتله .

اصيد بن سلمة آخر

ومن المفارقات الغريبة أن هناك رجلا آخر اسمه أصيد بن سلمة السلمى له قصة ذكرها ابن الأثير أسندها إلى على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ قال :

بعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سرية ، فأسروا رجلا من بنى سُليم يقال له : الأصيد بن سلمة ، فلما رآه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ رق له وعرض عليه الإسلام فأسلم .

فبلغ ذلك أباه ، وكان شيخاً فكتب إلى ابنه يقول :

من راكب نحو المدينة سالما	حتى يبلغ ما أقول الأصيدا
إن البنين شرارهم أمثالهم	من عقَّ والده وبر الأبعدا
أتركت دين أبيك والشم الألى	أوْدَوْا وتابعت الغداة محمدا[18]
فلأى أمر يابنى عققتنى	وتركتنى شيخاً كبيراً مفندا[19] ؟

---

(١٨) الشم : جمع أشم العالى ، أودوا : ذهبوا

(١٩) مفندا : عاجزا

أمـا النهـار فدمـع عيـنى سـاكب	وأبيت ليـل كالسـليم مُسَهَّدا[20]
فلعـل ربـاً قد هـداك لدينـه	فاشكر أياديـه عسـى أن ترشـدا
واكـتب إلى بمـا أصـبت من الهـدى	وبدينـه لاتتركـنى موحـدا
واعـلم بـأنك إن قطعـت قرابـتى	وعققـتنى لم أُلْفَ إلا للعـدا

فلما قرأ كتاب أبيه جاء للنبى - صلى الله عليه وسلم - واستأذنه فى جوابه ، فأذن له ، فكتب إليه :

إن الـذى سـمك السـماء بقـدرة	حـتى عـلا فى ملكـه فتوحـدا[21]
بعـث الـذى لامثـله فيمـا مضـى	يدعـو لرحمتـه النبـى محمـدا[22]
ضخـم الدسـيعة كالغـزالة وجهـه	قرنـا تـأزر بالمكـارم وارتـدى
فدعـا العبـاد لدينـه فتتـابعوا	طوعـا وكرهـا مقبلـين على الهـدى
وتخـوفوا النـار التى من أجلهـا	كـان الشـقى الخاسـر المتلـددا
واعـلم بـأنك ميـت ومحاسـب	فإلى متـى هـذى الضـلالة والـردى ؟

فلما قرأ الرجل كتاب ابنه أقبل إلى النبى ﷺ فأسلم . .

أهمية هذه السرايا

كان لابد من هذه السرايا التى أعقبت الفتح الأكبر ، للقضاء على آخر

---

(٢٠) السليم : الملدوغ .

(٢١) سمك : بنى ورفع

(٢٢) الدسيعة : الجفنة - الغزالة : الشمس .

جيوب للمقاومة الضالة التى لم تستبصر بعد نور الهدى ، والتى كان الكفر مسيطراً على عقولها وأفئدتها . وقد آتت هذه السرايا والبعوث ثمارها لأنها أظهرت لهؤلاء العتاة أن كلمة الله هى العليا ، وأن نور الاسلام قد انتشر فى الآفاق . .

وحان الوقت لتنطلق هذه الكلمة عالية إلى خارج الجزيرة العربية بعد أن صَمَّتْ الدول التى أرسلت إليها الكتب آذانها عنها وأخذت تدبر المؤامرات ضد المسلمين فلم تكن ردود الملوك والأمراء مستجيبة لأمر الله ، بل على العكس أعلنت هذه الدول مقاومتها للدعوة ، ووقوفها بالقوة فى طريقها . .

فكان لابد للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يتخذ إجراء حاسما أمام هؤلاء ويبين لهم أن أمة العرب الآن غيرما كانت عليه بالأمس . . . فقد ألبسها الله بالاسلام لباس العزة والأمن .

لقد بدأت الروم تتخذ موقفا حاسما من هذه الدعوة ، عن طريق تحركات نحو الحدود الشمالية ، وعن طريق مناوشات بواسطة تابعيها عبر البحر . . من ناحية الجنوب . .

فمن ناحية الجنوب ، بلغ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن ناسا من الحبشة جاءوا عبر البحر من ناحية جدة ، ورآهم أهل جدة فبعث النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ اليهم علقمة بن مُجَزِّز فى ثلثمائة رجل ، وكان ذلك فى ربيع الآخر من سنة تسع ، وانتهى علقمة ومن معه الى جزيرة فى البحر ، فهرب الأعداء من أمامه . . وكفى الله المؤمنين القتال .

وأما من ناحية الشمال فكانت غزوة تبوك التى سنتحدث عنها فيما يأتى : ـ

فهرس المجلد الرابع عشر

حدث خطأ مطبعي غير مقصود فى تسلسل أرقام صفحات المجلد الرابع عشر فكانت الصفحات من ١٩٣ إلى ٢٥٦ وصحتها من ١٢٩ إلى ١٩٣

ولكى لا يحدث تكرار للأرقام جاءت الصفحات التالية على هذا النحو ٢/١٩٣ ... ٢/١٩٤ .. إلى ٢/٢٥٦ ثم بعد ذلك التسلسل سليم من ٢٥٧ إلى ٣٦٠ على أن هذا الخطأ لم يؤثر على تسلسل المادة العلمية ..

انتهى بحمد الله المجلد الرابع عشر يليه بمشيئة الله المجلد الخامس عشر وأوله غزوة العسرة ..
